

الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون تيارت - الجزائر



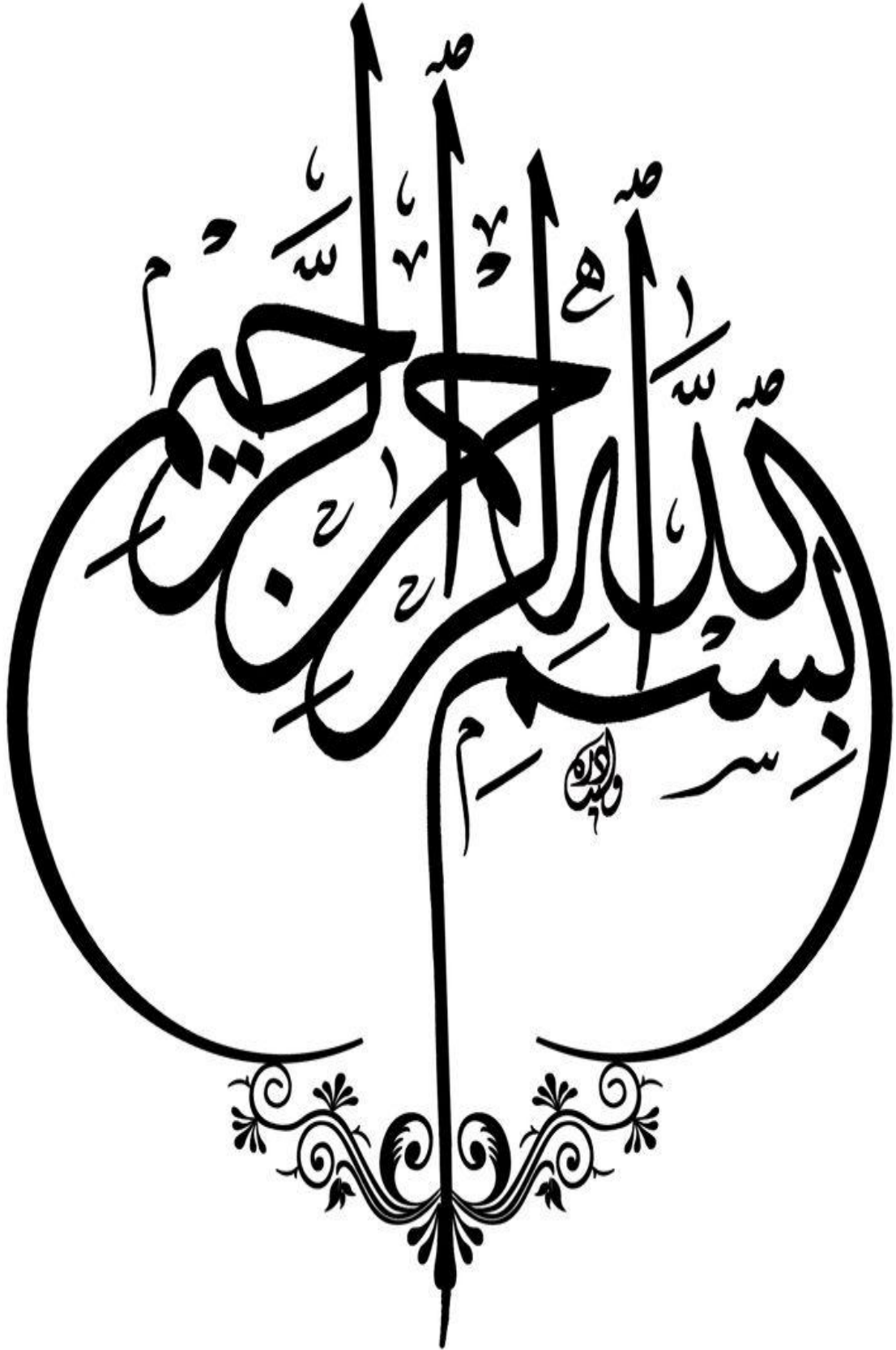
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

حامل بيداغوجي للدروس عبر الخط موجه لطلبة السنة الثانية ليسانس - ل.م.د.
السداسي الرابع
تخصص تاريخ عام

تاريخ الجزائر الحديث ق 16 - ق 19

إعداد:

د/ دوالي خديجة



مضمون مقياس المغرب العربي الحديث خلال القرنين 16-19م

يضم المقياس احدى عشر(11) محاضرة والتي بدورها تنفرع إلى عناوين جزئية نحددها في الجدول التالي:

ترتيب المحاضرة	عنوان المحاضرة
1	سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية
2	أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.
3	المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط
4	ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية.
5	تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية
6	تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين.
7	تطور نظام الحكم في تونس
8	تطور نظام الحكم في طرابلس
9	علاقات الأقطار المغاربية الخارجية (المشرق العربي، إفريقيا، أوروبا)
10	الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان المغرب الحديث

العلاقات المغاربية الثقافية

11

قائمة

المختصرات

قائمة المختصرات

مج	مجلد
تح	تحقيق
تر	ترجمة

تقديم	تق
جزء	ج
دون طبعة	د ط
دون سن	د س ن
دون مكان	د م
جمع	جم
العدد	ع
Le même ouvrage	Ibid
L'ouvrage précédant	Op. Cit
Page	P
Plusieurs Pages	P-P
Revue africaine	R.A
Tome	T

مقدمة

عرفت نهاية الحقبة الوسيطة وبداية الفترة الحديثة مستجدات خطيرة سواء على صعيد العالم الإسلامي أو النصراني، فعلى المستوى الأول عرف تهاوي سريع للخلافة العباسية مما ساهم في تشتت وتمزق نخر جسم مشرقه ومغربه على حد سواء، في المقابل شهد العالم النصراني حركة الكشوفات الجغرافية وبداية عصر النهضة، خاصة على مستوى شبه الجزيرة الابيرية، هذه الأخيرة شهدت أحداثا متسارعة إذ تهاوت الامارات الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في يد الاسبان الكاثوليك ولم يبق من الأندلس سوى غرناطة "Grenade" التي بقيت صامدة في وجه الاعصار الصليبي الذي قرر أنه لن يتوقف إلا بعد القضاء على دولة الإسلام في المنطقة. وقد ساهم في انجاح مشروع كثلكة الأندلس مساندة العالم النصراني لاسبان، إذ أصدر البابا أوربان الثاني "Pape Urbain II" مرسوما حرم فيه على رجال الدين والنصارى الكاثوليك المشاركة في الحروب الصليبية الموجهة نحو مسلمي الشرق.

استغل عدد كبير من الفرسان النصارى هذا المرسوم، فهرعوا من مختلف أنحاء أوروبا إلى الأندلس ليساهموا في حرب لا تكلفهم من العناء ما قد تكلفهم إياه تلك التي تدور رحاها في بلاد الشرق الإسلامي، بل إن البعثات الصليبية التي كانت ترد من أوروبا الشمالية على نية التوجه إلى الشرق لم تكن ترى مانعا من إعانة الملوك الاسبان في حربهم ضد مسلمي المنطقة، والذي انجر عنه سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة 1492م. وقد مثل هذا الحدث المأسوي ليس على مستوى الضمير الجمعي للأمم الأندلسية فقط ولكن أيضا للأمم العربية والإسلامية جمعاء مأساة حقيقية وبداية للمحنة التي ستجبر الأندلسيين والمغاربة على حد سواء خوض صراع طويل ومرير في معركة البقاء.

فقد نتج عن سقوط الأندلس في يد الاسبان انعكاسات داخلية وخارجية، خاصة بعدما تعهد الملكان الكاثوليكيان فرناندو "Fernando" وازيلا "Isabelle" بالقضاء على كل ما يرمز للدين الإسلامي معتمدين في ذلك على عمل محاكم التفتيش التي كانت آلتهم الجهنمية والشيطانية

في تجسيد هذا المشروع على أرض الواقع. هذا على مستوى الأندلس الشهيدة، أما على مستوى بلدان المغرب الإسلامي فقد حركت مشروعاً توسعياً بهدف احتلال كل سواحله.

في الطرف المقابل ظهرت قوة إسلامية جديدة رفعت على عاتقها حماية العالم الإسلامي مغربه ومشرقه من التهاوي في يد الصليبيين تمثلت في العثمانيين، هؤلاء بعدما نجحوا في زحزحة الروم البيزنطيين من الشمال وكونوا مملكتهم بآسيا الصغرى "الأناضول" أواخر القرن 13 م، عبروا بحر مرة ومضيق البوسفور "Bosphore" والدرديل "Dardanelles"، وأطاحوا بالامبراطورية البيزنطية، ثم أخذ العثمانيون يوسعون مملكتهم على حساب الإمارات النصرانية الأخرى. وخلال السبعين (70) سنة التي تلت غزو بلاد فارس سيطروا على بلاد الشام والعراق ومصر، وتسلموا إشارات الخلافة الإسلامية من آخر الخلفاء العباسيين بمصر عام 1517م، فاكتمل بذلك احترام وتقدير الشعوب الإسلامية وجمع سلاطينهم بين السلطتين "الدينية والسياسية".

أما المغرب الإسلامي الذي كان يتمتع بالوحدة المتكاملة "الجغرافية والعرقية والتاريخية" فقد قاوم كل ما كان في شأنه أن يمس بهذه المقومات، غير أنه خلال القرن 13م تراجعت قوة دولة الموحدين بعد تلك الهزائم المتتالية التي تعرضت لها والتي كانت سبباً مباشراً في ضعفها، وضياع هيبتها، خاصة بعد وفاة محمد الناصر الذي يعتبر موته بداية لانحيار البيت الموحيدي، ونهاية عصر القوة وبداية عصر التفرقة والتنافس على عرش الخلافة، مما أسرع بسقوطها، تلك النهاية المأسوية للعهد الموحيدي نتج عنه ظهور ثلاث دويلات منفصلة في المغرب الإسلامي (الحفصية والزيرية والمرينية).

ويمكننا تقسيم تفاعلات بلاد المغرب الإسلامي في محيطه الإقليمي إلى أربع دوائر رئيسية؛ الدائرة الحفصية، والدائرة المرينية، والدائرة الزيرية ودائرة البحر الأبيض المتوسط. فمنذ سقوط دولة الموحدين ظهرت مؤشرات تنبئ على حدوث تغييرات في أدوات السياسة الخارجية للمالك الثلاث - الحفصية والزيرية والمرينية-، حيث بدأ الصراع حول من يخلف الموحدين في توحيد بلاد المغرب الإسلامي تحت راية حكم واحد، ومن بين أشكاله نذكر التنافس والتناحر حول بسط النفوذ والزعامة الإقليمية والذي ارتكز حول احتلال قواعد مهمة من قواعد كل مملكة، فالواقف على الأحداث

التاريخية خلال الفترة قيد الدراسة يلاحظ بأن كل الحملات العسكرية التي شنتها إحدى الممالك الثلاث على الأخرى ارتكزت على احتلال حواضر كان لها وزنها الجغرافي والتاريخي والسياسي وكذا الاقتصادي، على أساس أنها ستكون نقطة البداية لتحقيق الأهداف المسطرة.

وكنتيجة منطقية لهذا الصراع الطويل والمكلف فقدت المنطقة وحدتها، وكان ذلك من بين العوامل التي ساعدت الاسبان والبرتغاليين على ممارسة الاعتداءات المتكررة على مدن المغرب الإسلامي الساحلية، ولقد اتسمت هذه الغارات بالوحشية والشراسة في تخريب العمران وإتلاف الأملاك وسلب الأموال، وقتل السكان واسترقاقهم وإذلالهم، بعد احتلال مدنها.

عقب هذه الأحداث، ولأن المغرب الإسلامي في تلك المرحلة الحرجة من تاريخه كان يفتقر إلى وحدة سياسية واجتماعية، وقوة عسكرية، اضطر للبحث عن منقذ له يدفع عنه هذا الخطر الصليبي؛ فلم يجد أمامه سوى الخلافة العثمانية التي كانت تمثل آنذاك قوة عسكرية وسياسية، خاصة وأنها حملت على عاتقها مهمة الدفاع على الأراضي الإسلامية من التحرشات الصليبية.

على هذا الأساس استنجدت كل من الجزائر وطرابلس وتونس بالاحوة ببروس هؤلاء مثلوا الخلافة العثمانية على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط؛ فبعد أن وصلت أخبار جهادهم البحري وانتصاراتهم إلى مسامع سكان البلدين، لم يترددوا في طلب العون منهم، وما كان لهم إلا أن استجابوا لنداء الاستغاثة، الذي تحول لاحقا إلى الحاق كل من تونس وطرابلس بالخلافة العثمانية.

انطلاقا مما ذكر أعلاه فإن موضوع المقياس سيرتكز حول أوضاع كل من الجزائر وطرابلس وتونس والمغرب الأقصى خلال القرنين 16-19م مبني على محاولة منا لتقييم المسار التاريخي له في أبعاده الجغرافية والسياسية والعسكرية.

تكمن الأهمية التاريخية لهذا المقياس كونه يقف على قضيتين هامتين، أولاهما: كيف وصل العثمانيون إلى المنطقة وحكموها مدة طويلة من الزمن؟، ثم كيف تحول وجودهم من استنجد إلى تبعية؟. أما القضية الثانية فحاولنا من خلالها تسليط الضوء على التغييرات التي مست كل الميادين خاصة السياسية منها والعسكرية.

إن الهدف من هذا التتبع هو محاولة منا لتخليص تاريخ هذه المناطق خلال الفترة قيد الدراسة من بعض التصورات الاستشراافية والتصورات العربية الإسلامية على حد سواء، هاتين اختزلتاه معا في التعبير عن احتدام الصراع بين العثمانيين وسكان البلدان المغاربية دون النظر في تحولاته واختلافاته مع العمل على تخليصه كذلك من كل المزاعم المغلوطة. فموضوعنا هذا ينطلق من افتراض يسمح لنا بالحديث عن وجود تعايش سلمي بين الطرفين -العثماني والمغربي-، وسنحاول اثبات هذا الافتراض أو نفيه بتناولنا لوضعية هذه المناطق ودراسة خصائصها.

إن كل بحث يحاول من خلاله الباحث التأسيس لفكرة ينطلق من خلالها حتى تتبلور لتصبح دراسة قائمة بذاتها، فكان لا بد له أيضا أن ينطلق من إشكالية تكون الأساس للبحث بحيث اعتمدنا في معالجة المحاور الرئيسة للمقياس على إشكالية عامة كانت المحور الأساس لموضوع الدراسة تمثلت فيما يلي: ما هي الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية لكل من الجزائر وطرابلس وتونس والمغرب الأقصى خلال القرنين 16-19م؟ وتفرعت على هذه الاشكالية مجموعة من الفرضيات لعل من أهمها:

✓ هل سقوط غرناطة سنة 1492م كان بالفعل المؤشر لانطلاق الحملات الصليبية على بلاد المغرب عموما.

✓ هل يعتبر تبعية كل من الجزائر وطرابلس وتونس للخلافة العثمانية احتلال أو غزو، أو حصل ذلك بطريقة شرعية.

✓ متى كان الالتحاق الرسمي لها.

✓ ما هي الصعوبات والعراقيل التي وقفت حاجزا أمام تقدم العثمانيين في مختلف المناطق المغاربية.

✓ هل استطاع العثمانيون تحقيق كل الأهداف التي سطرها قبيل تدخلهم؟

✓ هل التحاق كل من الجزائر وطرابلس وتونس بالخلافة العثمانية كان بفعل الرابط الديني والتاريخي بين الطرفين أم أن المصلحة المتبادلة بين الطرفين هي التي كانت وراء ذلك.

✓ هل بالفعل انفصلت هاته الدول عن الخلافة العثمانية وبقيت تبعيتها لها اسمية فقط، أم هذا كلام لا وجود له في أرض الواقع؟ وإن كان كذلك فما هي الحجج التي تؤكد ذلك -أي عدم الانفصال-.

✓ ما السر الذي جعل من الجزائر تلعب دورا محوريا ورئيسا في هذه المناطق.

✓ هل التحاق كل من الجزائر وطرابلس وتونس بالخلافة العثمانية كان كله مساوئ وسلبات كما أكدته العديد من الدراسات أم أنه بالفعل قد حقق لهما مكاسب سياسية وعسكرية لم تكن لتحقيقهما لولا هذا الالتحاق.

✓ المغرب الأقصى رفض رفضا قطعيا الخضوع للعثمانيين فما الدوافع الحقيقية وراء ذلك، وهل تمكن من صد العدوان المزدوج -الاسباني والبرتغالي- بامكاناته الخاصة ودون اللجوء إلى الدعم العسكري العثماني كما فعل جيرانه - الجزائر وطرابلس وتونس.

✓ كيف استطاعت السلطة العثمانية الحاكمة ضمان حقوق الساكنة المغاربية؟ وماهي الأسباب الحقيقية التي حولت ذلك التعايش السلمي إلى صراع بين الطرفين إلى أن تم استئصال الوجود العثماني استئصالا تاما من المنطقة، بحيث لم يعد لهم كيان على الرغم من أنهم حكموا المنطقة لفترة زمنية غير هينة.

✓ إلى أي حد يمكننا أن نؤسس لأطروحة تحلل مضامين ومقومات وأشكال تصوير الصراع بين المغرب الأقصى والعثمانيين خلال الفترة قيد الدراسة.

وللاجابة على الاشكالية المطروحة أعلاه وما تفرع عنها من فرضيات كان لا بد لنا من اتباع

منهج علمي سليم، فإذا كان المنهج العلمي يفرض على الباحث ضرورة أن يكون موضوعيا في دراسته بمعنى تصوير الواقع ووصفه كما يوجد بالفعل فإن أول التزام أخلاقي له هو الالتزام بالموضوعية والكشف عن الحقيقة التاريخية ولو بشكلها النسبي. والالتزام بالموضوعية يعني الانحياز للحقيقة والالتزام بها وهذا يعد أهم وأول مبدأ أخلاقي في العلم؛ فالموضوعية ليست مرادفا للحياد الأخلاقي كما يردده البعض، ولكن تعني تصوير الواقع على ما هو عليه، وتنحية كل اعتبار انفعالي أو عاطفي

أو قيمي والتحرر من سلطة العرف الاجتماعي، وذلك من أجل الفهم العلمي لأسباب وجود ظاهرة معينة وعلاقتها بمحيطها. ومن بين أهم المناهج التي وظفناها للتأسيس العلمي لهذا البحث نذكر:

✓ المنهج التاريخي الذي يعتمد على تحليل وتفسير الأحداث الماضية، فيصف عناصرها ويحدد مسبباتها ويسرد نتائجها، مستعينين بتلك المعلومات لاستيعاب الواقع التاريخي، مستنبطين عدة نتائج محللة ومدروسة وفق خطوات علمية متسلسلة، بالاستناد على وقائع وتجارب سابقة. وتكمن أهمية هذا المنهج في تأكيده على العلاقة الوطيدة والدائمة بين الأحداث الماضية وتفاعل آثارها الباقية في الحاضر والمستقبل، وأنه أيضا يساعد على تفعيل المراجعات الحقيقية والعلمية لنظريات أو قوانين أو عادات سابقة ويخضعها للتحليل والنقض أو الإثبات، كما أنه يدعم تراكم الخبرات والاستفادة من كل تجربة، لتصحيح مسار الواقع نحو المستقبل.

✓ المنهج الوصفي: ثم تليها الخطوة الثانية التي تعتمد على الوصف والتصنيف فالباحث يصف الأحداث والوقائع التاريخية، وتساعد النظرية العلمية التي تبناها في التركيز على الخصائص الجوهرية للظاهرة المدروسة وذلك بما تضمنه هذه النظرية من مفاهيم وقضايا، ثم بعد ذلك تصنف مادة الوصف وهنا يأتي مرة أخرى دور النظرية التي تساعد على صياغة معايير معينة لتصنيفه.

أما فيما يخص أهم الملاحظات المسجلة حول المحاور العامة للمقياس فيمكننا تلخيصها في العناصر التالية:

✓ نظرا لطول الفترة الزمنية وشساعة الرقعة الجغرافية التي تناولتها المحاور الأساسية للمقياس سوف نقتصر على عرض بعض النماذج من أنظمة الحكم التي سوف تكون المرآة العاكسة للوضع العام الذي عاشته هذه المناطق خلال الفترة الحديثة.

✓ المتتبع للأحداث التاريخية التي عاشتها بلدان المغرب العربي خلال الفترة الحديثة يدرك تمام الإدراك أن المغرب الأقصى لم يقبل بتبعيته للخلافة العثمانية بالرغم من أن كل من الجزائر وطرابلس وتونس فعلت ذلك، وبالتالي سيجد الطالب نفسه وهو يتطلع على سير الأحداث في هذا البلد كأنه كان قاعدة شادة واستثنائية.

المحور الأول: سقوط غرناطة وانعكاساتها على البلدان المغاربية

هذا المحور يضم محاضرتين أساسيتين هما:

(1)- سقوط الأندلس سنة 1492م

(2)- انعكاسات سقوط غرناطة على البلدان المغاربية

مقدمة

ليست قراءة التاريخ والوقوف على حقائقه بدقة بالأمر الهين. وليس تحديد عوامل سقوط أمة أو حضارة أمراً هيناً، إذ لا تكمن صعوبة هذا الأمر في مدى إمكانية التحقق من حدوث الوقائع التاريخية فحسب، ولكن في مدى إمكانية قراءتها قراءة دقيقة، فالباحث حين يقرأ التاريخ لا يقرأه على نحو مباشر، وإنما من خلال إشكالية كونها ورسم لها خطوطها. لذا فإن تفسير الحقائق يتوقف إلى حد بعيد على الخلفيات الثقافية للمفسرين. وهذا يعني أن علينا أن نرضى بموضوعية ناقصة ونتائج نسبية. ومشكلة التاريخ أنه يتأبى على الخضوع للتجربة، فنحن لا نستطيع أن نجزم هل لو أن أهل الأندلس لم يغرقوا في النعيم أو لم ينقسموا على أنفسهم، أو لم يصيروا من الهجوم إلى الدفاع، هل كانت أعمار دولهم ستطول أكثر مما كانت عليه؟

وعموماً لنا في تاريخ الأندلس ذلك الفردوس المفقود لدروسا وعبرا لا نجدها في تاريخ غيرها من البلاد. ولا شك أن ازدهار المسلمين ثم انهيار دولتهم وسقوط حضارتهم يشكل جزءاً هاماً من

تاريخ الإسلام السياسي والحضاري، فقد كانت الأندلس نموذجاً أمثل لرفي المسلمين الثقافي والإنساني، ولم يستطع التاريخ أن يقدم نظائر لما أنتجته من علماء ومفكرين.

1-1) سقوط الأندلس سنة 1492م على يد الإسبان: كانت الوحدة القشتالية أولاً والإسبانية ثانياً، المحور الأساس الذي دار حوله عمل الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرناندو، إذ جعلاً من قشتالة مركز استقطاب للعديد من المتطوعين المتحمسين للنصرانية ظاهرياً فقط، فالأطماع الاقتصادية هي التي كانت تحركهم، وذلك بغية الاستيلاء على الأراضي المنتزعة من يد المسلمين، فجلب العرش القشتالي لذلك الجنود والضباط أي أنه أصبح لديه الإدارة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة. وعندما تجسدت هذه الوضعية، رسم الملكان أهدافهما، من أهمها إخراج المسلمين والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم متجهة إلى الوحدة السياسية والدينية. وقد كانت لهذه الوحدة نتائج خطيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي.

1-1) الأندلس في طريق المحنة: شكل سقوط غرناطة⁽¹⁾ مأساة كبرى، لأن ذلك لم يكن سقوط مملكة، وإنما سقوط حضارة، كان يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لبداية جديدة، فسقوطها قلع شعباً مسلماً من جذوره وعرضه للضياع الكامل، ومن هنا تأتي فرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس⁽²⁾. وذلك لأن أسباب السقوط عديدة، ولا نعرف على وجه التحديد شكل النتائج إذا تخلف واحد منها. فقد قامت مملكة غرناطة سنة 1238م⁽³⁾، حيث استطاع محمد بن

¹ - غرناطة: معناها بالإسبانية "الرمانة" وهي شعارها التاريخي، الذي ما زال ماثلاً على باب قصبة الحمراء، في شكل ثلاث رمانات صخرية كبيرة. كانت آخر القواعد الأندلسية التي سقطت في يد النصارى الإسبان. ينظر: محمد عبد الله عنان - الآثار الباقية في إسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أثرية) - ط: 2 - مطبعة التأليف والترجمة والنشر - 1311هـ/1921م - ص: 160.

² - الأندلس: عبارة عن جزيرة متصلة ببحر أقياسي اسمها في القلم ابارية، ثم سميت باطقة، وعرفت بعدها بإسبانيا، ثم سميت بالأندلس. ينظر: محمد بن علي بن الشباط التوزري - وصف الأندلس (قطعة من كتاب صلة الصمط وسممة المرط) - دراسة وتحقيق: أحمد مختار العبادي - ط: 1 - المعهد المصري للدراسات الإسلامية - مدريد - 1971م - ص: 100. وذكر آخر أن الأندلس هي جزيرة متصلة ببحر أقياسي اسمها في القدم أبارية، وأول من نزلها وملكها وبنى بها المدن وغرس الأشجار بعد موقعة الطوفان قوم يقال لهم الأندلس ابن نفرش بن يافث بن نوح عليه السلام وعليهم سميت الأندلس. ينظر: مؤلف مجهول - تاريخ الأندلس - مخطوط رقم: 1528 - الخزانة الحسينية - الرباط - ورقة رقم: 66.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المقرئ بن محمد أحمد شهاب الدين التلمساني - نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس - د ط - دار صادر - بيروت - 1408هـ/1988م.

يوسف النصرى المعروف بـ "ابن الأحمر" أن يقيم مملكة امتدت رقعتها من جيان "Jaén"⁽¹⁾ شمالاً إلى الجزيرة الخضراء "Algeciras"⁽²⁾ جنوباً، مستغلاً حالة الفوضى التي سادت البلاد في تلك الفترة لتقوية حكمه في غرناطة والوقوف أمام الأطماع الإسبانية، وبعد وفاته استطاع خلفاؤه من بني نصر الاحتفاظ بهذه المملكة مدة قرنين ونصف من الزمن.

فقد تمكنت هذه المملكة أن تقف شوكة في حلق الممالك النصرانية الشمالية فاستطاعت بذلك أن تؤخر سقوط الأندلس إلى غاية سنة 1492م، لذلك لاحظ الإسبان أن وجودها يعرقل استكمال وحدتهم، فعزموا على القضاء عليها، وبذلك أصبحت غرناطة هدفاً لعدوان كل من مملكة

قشتالة "Castilla"⁽³⁾ وأراغون "Aragon"⁽⁴⁾ خاصة بعد الزواج السياسي الذي تم الملكين الكاثوليكين إيزابيلا⁽⁵⁾ وفرناندو⁽¹⁾.

¹ - جيان: من بين أحسن المدن الأندلسية، تقع على سطح جبل عال وبها أقاليم عدة وحمامات كثيرة ذات مياه عذبة. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - تح: مخزوم محمد - دط - دار أحياء التراث العربي - بيروت - 1987م - ص: 193.

² - الجزيرة الخضراء: يقال لها جزيرة أم حكيم، نسبة إلى جارية طارق بن زياد، أقرب مدن الأندلس مجازاً إلى العدو. وهي أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام. ينظر: الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار - تح: إحسان عباس - ط: 2 - مؤسسة ناصر للثقافة - القاهرة - 1980م - ص: 73 - 75. والجزيرة الخضراء هي عبارة عن مدينة فسيحة الشوارع، متسعة المسالك، مرصفة الأزقة ديارها متقنة البنان، ولا ماء بالمدينة إلا الآبار، وشراهم من الوادي لقره وجودته. ينظر: أحمد بن المهدي الغزال - نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد (رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس) - تح وتو: اسماعيل العربي - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984م - ص: 57.

³ - مملكة قشتالة: تقع بين ليون ونبارة؛ يحكمها زعيم محلي مقره برغش "Burgos"، يخضع ملك ليون؛ حصلت قشتالة على استقلالها في منتصف القرن العاشر ميلادي على يد فران غنصالص "Fernan Gonzales" (970هـ/970م). ينظر: الحجي علي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897.92هـ/1492.711م) - دار القلم - دمشق - ص: 275.

⁴ - مملكة أراغون: يقال عن أصول مملكة أراغون أن رعيتهما كانوا قوطاً، تراجعوا إلى جبال البيرينيه بعد الفتح الإسلامي للمنطقة؛ ثم اغتصموا فرصة اندلاع الاضطرابات في الثغور الأندلسية فحققوا تقدماً لم يصبح مؤثراً إلا بعدما احتل الملك الأراغوني ألفونسو الأول الشهير بـ "المحارب" سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى عام 512هـ/1118م. أما أشهر ملوك المملكة فنذكر خايمي الأول (610-675هـ/1213-1276م). ينظر: عادل سعيد البشتاوي - الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة) - ط: 1 - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - 2000م - ص: 60.

⁵ - إيزابيلا: ولدت سنة 856هـ/1451م، وتوفيت سنة 910هـ/1504م. ينظر: Louis Cardailiac- L'Espagne des Rios catholiques (Le prince don Juan Symbol de l'apofée d'un règne, 1474_1497 Edition Aurement _ collection Mémoires- P: 23.

كما لعب الخلاف الذي بدأ يدب في صفوف البيت النصرى دورا بارزا في القضاء على هذه المملكة⁽²⁾؛ ففي الآونة التي أخذت فيها الفرقة تمزق أوصالها، بدأت القوى النصرانية تنفذ مخططاتها، فكانت البداية بإجبار غرناطة على دفع الضرائب، لكنها رفضت ذلك، فاستغل الملك فرناندو الموقف محتلا الحامة⁽³⁾؛ كما تمكن من الزحف على مدينة لوشة "Loja"⁽⁴⁾ ومحاصرتها، إلا أنه لم يتمكن منها بسبب وجود حامية عسكرية كبدت قواته خسائر فادحة.

بعدها آل الحكم إلى أبي عبد الله⁽⁵⁾، قرر هذا الأخير مواجهة الزحف النصراني، لكنه سرعان ما انهزم، ووقع أسيرا، فاستغل الملكان هذا الحدث واشترطوا عليه مجموعة من الشروط مقابل

وهي ابنة الملك خوان الثاني ملك قشتالة، وحفيدة أنريكي الرابع. ينظر: الزويى محمود- محاكم التفتيش الإسبانية (922هـ/1516م)- د ط- دار زهران للنشر والتوزيع- الأردن- د س ط- ص : 42.

¹ - الملك فرناندو: في بعض المراجع نجده باسم فرديناند، وفي مراجع أخرى فرناندو. ولد الملك فرناندو عام 856هـ/1421م. وأصبح ملكا على صقلية سنة 873هـ/1468م، ثم ملكا على أراغون سنة 884هـ/1479م، ينظر:

Rodrigo de Zayas- Les moresques et le racisme d'état et la différence- Paris- 1992- P: 82.

بعدها أصبح ملكا على نابلي عام 910هـ/1504م؛ ثم ملكا على قشتالة منذ سنة 887هـ/1484م. ينظر: البشتاوى عادل سعيد- الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة)- د ط- مطابع أنترناشيونال برس- القاهرة- 1403هـ/1983م- ص: 123.

² - لقد كان للنساء أثرا بارزا في إذكاء هذا الخلاف والتعجيل بسقوط غرناطة، فالصراع الذي كان بين الزوجتين كان سببا في تقسيم المجتمع الغرناطي إلى فريقين، فريق يؤيد الملكة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته، فكانت الغلبة للفريق الأخير ولكن لفترة معينة. نظر: مؤلف مجهول- نبذة العصر في أخبار انقضاء دولة بني نصر- تح: مؤنس حسين- ط: 1- مطابع الزهراء للإعلام العربى القاهرة- 1991م- ص: 79.

³ - الحامة: مدينة غنية في مملكة غرناطة. احتلها الإسبان سنة 887هـ/1482م، بعد أن قتلوا أهلها ونكلوا بهم. ينظر: علي المنتصر الكتاني- انبعاث الإسلام في الأندلس- الجامعة الإسلامية العالمية- ط: 1- مجمع البحوث الإسلامية- إسلام آباد- 1313هـ/1992م- ص: 51. في حين وصفها عبد الواحد دنون طه أمما من بين أهم الميادين في غرناطة، وهي عبارة عن ساحة فسيحة تحيط بها المحلات التجارية وتتفرع منها عدة شوارع. ينظر: عبد الواحد دنون- آفاق غرناطة- د ط- دار المعرفة- دمشق- 1408هـ/1988م- ص: 110.

⁴ - لوشة : من أعمال مالقة كانت كدنية عامرة في عهد العرب، استولى عليها الملك فرناندو سنة 1488م. ينظر: على اسلام باشا- اسبانيا والأندلس- د ط- د د ن- الاسكندرية- 2001م- ص: 10.

⁵ - أبو عبد الله: الملقب في المصادر الإسبانية بـ "باوديل Baobdel" كان ضعيف الرأي، كثير التردد، شديد الوسواس والتطير، وزاده خبالا أن استقر في نفسه أن القدر يجاربه، فكان يندب دائما سوء طالعته ونحو نجمه، وعرف بين الناس بـ "الشقيتو" أي الشقي، وبالرُغْبِي، وكثيرا ما كان يقول: لقد كتب في لوح القدر أن أكون مشعوم الطالع، وأن يكون زوال هذه المملكة على يدي. وكان أبو عبد الله كثيرا ما كان يسمع سبه ولعنه بأذنه في جميع شوارع غرناطة، وأمامه بخيانة قومه ومخالفة أعدائه، ومع كل هذا كان يعيش مطمئنا هادئ البال، تام الثقة بخلفائه، سعيدا بزوال ملك عمه. ينظر: ستانلي لين بول- قصة العرب في اسبانيا- تر: علي جارم بك- د ط- د د ن- مصر- د س ط- ص: 146. آل إليه الملك بعدما فشل والده أبو الحسن في مواجهته،

مما أدى بهذا الأخير إلى الاستقلال بمالقة وضواحيها. ينظر : مؤلف مجهول- أخبار العصر- (المصدر السابق)- ص ص : 85، 86.

اطلاق سراحه⁽¹⁾؛ هذه الشروط هي التي مكنتهما في حقيقة الأمر من تنفيذ خطتهما، خاصة وأن هذا الأمير كان ضعيف الإرادة، همه الوحيد استعادة عرشه.

بعد عودة أبي عبد الله توالى الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة⁽²⁾، مما سهل على القوى النصرانية احتلال العديد من المناطق إلى أن تمكنوا من تضيق الخناق على غرناطة، وخلال المعارك التي جرت بين الطرفين تم أسر أبي عبد الله للمرة الثانية مما أدى به إلى تسليم المدينة مقابل اتفاقيتين إحداهما

سرية وأخرى علنية⁽³⁾. وبعد عقد هذه الاتفاقيات ركزت القوى النصرانية على المناطق الخاضعة لعمه الزغل⁽⁴⁾، نظرا لأهميتها، فسقطت الواحدة تلو الأخرى بعد دفاع مستميت من قبل أهلها.

بعد الاستيلاء على هذه المناطق لم يبق أمام النصارى سوى توجيه الضربة النهائية إلى غرناطة، فأرسل الملكان فرناندو وإيزابيلا إلى أبي عبد الله رسلا يطالباه بتسليم المدينة، وتطبيق بنود الاتفاقية السرية المبرمة بين الطرفين، وطلب من هذا القبيل يعني نهاية المملكة، هذا ما أثار غضب الزعماء والفقهاء، فقرروا تجنيد المسلمين للجهاد دفاعا على دينهم وحضارتهم⁽⁵⁾؛ ولكن نظرا لعدم تكافؤ

1- حومد أسعد- محنة العرب في الأندلس- ط: 1- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- 1400 هـ/1980م- ص: 86.

3- استغلت الجيوش القشتالية الخلافات التي كانت بين العم والابن فسارعت في اتجاه الحصون المحيطة بغرناطة لاحتلالها، إذ تمكنت من ذلك وأخرجت أهلها ثم شحنتها بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح. بنظر: المقرئ- نفع الطيب- ج: 2- (المصدر السابق)- ص: 515، 516.

3- تضاربت المصادر والمراجع حول الرقم النهائي لعدد بنود المعاهدة، فمن المصادر نذكر المقرئ في تأليفه نفع الطيب، الجزء الرابع من الصفحة 525 وما يليها أورد عدد بنودها سبعة وستين بندا؛ أما من المراجع فنذكر محمد عبد الله عنان في مرجعه: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين- دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع- ط: 4- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1987م- من صفحة رقم: 22 إلى غاية صفحة رقم: 32. فقد 48 بند. أيضا هنري تشارلس- العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة- تر: الكرمي حسن سعيد- ط: 1- دار لبنان للطباعة والنشر- بيروت- 1988م- ص: 32-38. الذي أورد 56 بندا نقلا عن المصادر الإسبانية.

4- الزغل: هو أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) شقيق أبي الحسن علي بن سعد المعروف باسم الزغل في المصادر التاريخية، عرف بشجاعته وبسالته، كان حكمه من سنة 888هـ/1483م. إلى غاية 982هـ/1074م استسلم وغادر الأندلس نحو تلمسان. ينظر: الحجي علي عبد الرحمان- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897.92هـ/1492.711م)- د ط - دار القلم- دمشق- د س ط- ص: 568. وكلمة الزغل تعني في اللغة العربية الفتى الشاب. ينظر: ستانلي لين بول- المرجع السابق- 146.

5- استمر الدفاع على مملكة غرناطة ما يناهز سبع أشهر، أظهر خلالها مسلمو غرناطة كل ضروب الشجاعة والصبر، إلا أن طول الحصار أخذ يؤثر على صمودهم فلم يجدوا بدا من الدخول في مفاوضات مع العدو من أجل الاستسلام. ينظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر، (المصدر السابق). ص: 112، 114.

القوتين سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس وسلمت للملكين بسبب تشتت كلمة المسلمين وتفرق صفوفهم⁽¹⁾، فانهى بذلك الوجود الإسلامي بالمنطقة كنظام حكم وليس كدين.

ومنذ خريف سنة 1489م أضحت غرناطة كالمصباح المرتجف تنطفئ أضواؤه تبعاً، ورب قائل أن تناحر الأندلسيين ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم، بغض النظر عن السبل، هو السبب في سقوط الأندلس وتبدد شعبها، ورب قائل أن الأندلس قامت كيانا غربياً عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن ليحتمل دينا غير النصرانية. ورب قائل أيضاً أن الأندلس ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف العالم الإسلامي وتنهشته الشعوبية⁽²⁾ والمؤامرات وتكالب أعداؤه عليه من كل جانب؛ وربما زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا، وكان عليهم الجلاء عندما توفر للشمال النصراني العزم على طردهم، وأن الوجود الإسلامي في إسبانيا كان تجربة تمت وتقوت واستمرت وأنجزت، ثم هبطت وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التي قامت عليها كما صورتها نظرية الهرم الخلدوني⁽³⁾.

وبين هذا وذاك سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس بسبب تشتت المسلمين وتفرق صفوفهم، والاستعانة بالعدو الغادر على بعضهم البعض، لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية. فالنهاية المأسوية للأمة الإسلامية في الأندلس قلما نجد لها نظير في التاريخ رغم أن أمماً عديدة عرفت النهاية التراجيدية نفسها، فالدارس يجد نفسه وهو يتصفح يوميات المسلمين المتبقين بعد السقوط أمام مشهد مروع يصور معاناتهم اليومية رغبة في البقاء على دينهم وعلى أرض أجدادهم.

¹ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المقري - فنج الطيب - (المصدر السابق).

² - بعد فشل محاولات التمرد المسلحة لجأ بعض المستفيدين من معاهدة الاستسلام إلى التعريض بالعنصر العربي على الخصوص، ومما تجدر الإشارة إليه أن شعبية أهل الأندلس لم تتجاوز حدود اللياقة حيث ظلت بعيدة عن التعريض بأمر الدين والمعتقد، بل كان وازعها هو الصراع السياسي من أجل الفوز بمنصب القرار والقيادة. ينظر: عبد الله حمادي - الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس - د ط - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - الدار التونسية للنشر - تونس - 1989م - ص: 14. والحايك سيمون - ابن أمية أو ثورة الموريسكيين - د ط - د د ن - 1996م - ص: 40

³ - نظرية الهرم الخلدوني: يقول ابن خلدون بهذا الصدد أن "للدولة حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، وأما امتدادها في الزمان فيحدده بأنه أطوار تمر بها في مختلف مراحلها"؛ ويؤكد في نظريته على أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة وعنده لا تعدو في الغالب خمسة نلخصها فيما يلي: الاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة المكتسبة، ثم طور البناء والتأسيس، فطور القوة وقمة الازدهار، فمرحلة التدهور، ثم السقوط. ينظر: محمد بن عبد الرحمن ابن خلدون - المقدمة - تح: إبراهيم الأبياري - ط: 1 - دار الكتب اللبناني - بيروت 1402هـ/1982م - ص: 159.

إذ تعتبر ثنائية التحدي القائمة بين الطرفين الإسباني والمسلم معقدة، فالإسبان ممثلين في السلطة السياسية والكنيسة الكاثوليكية سعوا جاهدين إلى تنصير ما تبقى من المسلمين بشتى الوسائل والأساليب ضارين عرض الحائط كل القيم والمبادئ الإنسانية، والمسلمين من جهتهم يدافعون باستماتة لا نظير لها من أجل المحافظة على دينهم وأرواحهم وسط بيئة معادية. ومما لا شك فيه أن قضية مسلمي اسبانيا بصفة عامة أثارت وسوف تبقى تثير دوما، اهتماما متزايدا من قبل الباحثين والمؤرخين لدراسة الجوانب المؤلمة والمأسوية فيها، والتي مازالت لم تكتشف تماما حتى اليوم.

خاتمة العنصر الأول من المحاضرة الأولى

✓ ساهمت مجموعة من العوامل إلى تراجع قوة المسلمين في المنطقة، مما شجع الصليبيين على مهاجمة المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى بهدف الاستيلاء عليها إلى غاية ما تمكنوا من اسقاط آخر معقل إسلامي بالأندلس الشهيدة وهي مملكة غرناطة التي ظلت تواجه الزحف الصليبي إلى غاية سنة 1492م تاريخ سقوطها.

✓ يعتبر حدث تسليم غرناطة بالنسبة للملكين ايزيلا وفرناندو وللملوك الذين سوف يرثون العرش من بعدهما، بمثابة انتصار سياسي وعسكري لا غير، أما الانتصار الأكبر والأشمل بالنسبة لهم فكان لا بد من أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هؤلاء تكمن في تحقيق الوحدة الروحية والدينية، والتي قد تكون بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية، وذلك بحسب منطق ذلك العهد؛ لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق إلا على جسر التنصير الإجباري.

✓ مثل سقوط الأندلس منعرجا خطيرا في مصير المسلمين في المنطقة، فقد حاولت السلطات الاسبانية بكل مؤسساتها منذ اللحظة الأولى التي تبعت السقوط أن تسيير حربا صليبية ضد كل ما يمثل الإسلام من لغة وعقيدة وعادات وثقافة مستعينة في ذلك بمحاكم التحقيق، هذه الأخيرة لم تذخر جهدا في سبيل تحقيق الوحدة الدينية والقومية لاسبانيا الجديدة؛ وأمام هذه التطورات الخطيرة لم يبق لمسلمي اسبانيا سوى خوض

صراع أقحموا فيه اقحاما بالرغم من أنهم حاولوا التعايش مع الوضع الجديد وتقبل الأمر الواقع. فمن بين المؤهلات التي يجب الإمام بها في هذا المجال الاطلاع على منشأ وأسس ومنطلقات النظرية السيكولوجية وتتبع مختلف التطورات والتنقيحات التي مرت بها خلال مقاربتها لظاهرة الصراع، والتوقف عند أهم الملاحظات والاستنتاجات المسجلة عليها من قبل الباحثين أيضا. لنستطيع بعد ذلك، اتخاذ المسار الذي يرتضيه الموضوع قيد الدراسة.

✓ يعتبر حدث تسليم غرناطة بالنسبة للملكين ايزابيلا وفرناندو وللملوك الذين سوف يرثون العرش من بعدهما، بمثابة انتصار سياسي وعسكري لا غير، أما الانتصار الأكبر والأشمل بالنسبة لهم فكان لا بد من أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هؤلاء تكمن في تحقيق الوحدة الروحية والدينية، والتي قد تكون بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية، وذلك بحسب منطق ذلك العهد؛ لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق إلا على جسر التنصير الإجباري الذي كانت محاكم التحقيق الوسيلة الفعالة لتجسيده على أرض الواقع.

(2)-انعكاسات سقوط غرناطة على البلدان المغاربية: اعتقدت السلطات الاسبانية بأن

وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنها من توحيد اسبانيا المجزأة، كما أنها كانت تحشى بأس المسلمين، وترى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوي أوصل الصلة بينهم وبين إخوانهم في العالم الإسلامي، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا ووحدتها. فقد ارتبط المشكل الأندلسي بإسبانيا - خلال عهد الملكين فرناندو وايزابيلا - بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة الاسبانية اتجاه المسلمين، فإسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق ذلك:

- الحواجز الجغرافية بفعل التفاعل "الجهوي" العميق الذي تولد عنه انعزال العديد من المناطق

التي تمسكت باستقلالها مثل (قطلونيا "Catalonia" -الباسك "Vascones" - الأندلس).

- الحواجز الاقتصادية وتتمثل في ذلك التفاوت الطبقي الذي فرض بفعل وجود قوات ذات

امتيازات كبيرة، وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر ما تؤدي إلى الوحدة. ففي قشتالة - مثلاً - كانت الأسرة المالكة دائماً ضعيفة الإمكانيات بسبب وجود عدد من الإقطاعيين النبلاء هؤلاء ضيقوا الخناق على كل مشاريع السلطة في تعزيز الوحدة. لكن العرش القشتالي تمكن من التغلب على هذه الصعوبات بفضل تحمسه للنصرانية وانتصاره على المسلمين والاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم.

2-1) الدوافع المحركة للغزو الإسباني على السواحل المغربية: لم تتوقف الحرب

الصليبية عند اسقاط الأندلس والقضاء على الدين الإسلامي هناك، بل واصلت في محاولة منها للقضاء على الإسلام في كل الأقطار المحيطة بها، فكانت البداية داخل إسبانيا ثم تحولت فيما بعد إلى دول المغرب. فقد شنت إسبانيا حرباً ضروساً عليها متخذة في ذلك بعض الحجج؛ وفي خضم كل هذه التطورات ظهرت قوة إسلامية حاولت وقف المد الصليبي على العالم الإسلامي تمثلت في الخلافة العثمانية، هذه الأخيرة دخلت في حرب وسباق حول من سيكون السباق إلى فرض الوصاية على دول المغرب العربي. ولنا في هذه الجزئية وقفة مع أهم الدوافع التي حركت مشروع الغزو الإسباني على السواحل المغربية، لما لها من أهمية في سير الأحداث وتغيير الخريطة السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية للبلدان المغربية.

أ) -الدافع الديني والانتقامي: عمل الملك الكاثوليكيان إيزابيلا وفرناندو على إلغاء أي

رابط يربط المسلمين بعقيدتهم بفصلهم عن تراثهم الإسلامي، وبالتالي يصبح من السهل تنصيرهم، وبالفعل فقد سادت فكرة خلال السنوات الأولى لاستيلاء إسبانيا على غرناطة مفادها أن المسلمين سيدخلون في الديانة النصرانية أفواجا دون صعوبات تذكر، فنظمت فرقا تنصيرية لهذا الغرض. لكن عمل هذه الفرق التنصيرية باء بالفشل ولم يحصل الثمار المرجوة منه، فتدخل الكاردينال⁽¹⁾ المتعصب

¹ -كاردينال Cardinale. هو في الأساس المساعد الأول للبابا. وتطلق هذه التسمية على الكرادلة في مناصبهم. ينظر: أبو غزالة جان بول، موسوعة الأديان المسيحية، ص: 412. والكردينالية هي من الدرجات الكنسية الإدارية وتشكل ما يسمى بمجلس الكرادلة الذين ينتخبهم البابا لاستلام الوظيفة الإدارية. ينظر: بولوس وهبة- موسوعة الأديان- دط- د د ن- د ب ن- د س ن- نسخة (PDF)- ص: 165.

فرانسييسكو خمينيس " (Jimenes Franciso ximénies) (912-922هـ/1507-1517م)⁽¹⁾ فارضا التنصير القسري مستعينا بعمال محاكم التفتيش⁽²⁾ التي كانت بمثابة اليد الضاربة للسلطات الاسبانية ضد كل ما مثل الإسلام بصفة خاصة والغير الكاثوليكية من الديانات والمذاهب الأخرى بصفة عامة، لكن مسلمي المنطقة لم يستسلموا قط لسياسة التنصير القهري، لذلك بادروا برفع لواء المقاومة المسلحة في حي البيازين "Albaicin"⁽³⁾ (1499م)⁽⁴⁾؛ ثم كانت حرب البشرات⁽⁵⁾ الأولى (1499م)⁽⁶⁾ والثانية (1567-

²⁻ خمينس دي سيسنيروس: ولد في قشتالة سنة 1436هـ/1436م. ينظر: بسام العسلي- خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1547)- د ط- دار النفائس- بيروت- 1983م- ص، 45. أخفى كل تعطشه إلى المال والسلطة تحت شعار "التدين الزائف للكنيسة". عين رئيس أساقفة طليطلة سنة 901هـ/1496م، ثم بعث إلى غرناطة سنة 904هـ/1499م. ينظر: أحمد رائف- وتذكروا من الأندلس الابادة- ط: 1- الزهراء للإعلام العربي- القاهرة- 1407هـ/1987م- ص: 321. يعتبر من بين أخطر الشخصيات التي اختارتها الملكة إيزابيلا واعتمدت عليهم في تطبيقها لسياسة التنصير القسري. قام بإحراق الآلاف من الكتب العربية كما أوكلتها الملكة مهمة تعيين رئيس ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش). ينظر: عبد

العزیز سالم- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس- د ط- د د ن- بيروت- 1962م- ص: 305.

²⁻ محاكم التفتيش: "Inquisitio"، من كلمة "Inquiry" التي تعني: تحقيق واستفسار وبحث. إذن، "لجان التحقيق" هي أقرب للمعنى الحقيقي منها "لجان التفتيش" ذلك أن الهدف من هذه اللجان كان التحقيق مع النصارى المتهمين لاستيئان حقيقة موقفهم من الديانة النصرانية. لذلك ينبغي أن نوضح حقيقة تاريخية وهي أن المقصود إذن من خلال هذه العملية هم النصارى الخارجين عن العقيدة الصحيحة في منظور الكنيسة، وعليه فالنصارى فقط هم موضوع لجان التحقيق، أما المسلمون أو اليهود فلا سلطة لهذه اللجان عليهم لأنهم لا يدينون بالنصرانية. وعندما نتحدث عن "محاكم التفتيش"، أول ما يتبادر لدينا هو "محاكم التفتيش الإسبانية" وسمعتها القبيحة. لكن في الواقع، هناك "لجان تحقيق" سبقت تلك التي أنشئت في إسبانيا وذلك بنحو ثلاثة قرون. ونحن نرى أنه من الضروري الحديث عن تلك أولا حتى نفهم كيف نشأت اللجان في إسبانيا ومعرفة الفارق بينهما. وقد اختلف استعمال تسمية هذه المحاكم من مرجع إلى آخر خاصة العربية منها التي قامت بترجمة التسمية من اللغة الإسبانية، فهناك من اختصر نعتها بمحاكم التفتيش، وهناك من أطلق عليها "ديوان التحقيق". ينظر: عبد الله عنان- نحاية الأندلس- (المرجع السابق)- ص: 19.

³⁻ حي البيازين: أي الصقارين، والباري من أسماء الصقر، وقد تحور اسم البيازين في الاسبانية إلى "الباشين" "Albaicin"؛ يقع الحي في شمال شرق غرناطة، اتجاه هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر حدره. ينظر: عنان محمد عبد الله، الآثار الباقية في اسبانيا (المرجع السابق)- ص: 167، 169.

⁴⁻ أغلق المقاومون الطرقات أمام الحملات العسكرية التي أرسلتها السلطات ورموها بالحجارة، وتفاديا لتفاقم الأوضاع استنجدت السلطات بمطران غرناطة الأب تنديا الذي حظي باحترام سكان المنطقة، فدخل في مفاوضات مع زعماء المقاومة محاولا إقناعهم بضرورة التريث ووضع السلاح، فاستطاع بفضل حنكته وثقة الزعماء في شخصه بوقف القتال مقابل وعود ضمنيتها لهم السلطات الاسبانية والقاضية بمعاينة المعتدين، وتغيير سياستها تجاههم. ينظر: حتامله محمد عبده- المرجع السابق- ص: 77.

⁵⁻ البشارات: هي عبارة عن جبال شاهقة بنواحي غرناطة، تمتد سلسلتها إلى البحر الأبيض المتوسط، تضم في أرجائها غابات وأودية، لذلك اختارها مسلمو اسبانيا معقلا لعملياتهم الجهادية ضد الطغيان الاسباني الصليبي. كما ضمت المنطقة مجموعة من القرى استوطنها المسلمون الفارون من بطش محاكم التحقيق، وقد أصبحت هذه المناطق لوعورتها وصعوبة الوصول إليها ملاذا للمجاهدين الذين قرروا الاستشهاد بدلا من حياة الذل والهوان. ينظر: قشتيلو محمد- الموريسكيون في الأندلس وخارجها- ط: 3- منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات- الرباط- 2008 م- ص: 49.

⁶⁻ وصلت أنباء اندلاع المقاومة إلى مسمع إيزابيلا فكلفت الكونت تدلة وغومثالو القرطبي بإخمادها، فسار القرطبي إلى مدينة وجرار، وما كاد فرسانه يقتربون من أسوار المدينة حتى وقع قسم منهم في خنادق حفرها أهل المدينة، تم تغطيتها بالزرع والقش. وخلال الفوضى التي ذبت في صفوف الجيش

1569م⁽¹⁾ التي كادت أن تززع أمن واستقرار العرش الاسباني⁽²⁾.

فقد كانت السلطات الاسبانية بزعامة الملكين تؤمن بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنها من توحيد اسبانيا الجزأة⁽³⁾، كما أنها كانت تخشى بأس المسلمين، وترى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوي أوصل الصلة بينهم وبين إخوانهم في العالم الإسلامي، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا ووحدها. وفي سبيل تنفيذ هذا المشروع - التنصير الجماعي والقسري-، وتحقيق الوحدة الدينية في إسبانيا أسس الملكان الكاثوليكيان مؤسسة خطيرة، سجلت أعمالها في صفحات التاريخ بالسواد والدم عرفت في المصادر والمراجع التاريخية بـ "محاكم التفتيش" أو "ديوان التحقيق"⁽⁴⁾.

ومع هذا رفض مسلمو اسبانيا الذين أطلقت عليهم السلطات الاسبانية تسمية "الموريسكيين" "Moresque" باللغة الفرنسية و"Moriscos" بالإسبانية⁽⁵⁾ رفض رفضا قطعيا ونهائيا تبني دينا غير

الإسباني فتح المقاومون أبواب المدينة وانقضوا على الجنود الإسبان فقتلوا منهم الكثير. ينظر: بشتاوي- المرجع السابق- ص: 97. إلا أن القرطبي تمكن من التراجع في الوقت المناسب وضرب حصارا على المدينة، استمر فترة غير معروفة، وبعد وصول الإمدادات العسكرية استسلمت المدينة، فدخلها جيش القرطبي وقتل جميع رجالها، وسبى نساءها وأطفالها عن آخرهم، أما من استطاع الفرار من المقاومين فقد التحق بالجبال قبل وصول الحملة؛ ولم يكتف الجنود الإسبان بهذا، بل هدموا المنازل على رؤوس ساكنيها، وأحرقوها. ينظر: حومد أسعد- المرجع السابق- ص: 196.

¹ يعتبر تمرد مسلمي غرناطة وكل من انضم إليه محاولة أخيرة ويائسة لإنقاذ هويتهم الثقافية، بعد أن عانوا الولايات من الحصار القمعي المضروب عليهم والذي ضيق عليهم أكثر فأكثر مع مرور السنين، وخصوصا بعد فترة "الحرب الباردة" حيث أصبح النزاع أكثر احتداما ومضرا للجهتين، والذي أدى إلى حصول هوة عميقة بين الحضارتين. للاطلاع على تفاصيل أكثر فيما يخص حرب البشارات الثانية أو ما اصطلح عليه عند المؤرخين الإسبان بحرب غرناطة الكبرى ينظر: ميغيل أنجيل بونيس إيبارا- حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تنشر بعد- بحث نشر ضمن: دراسات أندلسية وموريسكية، تر وق: جمال عبد الرحمن- ط: 1- المركز القومي للترجمة- القاهرة- 2008م.

⁷ Bronat y Barrachina- Los moriscos Espanoles y su expulsion- Valencia- 1901- P: 241.

³ شكلت شبه الجزيرة الايبيرية اختصارا لمجموعتين واسعتين تشكلتا في الشرق والغرب النصرانيين. اتجهت المناطق الغنية والأكثر تطورا نحو التوحيد، بينما اعتنقت المناطق الفقيرة النصرانية الثالوثية، وفيما بعد اعتنقت هذه المناطق الارثوذكسية على يد الفرنسيين الذين حملوا أفكار كلوني Cluny أما الجنوب، فقد تابع التطور نفسه الذي تم في الشرق الأدنى نحو حضارة جديدة كان محركها الأساسي الإسلام، الذي لم يتعارض مع التوفيقية "Sincretismo" الاربوسية. ينظر: إسماعيل أمين- العرب لم يغزو الأندلس (لمحة تاريخية مختلفة)- ط: 1- الريس للكتب والنشر- رياض- 1991م- ص: 119.

⁴ للاطلاع على تفاصيل أكثر حول عمل محاكم التفتيش ينظر: محمد علي قطب- مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس- ط: 1- د ب ن- د د ن.

⁵ الموريسكيون: طرحت بعض الإشكاليات المرتبطة بمفهوم "الموريسكي" من حيث كونه شخصية ثقافية وتاريخية فقد عبرت عما يمكن أن نسميه بـ "الظاهرة الموريسكية" التي وجدت في مرحلة من مراحل تاريخ إسبانيا وعبرت على مجموعة بشرية عاشت تحت وطأة اضطهاد السلطات الإسبانية، فالمصطلح يفيد بذلك حسب حمولته في اللغة والوجدان الإسبانيين: "النصارى من أصل إسلامي"، و"النصارى الجدد" أو النصارى الصغار". كما يفيد كذلك معنى الإسبانيين، الذين رجعوا إلى نصرانيتهم بعدما تخلوا عن الإسلام قهرا. ظاهريا فقط. للإطلاع على تفاصيل أكثر حول هذا مفهوم المصطلح

الدين الإسلامي والعيش إلا في ظل تعاليمه، مع أن السلطات الإسبانية برعاية الكنيسة والملكين حاولت تنصيرهم بالطرق السلمية تحت غطاء الإغراء بالمال تارة، وبالأرض تارة أخرى⁽¹⁾.

أمام هذا الوضع الجديد قرر مسلمو اسبانيا الفرار بأرواحهم ودينهم نحو السواحل المغاربية، لذلك قررت السلطات الإسبانية نقل الحرب الصليبية من اسبانيا نحو بلدان المغرب عموماً. ومن بين المظاهر الدينية التي أكدت على أنها حرباً دينية بالدرجة الأولى تحويل المساجد إلى كنائس، وحمل الصليب⁽²⁾ في كل من المناطق التي تم احتلالها، وإقامة الصلوات هناك التي دامت ثمانية أيام كاملة⁽³⁾، ثم عند احتلال طرابلس سنة 1510م أين نظم رجال الدين موكباً كبيراً احتفالاً بهذا النصر⁽⁴⁾.

هذا فيما يخص الدافع الديني أما عن العامل الانتقامي فتشكل تفاصيل عملية هجرة مسلمي اسبانيا أو تهجيرهم على يد ملوك اسبانيا بتحريض من المؤسسات المدنية والدينية والسياسية حلقة جديدة ومكتملة لمسلسل الإقصاء الديني والاجتماعي والثقافي والحضاري والاقتصادي الذي مارسه

ينظر: مريثيس غارثيا أرينال- محاكم التفتيش والموريسكيون- تر: خالد عباس- تق: جمال عبد الرحمان- د ط - المجلس الأعلى الثقافي - د ب ن- 2004م. من خلال اطلاعنا على مفهوم المصطلح في مختلف الدراسات لا يمكن لمصطلح "الموريسكيين" أن يعني في أي حال من الأحوال أن هؤلاء كانوا متنصرين لأن قسماً كبيراً منهم ظل مسلماً وعربياً حتى النهاية. ووفاء لذاكرة شهداء الأمة الأندلسية تفادينا استعمال هذا المصطلح؛ وبمحتنا كثيراً لإيجاد بديلاً عنه، وانتهى بنا هذا البحث في نهاية المطاف إلى استعمال عبارة "مسلمي اسبانيا".

¹ - قدم الكاردينال خمينيس إلى غرناطة خلال سنة 1499م، عندها أمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية الكاثوليكية، وأغدق عليهم بالتحف والهدايا فأقبل بعضهم على التنصير، وتبعته جماعات أخرى من العامة. ولكن قبلهم كان قد تنصر بعض الوزراء، منهم الوزير أبو القاسم بن رضوان وجميع عائلته، طمعا في الامتيازات التي سوف يتحصلون عليها مقابل تنصيرهم، كما أراد أبو القاسم من خلال هذا العمل أن ينال قدراً من السيادة والسلطة في البلاط الملكي الجديد. أيضاً نذكر عائلة هارمس "Harmas" التي شغل أعضاؤها وبالتناوب وظائف تجارية وإدارية مثل وظيفة محلف بغرناطة. وبهذا استطاعت هذه العائلة أن تندمج اندماجاً كلياً في المجتمع النصراني. خافيير كاستير فرنانديس - النبلاء الموريسكيون: وهم تاريخي وواقع اجتماعي - بحث نشر ضمن أعمال المائدة المستديرة الموسومة بـ: الأدب الألمبيادو - المورسكي، تزواج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي - منشورات مركز البحوث في علوم

المكتبات والمعلومات - د ط - المعهد الأعلى للتوثيق - تونس - أبريل 1995م - ص ص : 172، 173.

¹ - الصليب: هو الرمز الأساسي في النصرانية، لا يل هو أكثر بكثير من رمز: إنه علامة التعريف فيها. وصار الصليب عند النصراني هو رمز الحب الأقصى. فقد آمن النصراني أن العلامة قدست بسبب صلب عيسى عليه السلام - على حد زعمهم - وكان للصليب أربع أذرع يوضع فوق رأس المصلوب وكذلك توضع لائحة التهم في رقبته. ينظر: بولوس وهبة - المرجع السابق - ص: 334.

2_ Henri Delmas De Grammont- Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515_1830- Ernest Lerous d'éditeur- Parie - 1887- P : 8.

³ - عبد الجليل التميمي - الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني - ج: 1 - د ط - د د ن - تونس - 1984م - ص: 74.

السلطة والكنيسة يومئذ بكل قسوة وظلم وغطرسة تجاه الجماعة المسلمة⁽¹⁾. فأبي دراسة حول موضوع الطرد⁽²⁾ لا بد أن تقودنا سريعا إلى الاقتناع بالأبعاد التي آلت إليها قضيتهم كقضية تاريخية، والحقيقة أن ماضي اسبانيا ومستقبلها يتشابكان بطريقة معقدة مع الصراعات والمواقف الايديولوجية التي تركت بصماتها على القرن 16م.

لقد تم طرح هذا الاجراء آلاف المرات، ليس من الرجال ذوي الضمائر، بل من قبل إسبانيا محاكم التفتيش، ثم ظهر أخيرا وكأنه مقاطعة مع ماض قريب جسده الملك كارلوس الخامس "Carlos V"⁽³⁾ وفيليب الثاني Philip II⁽⁴⁾، وماض آخر أكثر عراقا، إنه ماضي التسامح الإسباني خلال القرون الوسطى. فما كان يتم التلاعب به ليس مساوي لما يطلق عليه اليوم "حقوق الإنسان"، بل ما إذا كان المجتمع في دفاعه الحربي عن العقيدة الكاثوليكية، كان يعمل بمقتضى الالتزام الأخلاقي لهذه العقيدة أم لا، وهو يتوغل في نفق لا مخرج منه من الهرطقة⁽⁵⁾ الممارسة عمليا؛ إن سمة الحل النهائي

¹- تم التهجير القسري لمسلمي اسبانيا سنة 1018هـ/1609م على يد ملك فيليب الثالث "Filipe III" في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة، لما حفت بها من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد، فلقد منع المطرودون من حمل ثرواتهم، لذلك تم بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان؛ كما ترك البعض منهم أثناء عملية التهجير هاته عبر السفن الإسبانية، في قرى مهجورة دون تمويل أو ذخيرة، وتم الاستيلاء على مدخراتهم، ومات أكثرهم في الملابس الرهيبة التي حفت بتلك العمليات في موانئ فرنسا واسبانيا. فقد اعتبرت السلطات الإسبانية قرار الطرد هو حل مثالي وصائب لتطهير إسبانيا من أي عقيدة غير الكاثوليكية، فحين وجده الكثير من مسلمي إسبانيا أنه فرج من الله سبحانه وتعالى لتخليصهم من الظلم والتنكيل الذي عانوه طيلة أكثر من القرن من الزمن. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر:

Bronat y Barrachina- Los moriscos Espanoles y su expulsion- Valencia- 1901.

²- لم يصدر القرار الخاص بطرد مسلمي مملكة قشتالة قبل عام 1018هـ/1609م، فقد كان القرار في بداية الأمر يشمل مصادرة جزئية لأموال مسلمي المنطقة لصالح الخزينة الملكية بدلا من بيع الممتلكات بشكل كلي كما حدث مع مسلمي فالنسيا.

³- كالوس الخامس: ولد في 24 فبراير من عام 905هـ/1500م من خوانا Ruina في هولندا. تتلمذ على يد وليام دي كرويحاكم شيفر Chièvres، بعدها أتم تعليمه أديريان الأترشتي Adrian Utrecht؛ كما ساهمت عمته الأرشيدوقة مارغريت Marguerite في تربيته وتكوينه. وقد تلقى الأمير الشاب كل تعليمه في الفلاندر فتشبع بالثقافة الفلمنكية، رغم أصوله النمساوية الإسبانية. ينظر: عادل سعيد البشتاوي- الأندلسيون المواركة- (المرجع السابق)- ص: 132.

⁴- فيليب الثاني: ولد عام 932هـ/1527م في أحد البيوت المجاورة للقديس بابلوضون برناردينو "Bablodoné Bernardino"، التي عاش فيها باستمرار، وتبنى عاداتها وتقاليدها ولغتها. ينظر: الحايك سيمون- ابن أمية أو ثورة الموريسكيين- د ط- د د ن- د ب ن- 1996م- ص: 33.

³- الهرطقة: مصطلح كنسي يشير إلى رأي أو فكرة مبتدعة تعارض مع معتقدات الكنيسة أو النظام المرتبط بها. والهرطقة كلمة أصلها يوناني هو "haireisis" أخذها الأوروبيون في البداية من اللاتينية، ثم نقلت عن الفرنسية القديمة "HERESIE". ولا تعني هذه الكلمة أكثر من "الاختيار أو التفضيل" لذا كان النصرى الأوائل بالنسبة للرومان نوعا متقدما من الهرطقة لأنهم فضلوا مفاهيمهم على المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك ورفضوا تقديم الأضحيات للإمبراطور واعتبروا ادعاء بعض الأباطرة الألوهية باطلا. ينظر: عادل البشتاوي- الأندلسيون المواركة- (المرجع السابق)- ص: 209.

⁴- مرت عملية طرد مسلمي اسبانيا دون مقاومة تذكر، غير أنها مرت على المسلمين في جو من البؤس والألم. ينظر: Azner Cardona Exclusion-Justificada de los Mariscos Espanoles- Parte2- Capitulo 2- p: 90.

التي كست عملية الطرد لم تؤد سوى إلى إثارة الندم الحزين كنتيجة لهذه التجربة المؤلمة حسبما رآها الكثيرون⁽¹⁾.

لقد تم التهجير القسري لمسلمي اسبانيا في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة، لما حفت بها من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد، فلقد منع المطرودون من حمل ثرواتهم، لذلك تم بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان؛ كما ترك البعض منهم أثناء عملية التهجير هاته عبر السفن الإسبانية، في قرى مهجورة دون تمويل أو ذخيرة، وتم الاستيلاء على مدخراتهم، ومات أكثرهم في ملابسات رهيبة حفت بتلك العمليات في موانئ فرنسا واسبانيا⁽²⁾.

لهذا اعتبرت السلطات الإسبانية قرار الطرد الحل المثالي والصائب لتطهيرها من أي عقيدة غير الكاثوليكية، في حين وجده الكثير من مسلمي إسبانيا فرجا من الله سبحانه وتعالى لتخليصهم من الظلم والتنكيل الذي عانوه طيلة أكثر من القرن من الزمن؛ فعملية الهجرة هذه كانت بالنسبة لهم خلاص بعدما فشلت كل المحاولات التي اعتمدها في سبيل البقاء في أرض الآباء والأجداد. فاستقرارهم في المدن المغاربية الساحلية واندماجهم في المجتمعات المغاربية وانصهارهم فيها جعل السلطات الإسبانية تشن حملة انتقامية ضد سكان هاته المدن لاعتقادها بأنه سوف يكون هناك تعاون وتحالف بين الطرفين من أجل استرداد الأندلس الضائعة أو لضرب اسبانيا في عقر دارها على أقل تقدير.

(ب)-العوامل العسكرية والسياسية والاقتصادية: استهدفت اسبانيا من خلال احتلالها لقواعد استراتيجية في المغرب حماية ظهرها من أي هجوم قد يأتيها من هذه المناطق، خاصة بعد لجوء مسلمي اسبانيا إلى السواحل المغاربية وتأجيج روح الانتقام والجهاد في نفوس المغاربة، خاصة وأن اسبانيا اتعضت بأحداث الماضي، فقد انقذ المغرب الأندلس من الصليبيين على عهد المرابطين الذين

⁵- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول مشروع طرد مسلمي اسبانيا ينظر: براتشينا دون باسكوال بورونا- الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم- ج:1- تر: كنزة الغالي- ط:1- مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط- د ب ن- 1433هـ/2012م.

سعوا جاهدين على صد العدوان الصليبي عليها، وكذلك تكرر الأمر نفسه على عهد الموحدين، فقد ساهمت هذه القوى بصورة مباشرة في تأخير سقوط غرناطة.

كما أرادت اسبانيا من خلال حملتها الشرسة على السواحل المغاربية تأسيس امبراطورية مترامية الأطراف وفرض سياستها التوسعية خاصة وأنه ظهرت قوى أخرى تنافسها في هذا المشروع القوة العثمانية، الذي كان تواجهها في المنطقة ممثلا في الأسطول الذي كان يقوده الاخوة بربروس⁽¹⁾ عروج⁽²⁾،

خير الدين⁽³⁾ واسحاق" هؤلاء أخذوا على عاتقهم مهمة حماية الإسلام والمسلمين، فاتخذوا من جزيرة

جربة⁽⁴⁾ قاعدة لتحركاتهم العسكرية⁽⁵⁾.

1- بربروس: هم أبناء الفخارجي يعقوب بن يوسف الثلاثة: عروج وخير الدين وإسحاق، الذين التحقوا بالقوات العثمانية مند حوالي 1504م، واستحدثوا لأنفسهم أسطولا بحريا قويا، وشرعوا في مواجهة القراصنة الأروبيين انطلاقا من جزيرة جربة، وحلق الوادي، وجيجل. وأثمرت جهودهم بالسيطرة الكاملة على غربي البحر الأبيض المتوسط. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي - الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراي - تح: المهدي البوعديلي - د ط - منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية - مطبعة البحث - الجزائر - 1973م - ص: 28.

2- عروج: يعرف في الكتب التركية بـ"أروج" وتعني الصيام. أصله من جزيرة ميدي التي أصبحت تابعة للعثمانيين منذ سنة 862هـ/1457م. أسره العثمانيون ولكنه تمكن من الفرار ليستقر به المطاف في نهاية الأمر في بلاد المغرب وبالضبط في جزيرة جربة. استشهد سنة 924هـ/1518م. ينظر:

Moulay Belhamissi- Marine et Marins d'Alger (1518-1830)- T : 1- Alger- Bibliothèque nationale d'Algérie- 1996- P : 140.

3- خير الدين: انقسم المؤرخون إلى فريقين في أصل هذا القائد المجاهد فذهب المؤرخون الأروبيون إلى أن أصله من اليونان ثم اعتنق الإسلام. ينظر: كورين شوفالي - الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1540م - تر: جمال حمادنة - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1991م - ص: 24. في حين ذكر الفريق الثاني أن أصله يرجع إلى الأتراك المسلمين كان والده يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين. ينظر: محمد يوسف الزباني - دليل الجيران وأنيس السهران في اختيار مدينة وهران - تق وتع: المهدي بوعبد الله - د ط - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1979م - ص: 183. ولد سنة 861هـ/1474م. ينظر: أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي - القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط - تح وتق: ناصر الدين سعيدوني - ط: 1- دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1991م - ص: 32.

1- جزيرة جربة: هي عبارة عن جزيرة منبسطة رملية غزاها الاسبان بعدما بسطوا نفوذهم على طرابلس سنة 916هـ/1510م. ينظر: الوزان بن محمد الحسن - وصف افريقيا - ج: 2- تر: محمد حجي ومحمد الأخضر - د ط - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1983م - ص: 93، 95. ولكن سرعان ما استبدل الاخوة بربروس هذا المقر بلحلق الوادي تجنبا للغارات الاسبانية المتكررة على الجزيرة.

2- اتفق عروج مع الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد على السماح لهم بجعل جزيرة جربة مركزا لأسطوله وفتح كل الموانئ التونسية لهم عند الضرورة. ينظر: بن بلة خيرة - المنشآت الدينية بالجزائر العثمانية - رسالة مقددة لنيل شهادة الدكتوراه - الجزائر جامعة الجزائر - 2008م - ص: 6.

لقد ترتب على هجرة مسلمي اسبانيا نتائج وخيمة على اسبانيا انعكست بشكل مباشر على الجانب الاقتصادي والعمري؛ فبالرغم من الوحدة الدينية و"القومية" التي حققتها السلطات الإسبانية، إلا أنها خسرت الكثير بالمقابل. ففي الميدان الزراعي أدى هذه الهجرة على المستوى العمري إلى فراغ العديد من المراكز، فقد ظلت الضياع مهجورة لوقت طويل نتيجة تخريب السدود والقنوات، وأهملت العديد من الزراعات، كزراعة قصب السكر والقطن، وتربية النحل، ودودة القز⁽¹⁾، وبالرغم من محاولة النبلاء والسادة تعويضهم بمزارعين آخرين لخدمة أراضيهم، إلا أن كل الجهود المبذولة لحل هذا المشكل ذهبت هباء منثورا.

أما في الميدان الصناعي والتجاري فقد تضررت اسبانيا كثيرا في هذين القطاعين⁽²⁾؛ ذلك أن مسلمي اسبانيا مارسوا هذه الحرف بمهارة فائقة أدهشت الاسبان أنفسهم، فقد اختفت بعض الصناعات من بعض المناطق مثل قسطة التي اختفت منها صناعة الأسلحة، وأغلقت في مناطق أخرى مصانع الورق والحري والأقمشة.

أمام هذا الوضع الاقتصادي الخطير حاولت السلطات الإسبانية البحث عن منفذ يخلصها من هذا المأزق فوجدت في السواحل المغربية وسيلة فعالة لتعويض خسارتها الاقتصادية خاصة وأن المناطق التي تم احتلالها كانت غنية بالثروات الطبيعية. كما كان لتأمين طرق المواصلات التجارية دورا بارزا في تحريك عملية الغزو الإسباني للسواحل المغربية، فقد اعتبر البحر الأبيض المتوسط ممرا يربط بين أهم ثلاث قارات في العالم، وبهذا تميز بموقع استراتيجي مهم، يمكن اسبانيا من فرض هيمنتها والتحكم في مدخله المتصل بالبحر الأطلسي عبر مضيق جبل طارق الذي بدأ الاجار فيه نحو العالم الجديد ضرورة اقتصادية تستدعي السيطرة عليه، لبعث تجارتها وحماية أساطيلها المثقلة بالحمولات.

خاتمة العنصر الثاني من المحاضرة الأولى

³ - كنب غوستاف لوبون حول الموضوع يقول: "...مما يرثى له أن حرمت اسبانيا عمدا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية؛ ثم رأت محاكم التحقيق أن تبديد كل نصراني ترى فيه شيئا من النباهة والفضل. وقد كان من نتائج تلك المظالم المزدوجة أن هبطت اسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت في أيام العرب قمة المجد، وأن انهيار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب". ينظر: حضارة العرب - تع: زعيتر عادل - د ط - د د ن - مصر - 1945م - ص: 292.

⁴ - أحمد توفيق المدني - حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م - ط: 5 - عالم المعرفة - الجزائر - 2010م - ص: 47.

- ✓ نتج عن سقوط الأندلس سنة 1492م انعكاسات خطيرة مست الوضع الداخلي، كما مست الوضع الاقليمي، فقد وجهت اسبانيا حملة صليبية ضد السواحل المغاربية لتحقيق مجموعة من الأهداف سطرتها قبل سقوط غرناطة بزمان بعيد.
- ✓ اجتمعت مجموعة من الدوافع لتحرك مشروع الغزو الاسباني على السواحل المغاربية. وما يلاحظ عليها أن الاسبان لم يختلفوا عن غيرهم من المحتلين في ترتيب أولوياتهم.
- ✓ شكل الدافع الديني المحرك الرئيس وراء الحملة الصليبية الاسبانية، ولكن المتمعن في سير الأحداث يدرك تمام الادراك أنه كان مجرد ستار لأهداف أخرى وعلى رأسها الدافع الاقتصادي.
- ✓ تذرعت السلطات الاسبانية باستقبال البلدان المغاربية للأندلسيين الفارين من بطش وتنكيل محاكم التفتيش، ولكنها كانت مجرد حجة لتقنع الرأي العام الدولي بضرورة شرعية مشروعها.

المحور الثاني

أوضاع البلدان المغاربية

أواخر القرن 15م وبداية

القرن 16م

(1) نبذة مختصرة حول الممالك الثلاث

الحفصية والزيانية والمرينية

(2) الصراعات الداخلية بين دول المغرب

الإسلامي

3-انعدام وحدة سياسية والتفكك

الاجتماعي

مقدمة

ظلت بلاد المغرب على مر العصور عرضة لأطماع قوى خارجية، هذه الأخيرة طمحت في استنزاف ثرواتها واستغلال موقعها الاستراتيجي، متخذة لأجل تحقيق هذه الغاية العديد من الدوافع بهدف اقناع منافسيها بضرورة ما تفعل هذا من جهة، ولاسكات سكان البلد المحتل من جهة أخرى. ومن بين هذه القوى الخارجية نذكر اسبانيا. فقد وضعت اسبانيا مشروعاً توسعياً ليس على حساب السواحل المغربية، متخذة من الدافع الانتقامي محركاً أساسياً لهذا المشروع، هذا أمام الرأي العام الخارجي، أما في حقيقة الأمر فقد كانت هناك أسباب أخرى وراء هذا ذلك.

وقبل عرض مجريات مشروع الغزو الاسباني على السواحل المغربية، لا بد من التطرق إلى الظروف العامة التي سبقت هذا الغزو، ذلك أن الأوضاع العامة التي كانت تمر بها المنطقة سواء داخلها أو خارجها لعبت دوراً فعالاً في سقوط الكثير من المدن الساحلية في يد الاسبان. فمن خلال هذه الجزئية لنا وقفة تاريخية نتبع من خلالها أهم الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها دول المغرب منطلقين من الاشكالية التالية: كيف ساهمت الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بدول المغرب في رسم الخريطة الجغرافية والسياسية والاقتصادية الجديدة؟

1-نبذة مختصرة حول الممالك الثلاث الحفصية والزيانية والمرينية: تعاقب على حكم

بلاد المغرب مجموعة من الأنظمة، فتارة كان موحداً تحت راية حكم سياسي واحد، مثال ذلك ما كان على العهد المرابطين⁽¹⁾ والموحدين⁽¹⁾، وتارة أخرى مجزءاً إلى ممالك، وهذا ما حدث بعد سقوط

¹ - المرابطون: ينحدر المرابطون من قبيلة لمتونة الصنهاجية. ويعود الأصل في نشأتهم وتسميتهم بالمرابطين إلى فكرة دينية نشرها بينهم عبد الله بن ياسين الذي أمرهم بتغيير المنكر، فأخذوا يدعون بقية القبائل ويشنون الغارات على من خالفهم بقيادة أميرهم أبي زكريا يحيى بن عمر الذي قتل سنة 1054/هـ 1048م، فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر الذي تخلى عن الملك لابن عمه يوسف ابن تاشفين سنة 465/هـ 1074م وهو الذي أسس مراكش

الموحدين، إذ انقسم إلى ثلاث ممالك، المملكة المرينية⁽²⁾ في المغرب الأقصى، والمملكة الزيانية⁽³⁾ في المغرب الأوسط، فالمملكة الحفصية⁽⁴⁾ في المغرب الأدنى. وقد تقاسمت هذه القوى السيادة على أرضه، واستمر الصراع فيما بينها زهاء ثلاث قرون من الزمن.

من خلال البيانات المعروضة في الخريطة التي تمثل المعالم الجغرافية لبلاد المغرب الكبير يمكننا أن

نخرج بمجموعة من الملاحظات نسوقها فيما يلي:

✓ انحصر الوسط الجغرافي للمملكة المرينية في ما بين نهر ملوية⁽⁵⁾ وأرض الزاب من افريقية -

المغرب الأدنى-. ويحد المغرب الأقصى المحيط الأطلسي غربا، والصحراء جنوبا، والبحر

المتوسط والأندلس شمالا.

وأرسى دعائم الدولة المرابطية. ينظر: ابن عذارى المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ج:4 - تح: بروفنسال ليفي - ط:3- دار الثقافة- بيروت - 1983م - ص ص: 24-07.

²- الموحدون: تعود نشأة الدولة الموحدية إلى فكرة دينية دعا إليها بن تومرت المهدي، هذا الأخير لقي عبد المؤمن بن علي الذي اقتنع بدعوته وصاحبه إلى المغرب، ثم أصبح قائدا على جيشه سنة 517هـ. وتوفي المهدي سنة 524هـ، فقام بالأمر بعده عبد المؤمن وهو المؤسس الفعلي للدولة الموحدية، التي أقامها على أنقاض دولة المرابطين، بعد أن استولى على عاصمتها مراكش 537هـ/1144م. ينظر: عبد الواحد محي الدين بن عبد الله المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تح: العريان سعيد - د ط - المجلس الأعلى للشؤون العربية - الجمهورية العربية المتحدة - د س ط - بتصرف ص ص: 245-276.

²- المملكة المرينية: نسبة إلى المرينيون، هؤلاء انتهجوا أسلوبا عسكريا وسياسيا للوصول إلى الحكم واسقاط حكم الموحدية، حيث خاضوا معارك ضارية معهم وحققوا انتصارات، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوبا سياسيا بارعا، تمثل في الاعتراف بالحكم الحفصي وطلب العون منهم. ينظر: عبد الفتاح مقداد العنيمي - موسوعة المغرب العربي - ج:3 - ط:1 - مكتبة مدبولي - 1414هـ/1994م - ص: 207.

³- المملكة الزيانية: كان يطلق على هذه المملكة في بداية عهدها اسم دولة بني عبد الواد، وجاءت تسمية بني عبد الواد نسبة إلى الجد الأكبر لهذه السلالة وهي عبد الواد. وقد أخلصوا الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم، فأقطعوهم بلاد بنو مانو، وحصلت مشاكل وحروب داخلية أدت إلى فرار بعض الفروع إلى المملكة الحفصية على عهد أبي زكريا الحفصي. وخلال سنة 627هـ/1230م برزت شخصية تدعو جابر بن يوسف بن محمد كزعيم ابني عبد الواد، في حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار وأخذ الثائر الميروي يحيى ابن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الإسلامي الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة. ينظر: يحيى بوعزيز - مدينة وهران عبر التاريخ ويليها مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ويليها المساجد العتيقة في الغرب الجزائري - طبعة خاصة - دار البصائر للنشر والتوزيع - الجزائر - 2009م - ص ص: 35،36.

⁴- المملكة الحفصية: تم اختيار أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص للولاية على إفريقية، فتقلد ولايتها من سنة 603هـ/1203م إلى غاية 618هـ/1221م. ولما تولى ابنه أبو زكريا الأول سنة 625هـ/1229م ساد الاضطراب دولة الموحدية بالمغرب الأقصى، فاستبد أبو زكريا بإمارة المغرب الأدنى سنة 632هـ/1235م وبيع له على ذلك. ثم ضم إليه قسنطينة وبجاية. بنظر: المطوي العروسي - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب - ط: 1 - نشر دار الكتب الشرقية - تونس - 1374هـ/1954م - ص: 134.

⁵- نهر ملوية: هو نهر كبير مشهور يصب في المغرب الأقصى إلى نهر سحلماسة، ويصيران نهرًا واحداً بحري حتى يصب في البحر.

✓ تتوسط المملكة الزيانية المغربيين، الأدنى من جهة الشرق، والأقصى من جهة الغرب، تمتد رقعتها الجغرافية من بجاية وبلاد الزاب شرقا إلى واد ملوية غربا، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى إقليم توات جنوبا.

✓ يحد المغرب الأدنى من الغرب المغرب الأوسط، ومن جهة الشرق إقليم طرابلس، ومن الجنوب الأطلس وإقليم الزاب أما من جهة الشمال فيحده البحر الأبيض المتوسط.

✓ من خلال قراءتنا للبيانات التي وفرتها لنا الخريطة نلاحظ بأن الفضاءات المغاربية متقاربة بينها جغرافيا، وعندما يتعلق الأمر بمنطقة جغرافية معينة، حتى أولئك الذين انطلقوا من معيار التفاعل، توصلوا إلى أن حجم التفاعلات بين الدول المتقاربة جغرافيا عادة ما يكون أكبر وأكثر بين تلك غير المتجاورة.

(2)- الصراعات الداخلية بين دول المغرب الإسلامي: من خلال تتبعنا التاريخي للأوضاع

الداخلية التي كانت تعيشها دول المغرب لن نناقش تفاصيل الموضوع بشكل مفصل وذلك لكثرتها ولكن سنحاول الوقوف عند أهم المعطيات التي ساهمت في ظهور الكثير من المستجدات على الساحة المغاربية مست كل القطاعات وعلى رأسها الصراع الحدودي. إذ يعتبر الصراع كمفهوم له طبيعته المركبة التي تستمد خصائصها من الموقف ذاته⁽¹⁾، ومن طبيعة وعلاقات القوى التي تحكم أطرافه وموضوعه.

أما الصراع كظاهرة فإنه يتسم بالتعقد البالغ، فظاهرة الصراع وإن كانت تجمع - على الأقل بشكل كامل - بين مزيج من الأبعاد الإيجابية والسلبية معا، فإن التكييف النهائي للظاهرة الصراعية إنما يتوقف إلى حد كبير على مجموعة من المتغيرات، وتتشكل هذه الأخيرة أولا طبقا لمتغير الإدراك الخاص بأطراف الصراع، ثم ثانيا بمتغيرات التوقيت، الموضوع، والبدائل المتاحة، وغيرها من

¹ - ينظر إلى مفهوم الصراع في الأدبيات السياسية المتخصصة على أنه ظاهرة ديناميكية. فالمفهوم، من جانب، يقترح موقفا تنافسيا معينا، يكون كل من المتفاعلين فيه عالما بعدم التوافق في المواقف المستقبلية المحتملة، كما يكون كل منهم مضطرا أيضا لاتخاذ موقف غير متوافق مع المصالح المدركة للطرف الآخر. ينظر: منير محمود بدوي- مفهوم الصراع : دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع- مجلة دراسات مستقبلية- مركز دراسات المستقبل- مصر- جامعة أسيوط- ع:3- يوليو 1997م- ص: 38.

متغيرات بيئية تسهم بشكل متداخل في تحديد مدى وكثافة الظاهرة الصراعية. وأخيرا، فإن الصراع كعملية إنما يجد جذوره في روافد متعددة، كما أن أشكاله، ومظاهر التعبير عنه إنما تتداخل وتتقاطع فيما بينها بشكل يعكس قدرا لا بأس به من الاعتماد المتبادل بين منابع العملية الصراعية ومظاهرها. انطلاقا مما ذكر أعلاه فإن الصراع الزياني المريني بدأ حينما وقف يغمراسن⁽¹⁾ موقفا مساعدا للموحدين في حربهم ضد المرينيين، وهو الأمر الذي لم يرضي السلطة المرينية حيث اعتبرت ذلك تآمرا عليها، بينما دفعت هذه المساندة الخليفة الموحد عمر المرتضى لمهاجمة أبي بكر بن عبد الحق في فاس، وإبعاده عنها ولما عجز عن تحقيق هذا المشروع بعث للسلطان يغمراسن يقترح عليه مساعدته للقضاء على بني مرين، هؤلاء وجدوا أنفسهم وسط قوتين هما: الزيانية في الغرب والحفصية في الشرق، فكان لزاما عليهم التحالف مع أحد الطرفين لمهاجمة الطرف الآخر. كما حاول الحكام الحفصيين استمالة زعماء القبائل القوية لتدعيم سلطتهم في الداخل.

حاول الزيانيون اقامة علاقات دبلوماسية مع الحفصيين، وذلك بعقد مصاهرة بين العائلتين الحاكمين، توثيقا لروابط الصلة بينهما، ومع ذلك لم يحافظ الحفصيون على صلة حسن الجوار⁽²⁾، فأخذوا يتحرشون على الحدود الشرقية للمغرب الأوسط، وتمكنوا من اخضاع الكثير من المدن لحكمهم⁽³⁾، فيما كانت السلطة الزيانية منهمكة بجروها ضد المرينيين على مستوى الجبهة الخارجية، واخذوا حركات التمرد والعصيان على مستوى الجبهة الداخلية.

وعندما استطاع الزيانيون استرجاع بعض قوتهم تمكنوا من دخول مدينة تونس عام 1328م مما أجبر الحفصيين على التحالف مع المرينيين، فزحفا الجيشان نحو تلمسان⁽⁴⁾، مما أدى إلى سقوطها سنة

¹ - ياغمراسن: هو يغمراسن بن زياد بن ثابت بن محمد من أشد بني عد الواد بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قومه، وأقوامهم، اشتهر بزرارة العقل، وقوة العزيمة. ينظر: محمد عبد التنسي - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان - تح: محمد آغا بوعباد - د ط - موفم للنشر - الجزائر - 2011م - ص: 36.

² - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: عبد العزيز فيلاي - تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية) - ج: 1 - د ط - موفم للنشر والتوزيع - الجزائر - 2002م - ص: 216.

³ - مرمول كريخال - افريقيا - ج: 2 - تر: محمد حجي وآخرون - دار المعرفة. الرباط - د ط - 1989 - ص: 271.

⁴ - لقد نسجت العديد من الأساطير حول المدينة، من بعض ما جاء فيها أن أصل نشأتها تعود إلى عهد سيدنا الخضر والنبي موسى عليه السلام، ويؤمن البعض بأنهما مرا بالمدينة خلال رحلتهما التاريخية، وسواء صح ذلك أم لم يصح، فإن الثابت علميا ومن خلال الآثار التي تحملها كهوف المدينة،

1337م، وبذلك استطاع الحفصيون اخضاع المدن الشرقية التي كانت تحت سيطرتهم، لكن سرعان ما استرجع الزيانيون مملكتهم؛ واستمر الأمر كذلك بين القوى الثلاث من التطاحن أحيان، ومن تحالف طرفين على حساب طرف ثالث أحيان أخرى، مما انعكس سلبا على الأوضاع الداخلية لبلدان المغرب، ففقدت بذلك قوتها السياسية والعسكرية، ووحدها الاجتماعية. فقد أدى انحطاط وتراجع قوة الدول المغاربية إلى تمزق المنطقة سياسيا واجتماعيا مما شجع الاسبان وغيرهم من التعدي على سيادتها الترابية واستغلال خيراتها وشعوبها شر استغلال، وعليه فلا بد لنا من تتبع أوضاع المنطقة الداخلية لما كان لها من تأثير مباشر على الصعيدين الداخلي والخارجي.

(3)-انعدام وحدة سياسية والتفكك الاجتماعي: بعدما أضحى الضعف والتناحر ينخران

في جسم المغرب الإسلامي انقسم كل جزء منه (الجزائر- طرابلس- تونس- المغرب الأقصى) إلى كيانات سياسية مستقلة خاصة وأن المجتمعات المغاربية عرفت آنذاك تكوينا اجتماعيا قريبا، أو ما اصطلح عليه في مجمل المصادر والمراجع بالإمارات⁽¹⁾. كما احتل النظام القبلي مكانا مرموقا في الحياة العامة في المغرب الاسلامي واستمر يحتلها ويطبعتها بطابعه إلى غاية الفترة الحديثة، فخلال قرون طويلة كانت القبيلة هي المحور الأساس الذي كانت تدور عليه جميع الحركات السياسية والتقلبات الاقتصادية والتطورات الفكرية والاجتماعية. فبالرغم من وجود اطارات سياسية بارزة في المنطقة ونقصد منها المملكة الزيانية في المغرب الأوسط، المرينية في المغرب الأقصى والحفصية في المغرب الأدنى إلا أن هذه الكيانات لم تستطع أن توحد البلدان المغاربية اجتماعيا وحتى سياسيا نظرا لمعطيات عدة تشكل في حد ذاتها موضوع بحث منفصل.

أن الإنسان القديم عاش في تلمسان. كانت النواة الأولى للمدينة، قبل مجيء الرومان، هي أقادير الأمازيغية في عهد كانت فيها المنطقة تعرف باسم موريتانيا، وتخضع لحكم ملوك أمازيغ مثل ماسينيسا ويوغرطة، لكن نجم المدينة لم يسطع إلا في العهد الروماني، حين بنيت فوق الهضبة قلعة بوماريا العسكرية. ينظر: يحي بوعزيز- مدينة وهران عبر التاريخ ويليها مدينة تلمسان- (المرجع السابق)- ص:14.

¹- الإمارة لغة: هي كلمة مشتقة من الفعل أمر، يأمر، أمر، وهي تعني صار أميرا. ينظر: وجدي محمد فريد- ط: 3- دائرة معارف القرن العشرين- دار المعرفة- بيروت- د س ط. ص:570. وتتفرع الإمارة إلى أنواع من أهمها إمارة الاستيلاء، هذه الأخيرة تقع نتيجة انشقاق بعض الولايات، فيستأثر أمراء هذه الولايات بالسلطة ولكنهم يعترفون في الوقت نفسه بالخليفة خوفا من سخط العامة التي ترى فيها رمزا لوحدة الأمة الإسلامية ومجدها. ينظر: القاسمي ظافر- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي- ط:5- دار النقاش- لبنان- 1405هـ/1985م. ص:526.

فغياب الشرعية السياسية والتاريخية عند بعض حكام هذه الكيانات السياسية بالإضافة

إلى

ضعفهم وعدم قدرتهم على حماية السيادة الترابية لبلداتهم جعل من هذه الأخيرة تنقسم على نفسها إلى مجموعة من الأطر الجغرافية تشغلها مجموعة من القبائل موحدة في شكل أحلاف⁽¹⁾ اجتماعية تمارس سلطتها على نطاق الاطار الجغرافي الذي اعتبرته ملكا خاصا بها ولا يحق لأي كان تحت أي ظرف من الظروف أو تحت أي غطاء سياسي شرعي الاعتداء عليه أو المساس بسيادته.

بناء على ما ذكر أعلاه فكل بلدان المغرب الإسلامي تكونت من مجموعة من القبائل موزعة عبر أرجاء البلاد، شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، تجمعها مجموعة من المكونات تمثل رموز هذا الكيان الاجتماعي والسياسي والفكري الضيق.

إذ كان لكل قبيلة أو مجموعة من القبائل مجالها المعروف من الأرض. تربط بين الجميع علاقة قوية تشد أفراد الجماعة إلى بعضهم وهي ما يطلق عليها العصبية القبلية⁽²⁾، وتنبع هذه العصبية من الشعور بوحدة الجماعة من صلات القرى⁽³⁾ ومن كونهم يعيشون على أرض واحدة. فهذا العنصر بقدر ما شكل قوة واتحاد بين مجموعة بشرية معينة في اطار جغرافي معين، إلا أنه كان عامل تفكك النسيج الاجتماعي؛ فتوطن مجموعة من القبائل كان عاملا مهما في تقسيم المجتمعات المغاربية وتجزئتها وفقدتها بعضا من اعتباراتها وخصوصياتها التقليدية؛ فهذه الكتلة البشرية على هذا المستوى ليست قادرة على التصرف كوحدة وكتلة متماسكة في وجه الأخطار الخارجية، وأفرادها سوف لن يتصرفوا كمنتمين لبلد واحد، وإنما ولاؤهم الأول والأخير سوف يكون بالدرجة الأولى إلى تكتل واحد

¹ - الأحلاف: مفردة حلف وهو قسم الاخلاص، وكان يتم بين عدد من العائلات أو القبائل تجمعها مصالح مشتركة فتتحالف من أجل محاربة عدو مشترك، والهدف من اقامة هذا الحلف دفاعي أكثر منه هجومي. ينظر:

Laila Babes- Tribus, structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les Turcs- Mémoire pour le D. E. A d'études approfondies, Université de droit d'économie et de sciences d'Aix Marseille- P : 49.

² - تمثل العصبية القبلية لذوى القرى والرحم، أهمية كبيرة في التكاتف والتعاقد بين أفراد القبيلة الواحدة. فالتعصب للقبيلة في كل الأحوال والدفاع عنها حتى الموت يشكل هوية الفرد وامتائه.

³ - الطاهري عمري- بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي - جامعة منتوري- قسنطينة- 2001م- ص ص: 215، 214.

تفرضه روح القبيلة، ومن هذا المنطلق فأفرادها سيتصرفون وفقا لما تمليه عليهم تصوراتهم وأيضا حسب مصالحهم التي تملئها الفردانية الضيقة، على حساب الصالح الجمعي.

إذ يحكم النظام القبلي مجموعة من الأعراف والتقاليد تصبح مع مرور الزمن قانونا لا يسمح تحت أي ظرف من الظروف مخالفته أو تغييره؛ من هذا المنطلق يتعدى الفكر القبلي من الروح القبيلية والانتماءات العشائرية، فتصبح هذه الأخيرة من خلال التنظيمات التقليدية أهم المرجعيات في اتخاذ القرارات والمواقف المختلفة. وبهذه الطريقة فالمجتمع القبلي الرفض لسنة التغيير يدخل في مواجهة وحرب مع أفكار ورموز ودعاة هذا التغيير بكل قواه وعصائبه. لأن التغيير والتطور يمس أصل وجوده وتكوينه التقليدي المحافظ المتوارث عن الآباء والذي ارتضته القبيلة دينا لها في حجم الحياة كلها. لذلك يكتفي أبناء هذا المجتمع بالفكر الذي ينقل إليهم من الأجداد الأولين؛ وبالتالي فهو الأصل وما عداه من فكر جديد فهو موضع مواجهة ورفض، لأن المجتمع القبل - وجد أفراده سنة قائمة ركنوا إليها، واعتادواها، فلم يسمحوا لأنفسهم بتجاوزها أو مجرد التفكير بتغييرها.

خاتمة المحاضرة الثانية

✓ برز الحفصيون كقوة فاعلة على مستوى الساحة المغاربية، فأسسوا مملكتهم في الجزء الشرقي للمنطقة وجعلوا عاصمتهم تونس 625هـ/1227م، فقد أسسها أبو حفص الذي كان من السابقين إلى تبني أفكار ابن تومرت، وكان بنو حفص الممثلين الحقيقيين للتقاليد التي سارت عليها دولة الموحدين.

✓ أسس بنو مرين مملكتهم بعدما تمكنوا من القضاء على ما تبقى من نفوذ الموحدين نهائيا سنة 688هـ/1269م. وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس، وهي أقوى الممالك الثلاث. اتسعت رقعتها، اتساعا كبيرا في عهد سلطانها أبي الحسن الذي تولى عرش فاس والمغرب الأقصى سنة 731هـ/1230م.

✓ تمكن بنو عبد الواد من تأسيس مملكتهم سنة 633هـ/1235م وجعلوا عاصمتهم تلمسان، ويرجع الفضل في تأسيس هذه المملكة إلى الدور الذي قامت به قبيلة بني عبد الواد إحدى بطون زناتة؛

واستطاعوا أن يفرضوا وجودهم، ولكن اصطدموا بقوتين حالتا دون تحقيق ذلك -الحفصية والمرينية- إلى أن زال بنو عبد الواد وخلفهم بنو زيان.

✓ من خلال ما سبق طرحه يمكن القول أن المعضلة الأمنية في بلاد المغرب الإسلامي عموما وفي المغرب الأوسط على وجه الخصوص تميزت بالفوضوية وانعدام سلطة مركزية، مما جعل الممالك الثلاث (الحفصية والزيرية والمرينية) تشعر بالتهديد، فسعت كل واحدة منهم للحصول على مزيد من القوة، تقيها عدوان محتمل والانفلات من تأثير قوة الآخرين، لكن هذا ما جعل كل طرف يشعر بمزيد من الأمان، مما يدفعه للتأهب للأسوأ، وبما أنه يستحيل أن يشعر كل طرف من هذه الأطراف بالأمان تماما في عالم يتكون من وحدات متنافسة، كما يتعذر له الاطمئنان أو الثقة بنوايا بعضها البعض، فإن السعي للقوة يتواصل، وبالتالي فالصراع من أجل القوة هو سيد الموقف.

✓ تعتبر مسألة النزاعات الحدودية من بين القضايا التي تسببت في توتر العلاقات بين الدول على مر العصور التاريخية، لاسيما في الفترة الوسيطة والحديثة والتي شهدت بداية تشكل الكيانات السياسية، وهو ما شهدته الكيانات المغاربية خلال الفترة قيد الدراسة؛ إذ اندلعت بين الفضاءات المغاربية - المرينية، الزيرية، الحفصية- العديد من النزاعات، وصراعا سياسيا وعسكريا حول بسط النفوذ والزعامة الإقليمية.

إذ تعد النزاعات الحدودية بين ممالك المغرب الإسلامي من الموضوعات المعقدة والشائكة، باعتبارها نزاعات ترتبط بسيادة المملكة على إقليمها، كما ترتبط بهيبتها على الصعيد الخارجي؛ إذ أن أي نزاع حدودي بين دولتين يفترض وجود إدعاءات متعارضة بشأن سيادة كل منهما على مناطق الحدود المتنازع عليها. ومن بين أهم النزاعات الحدودية التي أزمّت الأوضاع العامة في بلاد المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط بصورة خاصة، هو النزاع الحدودي بين المناطق الثلاث؛ حيث كان لبعض القبائل الشمالية والجنوبية دورا بارزا في هذا التنزع، مما جعلنا نعتبر التعايش

السلمي بين مختلف مكونات المجتمع الجزائري من جهة، والمجتمعات المغاربية من جهة أخرى من
المواضيع الحساسة والمعقدة.

المحور الثالث

المد العثماني إلى البحر الأبيض المتوسط

(1)- الأهمية الاستراتيجية للبحر الأبيض
المتوسط

(2)- التوسع العثماني الإسباني في
البحر الأبيض المتوسط

المحاضرة الأولى الموسومة ب: الأهمية الاستراتيجية للبحر الأبيض المتوسط
اشتق اسم البحر الأبيض المتوسط من كلمتين لاتينيتين هما (Medius) أي المتوسط
و (Terra) أي الأرض، يعتبر أكبر بحر في العالم حيث تبلغ مساحته 2.5 مليون كيلو متر مربع؛

ينقسم إلى حوضين يتصلان ببعضهما عبر مضيق صقليا هما: الحوض الغربي (المتوسط الغربي) والحوض الشرقي (المتوسط الشرقي)⁽¹⁾. يتصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي من جهته الغربية عن طريق مضيق جبل طارق. ومن جهة الشرق يتصل ببحر مرمرة عن طريق مضيق الدردنيل وبالبحر الأسود عن طريق مضيق البوسفور. ويعتبر بحر مرمرة امتدادا وجزء من البحر المتوسط. ويتصل بالبحر الأحمر في الجنوب عن طريق قناة السويس⁽²⁾.

يشمل اقليم البحر المتوسط في الجنوب أوروبا على أشباه الجزر الجنوبية في اسبانيا وساحل فرنسا الجنوبي وشبه جزيرة ايطاليا وشبه جزيرة اليونان والجهات الساحلية من البلقان. كما يضم في غربه دول شمال افريقيا ونقصد بها كل من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. وهذا الاقليم يكون وحدة جغرافية تتشابه فيه البنية والتضاريس والمناخ وأسلوب الزراعة⁽³⁾.

والملاحظ من هذا الوصف الجغرافي أن حوض البحر الأبيض المتوسط ليس كتلة مائية تفصل بين مساحات الأرض لكل من أوروبا، أفريقيا وآسيا فحسب، إنما هو بحر تحيطه دول متجاورة متعددة الأعراق واللغات والديانات، كما تختلف في المصالح، ومنطقة لها وضع خاص كوحدة جغرافية تربط الدول باهتمامات مشتركة لمشاكلها المحلية التي تزيد تعقيدا وتشابكا واتساعا، كل هذا جعل البحر الأبيض المتوسط فضاء للصراع والتنافس على المصالح من جهة، والتعاون والشراكة من جهة أخرى.

تتعاظم أهميته الجيوستراتيجية للبحر الأبيض المتوسط لاعتبارات عدة في مقدمتها موقعه الذي يتوسط الأرض تقريبا؛ حيث يربط أقدم ثلاث قارات في العالم وأكبرها أيضا آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ كما يعتبر بمثابة الشريان الحيوي للتجارة العالمية، كونه معبرا أساسيا وهاما للسفن التجارية نحو الأسواق العالمية. كما يعتبر أيضا موردا هاما للثروات والطاقات الاقتصادية والإستراتيجية التي تحتويها المنطقة، وهو

¹ - Yves Lacoste- Géopolitique- De La Méditerranée- Armand Colin- Paris -2006- p17.

² - فرنان بروديل - البحر المتوسط المجال والتاريخ - تر: عمر بن سالم - دط - منشورات وزارة الثقافة - تونس - 1990 - ص: 125.

³ - يسرى الجوهري - جغرافية البحر المتوسط - د ط - منشأة المعارف الإسلامية - الاسكندرية - 1984م - ص: 10.

ما أعطى له بعدا اقتصاديا ووزنا سياسيا¹. وبالتالي يمكننا تحديد أهميته في الأبعاد الثلاثة التالية:

ويعتبر البحر الأبيض المتوسط بؤرة إشعاع حضاري، فعلى جنباته نهضت حضارات عملاقة منذ أن عرف الإنسان إنسانيته، حيث شهد هذا الموقع الجغرافي الذي تعلم فيه الإنسان فنون الملاحة بفضل مياهه الهادئة ومساعدة الظروف الجغرافية المحيطة بشواطئه للاتجاه صوبه الكثير من الأحداث التاريخية. ويمكننا حصر الأبعاد التاريخية له في العناصر التالية:

✓ يعتبر البحر المتوسط مهد الحضارات، إذ تعاقبت بين ضفافه الكثير من الشعوب والحضارات منها الحضارة المصرية والسومرية، الفينيقية، الإغريقية والرومانية بالإضافة إلى الحضارة العربية الإسلامية.

✓ كان لتاريخ البحر المتوسط تأثيرا عظيما على تاريخ الشعوب المطلة عليه. فهو سهل التجارة بين هذه الشعوب، وكان السبيل نحو بناء المستعمرات، وشاهدا على الكثير من الحروب.

✓ المناخ المتشابه والتضاريس والروابط البحرية الموحدة المشتركة كل هذه أدت إلى تكوين روابط تاريخية وثقافية بين المجتمعات القديمة والحديثة في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط.

✓ يعتبر منطقة البحر الأبيض المتوسط مجال تفاعل حضاري.

هذا فيما يخص البعد التاريخي للبحر الأبيض المتوسط، أما أهميته الاقتصادية فإنه يحتل مكانة متميزة في رسم الخطوط العريضة للسياسة الاقليمية لأهميته الاستراتيجية والجيوسياسية منذ أقدم الحضارات الإنسانية وحتى خلال الفترة قيد الدراسة، وسيضل كذلك طالما أنه ينفرد بموقعه الجغرافي كونه يمثل منطقة الاتصال الرئيسة بين ثلاث قارات من العالم، كل واحدة لها أهميتها السياسية والاقتصادية، فهو لا يمثل الملتقى الجغرافي فحسب، بل الجيوسياسي والاقتصادي والعسكري

¹ -مرم رزاق - أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعث النشاط البحري الجزائري الحديث - مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية - ع:33- ص:155.

والسياسي، وهو محور رئيس من محاور الاستراتيجية الاقليمية على نطاقها الواسع. ويمكننا تحديد وزنه الاقتصادي في المكونات التالية:

- ✓ للبحر الأبيض المتوسط أهمية اقتصادية كبيرة فهو مفترق الطرق بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، فهو يمثل منطقة عبور بحرية للتجارة العالمية، ويملك من الثروات الطبيعية ما يدفع دائما بالقوى الكبرى إلى محاولة بسط نفوذها عليه.
- ✓ يعتبر البحر الأبيض المتوسط معبر رئيس للسفن. إذ يتميز بحركة عبور مكثفة لمختلف البضائع.

المحاضرة الثانية الموسومة بـ: التوسع العثماني الاسباني في البحر الأبيض المتوسط

أدرج ملف عثمانة المغرب العربي في حسابات الخلافة العثمانية، ذلك لما كان يتمتع به من موقع استراتيجي، ومقومات أخرى تساهم في تقوية النفوذ العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالفعل فقد كان لها ذلك فالحاق كل من الجزائر أولا وطرابلس ثانيا فتونس لاحقا بالخلافة العثمانية أكسبها قوة ونفوذا في المنطقة.

إذ تعتبر منطقة البحر الأبيض المتوسط أكثر المناطق أهمية، فمميزاتها الجغرافية جعلتها مهدا لأعظم الحضارات في التاريخ، كما مكنته من أن يكون من أهم البحار والممرات المائية التي تسيطر على الحركة التجارية في العالم، كل هذا جعل المنطقة المتوسطة نقطة ارتكاز في استراتيجيات الدولة العثمانية، بحيث سعت إلى التواجد الدائم في المنطقة المتوسطة وذلك بهدف المحافظة على مصالحها وتحقيق أهدافها. ولأجل ذلك كلفت الاخوة بربروس بتجسيد هذا المشروع على أرض الواقع.

وتؤكد بعض الروايات التاريخية أنه وجدت مراسلات سبقت تلك التي عرفت في تاريخ الجزائر العثماني بالرسالة التي بعثها سكان مدينة الجزائر إلى الخليفة العثماني سنة 1519م، وتاريخ هذه المراسلات يعود إلى تواجد الاخوة بربروس في حلق الوادي إذ بعث لهم السلطان العثماني خط همايوني⁽¹⁾ لم يعرف محتواه⁽²⁾، إلا أنه يمكن استقراء محتواه من خلال المستندات التي طرأت على الساحة المغاربية آنذاك، أنه كانت هناك تقارير تبعث إلى الخليفة العثماني من طرف عروج، وبالمقابل كان الخليفة يرد عليهم بمجموعة من الأوامر التي كانوا يتحركون على أساسها.

¹ خط همايوني: يطلق عليه أيضا الخط الشريف. وهي تلك المراسيم التي كانت تحمل الأوامر الصادرة من السلاطين العثمانيين بخط أيديهم، أو ما حرره الكتاب وحملت ختم السلطان عليها. ينظر: سهيل صابان- المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية- د ط- مكتبة الملك فهد- الرياض- 2000م- ص: 101.

² محمد دراج- تأسيس إيالة الجزائر- مجلة العصور- ع: 16- جوان، ديسمبر 2010م- ص: 44.

فهناك الكثير من الروايات التي أكدت على أن التحركات التي كان يقوم بها الاخوة ببروس لم تكن بأمر من السلطان العثماني، وهذا الأمر غير منطقي إذ كيف يمكننا تفسير الرسالة التي بعثت سنة 1519م، يراد من محتواها الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وتعيين خير الدين حاكما عليها نيابة عن الخليفة العثماني.

وما يؤكد تبعية الاخوة ببروس إلى السلطة العثمانية ذلك الخط الهمايوني الذي بعث به السلطان العثماني إلى الملك الحفصي مفاده ضرورة تقديم الدعم الكامل للإخوة وعدم التعرض لهم بسوء، والدليل على ذلك هذا النص التاريخي الذي جاء محتواه كما يلي: "... لقد أدرك السلطان بأننا لم نعد مجرد

قراصنة بائسين مجردين من أي حماية بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني..."⁽¹⁾ من خلال هذا النص التاريخي يتضح أن الاخوة ببروس قد دخلوا تحت سلطة العثمانيين، التي رفعت آنذاك لواء الدفاع على الإسلام ومقدساته، كما اعتبرت القوة الإسلامية الوحيدة التي أخذت تصارع قوى الطغيان والظلم.

هذا قبل تدخل الاخوة في الجزائر أما بعد ذلك فقد أكدت الوثائق أنه كانت هناك اتصالات بين الاخوة ببروس والسلطان العثماني، ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر ذلك الوفد الذي بعثه عروج إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة 1516م المتواجد آنذاك بالاسكندرية يترأسه مصلح الدين، فاستقبل السلطان الوفد أحسن استقبال وأمدهم بعدد كبير من الجنود والمعدات الحربية⁽²⁾.

أما خير الدين فقد أكد في مذكراته أن اللقاء الذي جمع بين الوفد والسلطان العثماني لم يكن مخطط له، وإنما جاء وفق ظروف فرضت نفسها في تلك الآونة؛ فقد ذكر خير الدين أن سفارة مصلح الدين كانت قصد التوجه للجهاد في الناحية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ونواحي قبرص، وعند توجه الأسطول إلى الشرق صادف في طريقه الأسطول العثماني متجها نحو مصر، عندها سارع

¹ - خير الدين ببروس - المصدر السابق - ص ص: 68، 69.

² - محمد دراج - المرجع السابق - ص: 46.

مصلح الدين بالاقتراب من الأسطول وبعد مقابلته للقبطان⁽¹⁾ داريا⁽²⁾ جعفر باي تبع مصليح الدين الأسطول العثماني ودخل معه ميناء الاسكندرية.

بناء على هذه المعطيات تأكد لنا أن تدخل الإخوة بربروس في الجزائر كان مرجعه أوامر من السلطان العثماني، الذي رأى في الحاقها مصلحة للخلافة، كما أن سكان المنطقة لم يكن يملكون خيارا آخر، فقد انعدمت أمامهم كل الخيارات لتقتصر على خيارين أحدهما أمر من الآخر: البقاء تحت وطأة الاحتلال الإسباني الصليبي أو اللجوء إلى قوة العثمانيين التي قد تكلفهم البقاء تحت سلطتهم. فاختاروا الحل الثاني، ذلك أن رابطة الدين والثقافة الإسلامية حركت الجزائريين للاتصال بالعثمانيين والدخول تحت سلطانهم.

³ القبطان: أو قابودان. وهو لفظ فارسي معناه أمير البحر؛ استعمله العثمانيون منذ بداية القرن العاشر هجري الموافق للقرن السادس عشر ميلادي كلقب أطلقوه على قائد الأسطول. ينظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب- المرجع السابق- ص: 347.

⁴ داريا: في الأصل داريابك، المقتبس عن اللغة الإيطالية؛ وهي مرتبة أدنى من مرتبة الصدر الأعظم لكنه أعلى من بقية الوزراء. ينظر: المرجع نفسه- ص: 347.

المحاضرة الرابعة

ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر،
طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية

(1)- مشروع الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية

(1505-1511م)

(2)- الاحتلال الاسباني لطرابلس الغرب ظروفه ومجرياته

(1510-1530م)

(3)- طرابلس تحت احتلال فرسان القديس يوحنا

(1530-1555م)

(4)- الغزو الاسباني على تونس

(1510-1535م)

مقدمة

طرأت العديد من المتغيرات السياسية والاقتصادية مست منطقة البحر الأبيض المتوسط عموماً والجهة الغربية منه على وجه الخصوص من أهمها سقوط الأندلس سنة 1492م بسقوط غرناطة آخر معقل إسلامي هناك على يد الاسبان الكاثوليك، هؤلاء أخذوا على عاتقهم مشروع احياء الحروب الصليبية التي فشلت على أرض المشرق ورد الضربة للعالم الإسلامي بعد فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة 1452م.

فقد ظهر العثمانيون على الساحة المتوسطية كقوة اسلامية حاولوا أن يضعوا توازناً للوضع الذي آلت إليه المجتمعات الإسلامية المتوسطية عموماً، والمتوزعة على شتى أنحاء العالم عموماً، لذلك سنجد الصراع سيأخذ اتجاهين: أحدهما صراع حضاري ديني أزلي بين الاسلام والنصرانية. والآخر صراع حول التوسع وبسط النفوذ والقوة والزعامة الاقليمية.

ولم يكن المغرب الإسلامي في مأمن من هذا الصراع بل كان هو المحور الرئيس الذي دار فيه وحوله الصراع، فكل من اسبانيا والخلافة العثمانية حاولتا بكل الوسائل والسبل للوصول أولاً إلى المنطقة بهدف التحكم فيها وتسيير شؤونها، لذلك سنجد أن الصراع كان على أشده بين القوتين، كانت نتيجته في المرحلة التاريخية الأولى منه احتلال الاسبان لكل السواحل المغاربية والتمركز فيها

عسكريا، فيما تمثل المرحلة التاريخية الثانية في التدخل العثماني عسكريا وانتهى بعثمة الفضاءات المغاربية. وعليه نطرح الاشكالية التالية: فيما تمثل الظروف الخارجية التي ساهمت في تغيير الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدول المغرب الإسلامي؟

1- مشروع الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية (1505-1511م): وجهة اسبانيا

مجموعة من الحملات العسكرية نحو السواحل الجزائرية بهدف احتلالها، وقد تمكنت بفضل تفوقها العسكري الذي قابله ضعف المملكة الزيانية وتفكك وحدة القوى السياسية الفاعلة في البلاد، من احتلال كل الساحل الجزائري، الذي ما لبث أن أصبح مستعمرة اسبانية مع بداية سنة 1512م. فقد استعملت اسبانيا بغية تجسيد مشروعها الصليبي على أرض الجزائر كل الوسائل والسبل، سواء بقوة السلاح، أو التهديد والوعيد، وحتى بشراء الذمم لتسهيل عملية الوصول إلى مبتغاه⁽¹⁾.

كانت البداية مع المرسى الكبير الذي جهزت له حملة عسكرية مكونة من ستة سفن من نوع حراقة وعدة مراكب من نوع مرافيل تحمل على متنها خمسة آلاف جندي ودخيرة حربية ومؤونة⁽²⁾ يقودها دون رايموندي "Don Roymondi". غادر الأسطول الاسباني ميناء مالقة "Malaga"⁽³⁾ في 22 أوت 1505م، ولم يصل إلى المرسى الكبير إلا في يوم 11 سبتمبر من السنة نفسها، بسبب توقفه في المياه الاقليمية للبحر الأبيض المتوسط نتيجة الظروف المناخية التي لم تكن تسمح بتقدم الأسطول، ولقد كان هذا التأخر لصالح الاسبان ذلك أن كل المتطوعين المجاهدين الذين قدموا من المناطق المجاورة لمؤازرة اخوانهم بالمرسى الكبير انسحبوا بعد طول الانتظار⁽⁴⁾.

رغم قلة عدد المجاهدين المرابطين بشاطئ المرسى الكبير الذي بلغ عددهم حوالي خمسمائة مجاهد إلا أنهم قاوموا مقاومة عنيفة لمنع القوات الاسبانية من النزول إلى البر، لكن نظرا لعدم تكافؤ

¹ - للاطلاع على خريطة توضح مسار الغزو الإسباني على الجزائر ينظر الملحق رقم:3.

² - يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر العام-ج:2- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 2007م- ص: 25.

³ - مالقة: مدينة عظيمة متزامية الرقعة، ذات شوارع وميادين فسيحة، يظلها النخيل والأشجار الباسقة، ويحترقها نحر "وادي المدينة، ولكن مجراه يبقى جافا لا ماء فيه معظم أشهر السنة، وأشهر شوارعها، ذو الأشجار العتيقة الضخمة، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة. ينظر: محمد عبد الله عنان- الآثار الأندلسية الباقية- (المرجع السابق)- ص: 242.

⁴ - أحمد توفيق المدني- المرجع السابق- ص: 87.

القوتين⁽¹⁾ تمكن الاسبان من النزول ومحاصرة الحصن، ورغم ذلك لم ييأس سكان المرسى الكبير من المقاومة بالرغم من الحصار الذي فرضه الاسبان على المنطقة، لذلك اجتمعوا ليلا في دار المزوار للبحث حول طريقة ناجحة لطرد العدو، إلا أن رأي الأغلبية ذهب إلى ضرورة الاستسلام، حجتهم في ذلك أن الانتصار على الاسبان مستحيل لامتلاكهم عدد كبير من الجنود وعتاد كبير، والوقوف في وجه مثل هذه القوة انتحار سيؤدي في نهاية المطاف إلى استباحة الأرواح والأعراض والأموال⁽²⁾.

وقد باءت كل المحاولات التي حاول من خلالها سكان المرسى الكبير طرد العدو فسقط في

أيدي

الاسبان بعد عقد هدنة بين الطرفين أمضت على انسحاب كل المجاهدين الذين يحملون أسلحة بعد تجريدهم منها، كما فرضت على سكانه الجلاء منه في أجل أقصاه ثلاث ساعات، دون حمل ممتلكاتهم. لما وصلت أخبار انتصارات الاسبان إلى العرش الملكي أقيمت الأفراح والاحتفالات مدة ثمانية أيام كاملة، كما أقيمت الصلوات⁽³⁾ في الكنائس شكرا للرب على هذا الانتصار على حد زعمهم.

ثم جاء بعدها احتلال مدينة وهران سنة 1509م، إذ بعد سقوط المرسى الكبير في أيدي الاسبان سنة 1505م واتخاذة قاعدة عسكرية لتحركاتهم المستقبلية قررت السلطات الاسبانية أن المحطة القادمة في مشروع الغزو ستكون مدينة وهران نظرا لقربها من المرسى الكبير أولا والاجتماع مجموعة من العوامل ساهمت بشكل مباشر في تسيير الحملة عليها.

أمام هذه المعطيات أصدر الملك الاسباني فرناندو مرسوما ملكيا في شهر ديسمبر من سنة 1508م يعلن من خلاله تجهيز حملة عسكرية على مدينة وهران قصد احتلالها⁽⁴⁾؛ على هذا الأساس

⁵⁻ Henri Delmas De Grammont- Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515_1830- Ernest Lerous d'éditeur- Parie – 1887-: 8.

⁶⁻ بسام العسلي - المرجع السابق - ص: 59.

¹⁻ أحمد توفيق المدني - المرجع السابق - ص: 54.

²⁻ لم تكن تلك المرة الأولى التي تعرضت فيها المدينة للاحتلال، وإنما سبقتها في ذلك البرتغال مرتين، الأولى خلال الفترة الممتدة من سنة 1415م، وإلى غاية سنة 1437م. أما الثانية فكانت سنة 1471م واستمرت إلى غاية سنة 1477م. ينظر: يحي بوعزيز - موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والمغرب - ج: 1 - د ط - دار الهدى - الجزائر - 2009م - ص: 34.

جهاز الكاردينال خمينيس حملة ضخمة تكونت من خمسة عشر ألفا جندي⁽¹⁾ تحملهم ثلاث وثلاثون باخرة حربية وواحد وخمسون زورقا⁽²⁾، يقودها بيدرو نافارو⁽³⁾.

أقلع الأسطول من ميناء قرطاجنة يوم 16 ماي من سنة 1509م، ووصل إلى المرسى الكبير يوم 19 ماي من السنة نفسها، توقف هناك ليتم وضع الترتيبات النهائية للحملة وأخذ التموينات اللازمة. بالمقابل علم سكان المدينة بأمر الحملة فأعدوا لها العدة، ولكن مباغثة العدو لهم بعد فتح الخونة _ سطورا وعيسى وابن ناقص_ للبوابة الرئيسة⁽⁴⁾ أثر بشكل مباشر في مجرى الأحداث، ومع هذا قاوم السكان مقاومة شرسة دامت خمسة أيام كاملة انتهت بسقوط المدينة بعد استشهاد معظم رجالها⁽⁵⁾.

بعد سلسلة الانتصارات التي حققها الاسبان تيقنوا أن سقوط بقية المدن الجزائرية سيكون سهل المنال لذلك قرروا احتلالها فكانت وجهتهم مدينة بجاية التي كانت تعيش تمزقا سياسيا واجتماعيا خلال الفترة قيد الدراسة مما سهل على السلطات الاسبانية شن حملة عسكرية لاحتلالها، خاصة وأنه وصلتها تقارير أكدت على ثراء سكانها والبالغ عددهم حوالي ثمانية آلاف أسرة⁽⁶⁾.

غادر الأسطول الاسباني المرسى الكبير في 30 نوفمبر من سنة 1510م متجها نحو جزر البليار، قدرت الروايات التاريخية تعداده بعشرين وحدة عسكرية تحمل عشرة آلاف جندي مدعمين بمدفعية ودخيرة حربية يقودهم بيدرو نافارو؛ وبمجرد وصوله إلى جزر البليار التحق بهم الدعم البشري والمادي القادم من اسبانيا⁽⁷⁾. بعدها أقلع الأسطول من الجزر البليار في أول جانفي من السنة نفسها، نفسها، ووصل إلى بجاية اليوم الخامس من الشهر نفسه، عندها أسرع القائمون على شؤون المدينة

³- مرمول كرنجال- المصدر السابق- ص: 271.

⁴- محمد مبارك المليي- تاريخ الجزائر في القديم و الحديث- ج.3- د ط- مكتبة النهضة الجزائرية- الجزائر- 1964م- ص: 23.

⁵- فكاير عبد القادر- المرجع السابق- ص: 53.

⁶- L. Didier- Histoire d'Oran période 1501_ 1510- Oran - Jeanne d'arc- 1927- P : 100.

⁷- حسن الوزان- المصدر السابق- ج:2- ص: 50.

¹- مرمول كرنجال- المصدر السابق- ص: 273.

²- أحمد توفيق المدني- المرجع السابق- ص: 109.

بتجنيد المتطوعين والقادرين على حمل السلاح، أما البقية من النساء والشيوخ والأطفال فقد تم نقلهم إلى أماكن آمنة.

حاولت القوات البحاولية منع نزول القوات الاسبانية إلى البر إلا أن الخطة التي اتبعها القائد الاسباني بدرو نافارو مكنته من الانزال ومجاهة القوات المجاهدة المتكونة من أربعة آلاف مجاهد؛ فقد قسم قواته إلى فريقين؛ كلف الفريق الأول باحتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة، في حين أسند مهمة اقتحام المدينة إلى الفريق الثاني⁽¹⁾؛ درات بين الطرفين معارك انتهت بسقوط المدينة في أيدي الاسبان بعد استشهاد قرابة خمسمائة وخمسين شهيدا كان من بينهم رجال دين وعلم⁽²⁾.

لقد أحدثت الحملات العسكرية التي شنها الاسبان على كل من المرسي الكبير ووهران ثم بجاية هلعاً وخوفاً كبيرين في نفوس سكان المدن الساحلية المتبقية، لهذا رأت أنه لا مفر لها سوى الاستسلام وإعلان خضوعها قبل أن تلاق المصير نفسه الذي آلت إليه المدن المحتلة، خاصة وأنهم لا يملكون القوة السياسية والعسكرية لصد هذا العدوان عليهم لذلك خضعت كل من تنس والجزائر سنة 1510 م ثم كل من مدينة شرشال ومستغانم وتلمسان سنة 1511 م⁽³⁾، وكذلك تتالي سقوط المدن الساحلية الجزائرية في يد الاسبان إلى أن تمكنوا مع نهاية سنة 1511 من بسط نفوذهم عليها.

2- الاحتلال الاسباني لطرابلس الغرب ظروفه ومجرياته (1510-1530م): بعدما

تمكن الاسبان من بسط نفوذهم وسيطرتهم على معظم المدن الساحلية الجزائرية بداية بالمرسي الكبير سنة 1505 م فوهران سنة 1509 م مروراً ببجاية سنة 1510 م، ثم تتالي استسلام المدن الساحلية الجزائرية إلى أن أصبحت كلها تحت السيطرة الاسبانية؛ توجهت أطماع الاسبان نحو بقية البلدان المغاربية طمعاً في موقعها وخيراتها، وتنفيذا لمشروعها الرامي إلى تأسيس امبراطورية مترامية الأطراف.

³ - المصدر السابق. ص: 280.

⁴ - Charles Féraud_ Histoire des villes de la province de Constantine_ R,C, 1871_1872_254.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع ينظر: أحمد توفيق المدني - المرجع السابق.

2-1- الاحتلال الحفصي لطرابلس وانعكاساته على المنطقة: عرفت طرابلس⁽¹⁾ في

القديم باسم "تريبولي" و"أويا"، وليبيا⁽²⁾ ويعود تأسيسها إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد على يد الفينيقيين الذين قدموا إليها واتخذوا منها مركزا تجاريا لعرض بضائعهم وتسويقها إلى المناطق المجاورة. وقد تعرضت مثلها مثل باقي مناطق المغرب القديم للاحتلال الروماني فالوندالي ثم البزنطي، ولما توسعت الفتوحات الإسلامية إلى أن وصلت أرض المغرب شملها الفتح الإسلامي على يد القائد الصحابي الجليل عمرو بن العاص عام 643 للميلاد بعد حصار استمر شهرين⁽³⁾، ثم حول اسمها إلى طرابلس⁽⁴⁾. استمرت المنطقة تابعة للخلافة الإسلامية إلى أن سيطر عليها الفاطميون ثم أعقبهم في ذلك المرابطون، وبعد زاول ملكهم حكمها الموحدون.

تسبب الضعف الذي أصاب الدولة الموحدية في سقوطها مما مكن الحفصيون من اخضاع طرابلس للحكمهم منذ سنة 604هـ، بعد أن شن عبد الواحد الحفصي حملة عليها مكنته من هزم ابن غانية⁽⁵⁾؛ بعدها سار حكام المنطقة على نهج الملوك المستقلين، فقد سير حكم طرابلس ممثل عن الحفصيين انحصرت سلطته على مستوى المدينة فقط، بحيث تميز الحكم على مستوى المنطقة⁽⁶⁾ بأنه كان محليا، إذ سيطر عليه شيوخ القبائل يدعمهم في ذلك أشرف وأعيان ووجهاء المنطقة.

وخلال هذه المرحلة من تاريخ طرابلس كانت أقوام البربر خاضعة للعرب المتمركزين على ساحل طرابلس، بينما بسط عرب النوائل نفوذهم على الجهة الغربية من قابس، في حين تحكم عرب

¹ - طرابلس: مدينة جليلة على ساحل البحر عامرة أهلة وسكانها أخلاط من الناس. ينظر: اليعقوبي - البلدان - وضع الحواشي: محمد أمين ضناوي - د ط - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ص: 184.

² - ليبيا: منطقة متسعة نوعا ما، تقع على طول البحر الأبيض المتوسط بين مصر ورأس صولويس وذلك هيروودوث بأن أغلب الاغريق يؤكدون أن ليبيا سميت بهذا الاسم انطلاقا من امرأة محلية وفي مفهومه الأكثر عمومية فليبيا تعني القارة الأفريقية. ينظر: هيروودوث - أحاديث هيروودوث - عن الليبيين الأمازيغ - تر وت: مصطفى أعشى - د ط - مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 2008 - ص ص: 25، 26.

³ - أحمد التيجاني - رحلة التيجاني - تق: حسن حسني عبد الوهاب - د ط - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - 1981 - ص: 239.

⁴ - ذكر مقريري أنها تقع من الأراضي المصرية وتقع شرقي حدود برقة. ينظر: الطاهر أحمد الزاوي - تاريخ الفتح العربي في ليبيا - ط: 1 - دار المعارف - 1963 - ص: 12.

⁵ - عبد الله محمد ابن خليل ابن غلوان الطرابلسي - التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - تع: طاهر أحمد الزاوي - ط: 1 - دار المدار الإسلامي - ليبيا - 2004 - ص: 23.

⁶ - محمد مصطفى بازامه - ليبيا في عشرين سنة من حكم الاسبان 1510-1530 - د ط - منشورات مكتب الفراجاني - طرابلس - د س ن - ص: 27.

بني وشاح⁽¹⁾ في كل من شرق قابس وجبل نفوسة، هذا اضافة إلى بعض الجماعات الصغيرة ممثلة في أولاد سالم وزعيمهم غلبون بن مرزوق التي استقرت في الجهة الشرقية⁽²⁾. أما الجوارى فكانوا يعيشون بطرابلس يرأسهم مرغم بن صابر، بالاضافة إلى بعض الجماعات الصغيرة التي كانت في الجهة الشرقية، حيث تحولت السيطرة لأولاد سالم يتزعمهم غلبون بن مرزوق⁽³⁾.

وخلال الفترة التي كان يخضع فيها الإقليم الغربي لطرابلس الغرب لابن أبي عمارة، الذي استولى على قابس وتونس سنة 1283م ظهر عنصر جديد أخذ يهدد أمن واستقرار المنطقة تمثل في البدو من العرب هؤلاء تمركزوا في طرابلس، ما سهل المهمة للأمير الحفصي أبو زكريا يحيى بشن حملة عسكرية على الإقليم الغربي لطرابلس⁽⁴⁾، والذي تمكن خلالها من اخضاع كل من آل سالم وعرب برقة والجوارى، لكنه خلال فترة تواجد هذا الأمير بمصره فوجئ بحملة شنها عليه الأمير الزياني من تلمسان، ما أجبر أبو زكريا الحفصي للانسحاب ومغادرة طرابلس الغرب وجهته في ذلك مدينة بجاية، لكنه لم يحالفه الحظ في ذلك إذ تم قتله، هذا ما مهد لبروز ثائر جديد عارض وهدد الوجود الحفصي بالمنطقة في محاولة منه لطردهم⁽⁵⁾. وهكذا تتالت الأحداث على طرابلس إلى أن قرر الاسبان احتلالها احتلالها وفرض السيطرة عليها.

فمن بين أهم الأسباب التي حركت أطماع الحفصيين أولاً ثم الاسبان فيما بعد هو تميزها بموقع استراتيجي مهم سواء في جانبه البري أو البحري، كما البنية الاجتماعية والأطر السياسية في المنطقة لعبت الدور الكبير في وقوعها تحت السيطرة والخطر الخارجي.

2-2- مجريات الغزو الاسباني على طرابلس: ساهمت الظروف العامة التي كانت تمر بها

طرابلس مثلها مثل سائر دول المغرب لتعرضها لهجمات صليبية من اسبانيا، إذ استعملت هذه

¹ - عرب بني وشاح: ينتمون إلى بطون دباب المتفرعين إلى المحاميد. ينظر: ايتوري روسي - ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م - تر: خليفة محمد التليسي، ط: 1- دار العربية للكتاب - الاسكندرية - 1972 - ص: 134.

² - المصدر نفسه - ص: 135.

³ - اسماعيل كمالى - سكان طرابلس الغرب - تع: الحسن الهادي بن يونس - د ط - مركز الليبين - طرابلس - د س ن - ص: 37.

⁴ - ايتوري روسي - المصدر السابق - ص: 114.

⁵ - المصدر نفسه - ص: 143.

الأخيرة بغية تجسيد مشروعها الصليبي على أرض المغرب عموماً وطرابلس الغرب على وجه الخصوص كل الوسائل والسبل، سواء بقوة السلاح، أو التهديد والوعيد، وحتى بشراء الذمم لتسهيل عملية الوصول إلى مبتغاهما.

قررت السلطات الإسبانية شن حملة عسكرية لاحتلال طرابلس؛ فجهزت لذلك أسطولاً يقوده بيدرو نافارو، هذا الأخير تلقى رسالة من الملك الإسباني فرناندو يأمره من خلالها بشن حملة عسكرية على طرابلس بهدف احتلالها⁽¹⁾. على أثرها شكل بدرو أسطولاً يحمل على متنه ثمانية آلاف جندي ودخيرة حربية ومؤونة. سار به إلى منطقة فافنياتا ليتلقى هناك بالدعم البشري والحربي القادم إليه من نابولي وصقلية، متمثل في عدد من السفن محملة بالجنود الإيطاليين⁽²⁾.

انطلق الأسطول يوم 15 جويلية من سنة 1510م من فافنياتا مروراً بجزيرة مالطا أين تزود بالماء، كما انضم إليه هناك بعض الجنود المالطيين المرتزقة وعلى رأسهم الخبير بسواحل الشمال الإفريقي جوليانونوبيل⁽³⁾، بلغ التعداد النهائي للحملة حوالي 120 قطعة بحرية تحمل خمسة عشر ألف جندي إسباني وثلاثة آلاف جندي إيطالي⁽⁴⁾.

وبتاريخ 25 جويلية من السنة 1510م، الذي صادف عيد القديس يعقوب، كان الأسطول قد اقترب من مدينة طرابلس ورسى بمينائها⁽⁵⁾. عندها شرع القائد بدرو نافارو في ترتيب الجيش وإصدار الأوامر، حيث كلف أربعة آلاف جندي بمهاجمة العرب المتمركزين خارج المدينة، بهدف قطع أي اتصال بينهم وبين من بداخلها، ثم أمر باقي الجيش بمهاجمة من بداخل المدينة والتركيز بالأخص على المجاهدين المرابطين بالأسوار والقلاع⁽⁶⁾.

¹ - شارل فيرو- الحوليات الليبية- تح: محمد عبد الكريم الوافي- ط:3- جامعة قارونوس- بنغازي- 1994- ص ص:74،73.

² - المصدر نفسه- ص:169.

³ - إيتوري روسي- المصدر السابق- ص: 169.

⁴ - ابن غليون- المصدر السابق- ص:137.

⁵ - محمود علي عامر ومحمد خير فارس- تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى وليبية" ج:1- د ط- د د ن- د ب ن- ص:149.

⁶ - ابن غليون- المصدر السابق- ص:137.

انطلق الهجوم صباحا إذ وجهت السفن الاسبانية نيران مدافعها نحو قصر المدينة وأسوارها، فتسبب القصف الشديد والمتواصل على اختراق السور، حيث تمكن فريق من الجيش الاسباني من فتح إحدى البوابات في الساعات الأولى من النهار، نتج عنه سيطرة الاسبان للقلعة وبعض النقاط الرئيسية في طرابلس رغم المقاومة العنيفة والمستميتة للسكان⁽¹⁾، هؤلاء بعد يقينهم أنه لا جدوى من المقاومة اضطروا للتخلي عن المدينة الذي استلم حكمها القائد الاسباني بيدرو نافارو، هذا الأخير لم يتوقف عند هذا الحد بل شجعتة نشوة الانتصار إلى السير نحو منطقة السراي أين يقيم شيخ المدينة عبد الله، بعدما وصل القائد وقواته هناك تمكن من السيطرة عليها بعدما أسر شيخها وكل عائلته وأنصاره⁽²⁾.

كللت الحملة الاسبانية بالنجاح حيث وجه القائد الاسباني بيدرو نافارو رسالة إلى ملك الاسباني فرناندو ورد فيها مانصه: "سيدي... إن هذه المدينة هي أكبر في واقعها مما كنت أتصور ورغم أن الذين يشيدون بها ويتحدثون عنها حديثا حسنا، إلا أنني أقول إنهم لم يقولوا نصف الحقيقة سواء كان ذلك فيما يتصل بتحصيناتها أو نظافتها، حتى تبدو المدينة مدينة امبراطور أكثر من أنها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص"⁽³⁾.

أتبعت الحملة عمليات واسعة من النهب والتخريب وتهجير أهلها، كما عمل الاسبان على

اقامة

الأسوار على أنقاض الأسوار المحطمة، وبالتالي احداث تغييرات مهمة في هيكلية مدينة طرابلس ومعالمها⁽⁴⁾، فقد اقتصر الاحتلال الاسباني على مدينة طرابلس وقلعتها فقط، تميزت هذه الفترة بممارسة الاضطهاد والأعمال التعسفية ضد السكان الذين فرضت عليهم السلطات الاسبانية ضرائب ثقيلة مما

¹ - محمود علي عامر ومحمد خير فارس - المرجع السابق - ص: 149.

² - شارل فيرو - المصدر السابق - ص: 77.

³ - خليفة محمد التليسي - حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب - ط: 3 - دار الكتب الوطنية - ليبيا - 1997م - ص: 68.

⁴ - محمود علي عامر ومحمد خير فارس - المرجع السابق - ص: 150.

أدخل المدينة في أزمة اجتماعية فادحة⁽¹⁾.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات لعل من أهمها نذكر ما يلي:

✓ تمكن الاسبان من احتلال مدينة طرابلس وفق خطة مدروسة ومنظمة، إذ استطاعوا السيطرة عليها خلال ساعات قليلة من الزمن.

✓ انبهار الاسبان واعجابهم بالمدينة ودليلنا على ذلك الرسالة التي بعث بها القائد الاسباني بيدرو دي نافارو إلى الملك ييشره بالنصر ويطلعه على خصائص ومميزات المنطقة.

✓ كبدت الحملة الأهالي خسائر كبيرة، كما ساهمت في اجلاء الكثير منهم نحو مناطق أخرى.

✓ توقف الهجوم الاسباني عند مدينة طرابلس ولم يحاول أن يتوغل نحو مناطق أخرى هذا ما يؤكد خوف السطات الاسبانية من المغامرة في أماكن مجهلون عليها الكثير.

(3) - طرابلس تحت احتلال فرسان القديس يوحنا: كان بيت المقدس هو مركز ظهور فرسان القديس يوحنا وذلك خلال الحروب الصليبية⁽²⁾، وكانت لهذه الأخيرة أثرا فعالا في تحول هذه الهيئة إلى منظمة دينية فرسانية، وذلك تحت حماية القديس يوحنا باتيسيا والذي لقب أعضائها باسم الاسبارتيه⁽³⁾ نسبة إلى الأعمال الاستشفائية التي كانوا يزاولونها⁽⁴⁾، كما عرفوا باليوحانيين أصحاب المهام العسكرية التي كانت موجهة ضد المسلمين⁽⁵⁾.

1- خليفة محمد التليسي - المرجع السابق - ص: 70-73.

2- عمر عبد السلام تدمري - تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور - ج: 1 - د ط - دار البلاد - طرابلس - د س ن - ص: 284.

3- محمد العروسي المطوي - المرجع السابق - ص: 95.

4- محمود سعيد عمران - حضارة أوروبا في العصور الوسطى - د ط - دار المعرفة الجامعية - بيروت - 1989م - ص: 112.

5- ايتوري روسي - المصدر السابق - ص: 189.

وخلال سنة 1187م نجح صلاح الدين الأيوبي في تحرير بيت المقدس⁽¹⁾، وطرد هذه المنظمة نهائيا من المنطقة، فقصدت عكا واستقرت بها إلى غاية سنة 1291م⁽²⁾، أين تم نفيهم للمرة الثانية إلى جزيرة ردوس والتي أسسوا فيها مملكة بمباركة ودعم البابا والملوك النصارى، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يتوسعون على حساب الجزر المحاذية لردوس وجزر الدويكانيز⁽³⁾. وخلال سنة 1522م تمكن العثمانيون من طردهم من جزيرة رودس بعدما حاصروها لقرابة ستة أشهر كاملة، مما أدى بهم للاستسلام ثم الانسحاب من الجزيرة، عندها طالب البابا الملك كارلوس الخامس بضرورة اقتطاع جزء من مملكته لصالحهم⁽⁴⁾.

3-1) الدوافع وراء تنازل الاسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا: كانت قشتالة في الطريق إلى أخذ دورها الكبير في أوروبا عندما بدأت الكوارث تتوالى على البيت الملكي الاسباني، ففجع الملكان فرناندو وإيزابيلا بوفاة ابنتهما الوحيد، كما بقيت ابنتهما كاتلينا حبيسة الأديرة في انكلترا؛ ثم ماتت ابنتهما إيزابيلا، وأصبحت خوانا⁽⁵⁾ بالجنون، بعدها فقدا حفيدهما ميغيل. وهكذا عاشت إيزابيلا سنواتها الأخيرة في شقاء وحزن شبه دائمين وماتت كذلك عام 1504م.

في خضم كل هذه الأحداث رفض الملك فرناندو تسليم مملكة زوجته إلى فيليب زوج ابنته خوانا، ولكنه في نهاية المطاف اعترف به ملكا جديدا على قشتالة، لكن فيليب ابن إمبراطور النمسا ماكسيميليان مات عام 1506م فآل إليه عرش قشتالة دون أي معارضة. ووجد فرناندو نفسه فجأة ملكا شرعيا على اسبانيا، وبهذا أصبح قادرا على التخطيط لمستقبل مملكته في الصورة التي دوما أرادها، لكن كان عليه في الوقت نفسه موازنة مصالح مملكته الأراغونية مع مصالح قشتالة خوفا من أن

¹ - عمر عبد السلام تدمري- المرجع السابق- ص: 284.

² - ابن غليون- المصدر السابق- ص: 147.

³ - عمر محمد الباروني- الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس- د ط- د د ن- د س ن- ص: 75.

⁴ - عمر محمد الباروني- المرجع السابق- ص: 79.

⁵ - خوانا: هي خوانا تراسامارا التي لقبته فيما بعد بالجنونة ابنة فرناندو ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة. بدأت عليها إشارات الجنون سنة 906هـ/ 1501م، وبعد وفاة زوجها فيليب عام 911هـ/1506م فقدت صوابها تماما، ووضعت جثته في صندوق وراحت تنقله معها أينما ذهبت. توفيت سنة 965هـ/1555م.

يشير استيلاء مراكز القوى فيها خصوصا النبلاء والكنيسة ومحاكم التفتيش التي بات خميس وقتها محققها العام عليها.

والمتصفح للمسيرة السياسية لهذا الملك يجد أنه حاول الموازنة بين كل القوى الضاغطة آنذاك

إلى

أن توفي بتاريخ 23 يناير 1516م، وأوصى حفيده كارلوس بحماية الكاثوليكية والكنيسة، بعدما توج ملكا على اسبانيا، وكان عليه أن يواجه عدة جهات، جعلته من الصعب التحكم في الأمور وتسيير شؤون إمبراطوريته كما كان يريد، وكما أرادته له السياسة الاسبانية التي كانت تديرها الكنيسة الكاثوليكية⁽¹⁾.

فقد أوكل لكارلوس مهمة تحقيق المشروع الذي بدأ مسيرته الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرناندو.

تزامن مع تتويج كارلوس إمبراطورا من طرف رئيس الأساقفة سنة 1520م في كاتدرائية آخن حدثان مهمان على المستوى الداخلي هما: اندلاع حركة عصيان مسلحة⁽²⁾ قادها أهل المدن⁽³⁾، اشترك فيها كل من النبلاء والتجار ورجال الدين والرعايا على حد سواء⁽⁴⁾؛ ثم الانتصارات التي حققها على المستوى الأوروبي⁽⁵⁾. لقد كانت النعمة عارمة على كل من له صلة بالحكم، فنمت هذه

¹ - كون كارلوس هابسبورغا، كان لا بد له من الدخول في مفاوضات من أجل الحصول على قبول الرعية له ملكا. وتحقيقا لهذه الغاية استدعى إلى بلاطات قشتالة نهاية سنة 1517/922م بمدينة بلد الوليد أهم الشخصيات الحساسة وبعد مفاوضات عدة وعند بداية العام التالي، أصبح ملكا على كل قشتالة. بالمثل تصرف مع بلاطات أراغون وكاتالونيا، الذين دعاهم أواخر سنة 1518/923م في سرقسطة وبرشلونة واعترف به ملكا سنة 1519/924م.

وفي السنة نفسها استلم عرش النمسا، إضافة لدخول الميراث البورغوندي لجدته من أبيه في حياته. كما انتخب إمبراطور للرومانية المقدسة.

¹ - محمد علي قطب - المرجع السابق - ص: 50.

² - ما شجع سكان المدن بالقيام بحركة عصيان، أنه خلال صيف سنة 1519/924م ظهرت بعض حالات الإصابة بالطاعون فهرب المسؤولون والجنود من بعض المدن.

³ - رمت هذه الحركة التمردية إلى تحقيق قدر أكبر من الوزن السياسي لقشتالة داخل الإمبراطورية.

⁴ - استطاع كارلوس زيادة ممتلكات تاج إسبانيا فيما وراء المحيط من خلال انتصاره على الآستكيين وإستلانه على فلوريدا، كوبا، المكسيك، غواتيمالا، الهند وراسويوكاتان؛ كما استولى على بيرو وشيلي أي من ساحل أمريكا الجنوبية المطل على المحيط الهادئ. على إثر هذه المستجدات عين كارلوس كورتيس حاكما على الأراضي التي استولى عليها في أمريكا الشمالية والتي ستشكل إسبانيا الجديدة. بينما عين بيسارو حاكما للبيرو غداة تتويجه إمبراطورا.

الحركة واتسعت نتيجة الموقف السلبي الذي أخذه أدريان الأترشتي، هذا الأخير عينه كارلوس وصيا على البلاد أثناء غيابه.

أما الحدث الثاني فهو اندلاع الحركات التمردية في قشتالة، فقد كان أهل مدن مملكة أراغون يشعلون نيران حركة أخرى ولكن لأسباب مختلفة⁽¹⁾. وفي السنة التي سبقت اندلاع التمرد شاعت أخبار مفادها قيام العثمانيين بهجوم على اسبانيا⁽²⁾، وكان ذلك كافيا لإثارة الاضطراب في نفوس السكان؛ هؤلاء شكلوا مجموعات تسلمت مقاليد السلطة في بلنسية تزعمها المدعو خوان لورنيك "Ruine Lounik"⁽³⁾؛ وبدأت توسع نفوذها على مستوى الأرياف القريبة. ثم انتقلت الزعامة إلى شخص آخر

يدعى بيريس "Byriss" الذي وجه نقمة المتمردين ضد النبلاء⁽⁴⁾ ثم ضد المسلمين⁽⁵⁾.

أما على المستوى الخارجي فقد وجد كارلوس نفسه صاحب سلطة هائلة لم تنافسه في اتساعها وقوتها سوى الخلافة العثمانية؛ كما وجد نفسه فجأة يدافع على الإمبراطورية ضد ثلاث أخطار خارجية تمثلت في:

✓ الحركة اللوترية⁽⁶⁾ في ألمانيا وسويسرا، فكان على كالوس التصدي لخطر تمددها والتي كرس كرس لها جل حياته، وانتهت باعترافه بالكنيسة البروتستانتية ولولا صعود اللوترية لكان كارلوس، على الأرجح حل محاكم التفتيش في اسبانيا.

¹ - اندلعت في أراغون حركة تمردية أطلق عليها "حركة خرمانيا"، هذه الأخيرة وجهت ضد النبلاء، وقد مثلت "خرمانيا" تجمعا ضم كل فعاليات المنطقة.
⁶ - يعتقد الكثير من المؤرخين أن انتقال الإشاعة التي مفادها هجوم العثمانيين على اسبانيا في عقر دارها يعود لاستشهاد الأخوين بربروس اسحاق وعروج في واقعة بني راشد بتلمسان سنة 1518/923هـ. إذ توقعات السلطات الإسبانية أن ردود الفعل العثمانية سوف تكون قوية انتقاما لمقتل زعماء البحرية العثمانية على يد القوات الإسبانية في الجزائر.

⁷ - **خوان لورنيك**: كان يشتغل بصناعة الملابس، ولكن طموحه كان أكبر من ذلك، فقد فكر في تحويل بلنسية إلى جمهورية مستقلة مثل جمهورية البندقية.

⁸ - حملت حركته شعار "اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفار" وهكذا تحولت حركة التمرد في بلنسية إلى حركة إصلاح اجتماعي من نوع خاص.

⁹ - كان يرى زعيم هذه الحركة أن عددا كبيرا من هؤلاء المسلمين كانوا يعملون لدى هؤلاء النبلاء، وبالتالي اعتبرهم معادين للحركة مثل أترياء المدينة.

¹ - **الحركة اللوترية**: نسبة إلى مارتن لوتر، ولد في مقاطعة ساكسونيا سنة 1483/888هـ، من عائلة بسيطة، درس بكلية الحقوق، ثم انضم لسلك الرهبنة سنة 1505/910هـ في أحد أديرة القديس أوغسطين. تحصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت سنة 1508/913هـ، ثم اعتلى كرسي الأستاذية بجامعة فيث ندرت. أول اتهام وجهته البابوية إلى لوتر هو أنه يتبنى التعاليم الإسلامية ويؤيد بحركته هدف المسلمين شق الكنيسة الكاثوليكية.

✓ الحرب المستعرة في صورة شبه مستمرة مع فرنسا، جارة أراغون الأقرب.

✓ الصراع الاسباني العثماني؛ فقد شكلت الخلافة العثمانية شوكة في خاصرة الإمبراطورية بنواياها التوسعية نحو وسط أوروبا. وخاض كارلوس في الواقع عدة نزاعات ضد العثمانيين؛ فوجد نفسه غالبا ما يحارب على جبهتين في ذات الوقت: شرقا ضد العثمانيين وغربا ضد الفرنسيين. فالقوة العسكرية التي كانت تتمتع بها الخلافة العثمانية مكنتها من خوض معارك عدة على عدة جبهات، حققت خلالها انتصارات أبهرت أباطرة وملوك أوروبا. وبما أن كارلوس كان حامي الكاثوليكية، وإمبراطورا على مناطق كثيرة ومتفرقة من قارة أوروبا وأمريكا وإفريقيا، فقد واجهته مهمة الدفاع على مكتسباته.

✓ حرب اسبانيا في الجزائر؛ فقد خسرت اسبانيا العديد من قواعدها في الجزائر بفضل التدخل العثماني في المنطقة وكان على كالوس أن يحافظ على ما تبقى له هناك فكان عليه أن يتنازل على

طرابلس مقابل جفاظه على بعض مستعمراته في الجزائر.

3-2) فرسان القديس يوحنا خلفاء الاسبان على طرابلس: توحدت مجموعة من الأسباب التي كانت وراء اختيار الاسبان لفرسان قديس يوحنا حتى يكونوا خلفاءهم على طرابلس ومن بين هذه الدوافع نذكر:

✓ ضمان كسب تأييد ومساندة الكنيسة البابوية هذا من جهة، وتعاطف العالم النصراني مع اسبانيا من جهة أخرى.

✓ عرف على فرسان القديس يوحنا تطرفهم الصليبي ومحاولاتهم المستمرة لاضطهاد المسلمين والقضاء عليهم.

✓ اشتهر فرسان القديس يوحنا بشجاعتهم ومعرفتهم الجيدة بفنون الحرب.

وسعى لوتر إلى دفع هذه التهمة عن نفسه فكتب ضد الإسلام وعدّد انتقاداته للدين الإسلامي ومن بينها عدم الاعتراف بصلب المسيح، لكن التهمة ظلت عالقة به. ودعا مرة إلى تنظيم حملة صليبية ضد العثمانيين لكنه عاد وقال إن الحملات الصليبية أعمال نصرانية غير شرعية.

✓ ابرام حلف معهم يضمن لاسبانيا قوة عسكرية صليبية تساعدها على الحفاظ على مستعمراتها هذا من جهة، وتحارب معها المد العثماني في منطقة البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

✓ المعرفة الجيدة لفرسان القديس يوحنا بجغرافية حوض البحر الأبيض المتوسط مما سيمكن لاسبانيا كسب حليف قوي يساهم في عملية بناء امبراطورية اسبانية مترامية الأطراف، كما سيساهم في انتعاش التجارة البحرية الاسبانية بتحكم هذه الأخيرة في الملاحة البحرية في المياه الاقليمية للبحر الأبيض المتوسط.

✓ طمح كارلوس الخامس من وراء تنازله على طرابلس إلى جعل مالطة مركز روحي للفرسان ومقر عسكري لهم.

كل هذه العوامل اجتمعت لكي تجعل طرابلس الغرب تقع تحت سيطرة وويلات فرسان قديس يوحنا هؤلاء لن يكونوا أقل عنفاً أو عنصرية أوحى وحشية من الجنود الاسبان، لذلك سوف يواجه سكان المنطقة أوقاتاً عصيبة لن تنتهي إلا بالتدخل العثماني الذي سياتهم بشكل مباشر في طرد هذا الاحتلال الجديد.

ضغط كالوس الخامس على فرسان القديس يوحنا حتى يوافقوا على عرضه القاضي باحتلالهم لطرابلس بعد انسحاب قواته منها⁽¹⁾، وفي نهاية المطاف قبلوا عرضه الذي ترجمه امضاء مجلس المنظمة على وثيقة التسليم التي ورد في نصها ما يلي: "...قد وهبنا القصر والأماكن وجزائرننا في طرابلس ومالطة وقوزو إلى منظمة فرسان القديس يوحنا لآحياء المنظمة ولاستقرارها وهي هبة خالصة عن رضا منا واقتطاعاً دائماً شريفاً حراً...".

ما إن حلت سنة 1530م حتى دخلت هذه المنظمة طرابلس الغرب وباشرت عملها بتحسين المدينة وضمّان سيطرتها الداخلية والخارجية، كما نصبوا القسيس جيساري دي سانقوسا واليا عليها، وتمكنوا من السيطرة على زنزور والمنصورية ولماية والحشان وصبراتة والزاوية، وركزوا عملهم على جباية

¹ - محمود علي عامر ومحمد خير فارس - المرجع السابق - ص: 154.

الضرائب ماجعل أهل الجهة الغربية يخضعون لها، وذلك عن طريق البر بسبب قربهم من طريق الجيوش التونسية، هذا ما جعل أمير تونس يبعث إلى والي طرابلس بهدف تكوين صداقة مع منظمة القديس يوحنا وعقد معاهدة دفاع مشترك معها، قبل والي طرابلس العرض ولكن اشترط على أمير تونس عدم ارسال معونة إلى سكان تاجوراء، هؤلاء قرروا الصمود والمقاومة قصد طرد فرسان القديس يوحنا⁽¹⁾ وهذا ما سيتأكد عندما نناقش التدخل العثماني في المنطقة. استمر احتلال المنظمة لطرابلس إلى أن تدخل العثمانيون وطردهم من المنطقة، وخلال هذه المرحلة ارتكب الفرسان أبشع الجرائم في حق السكان، كما نهبوا خيرات البلاد⁽²⁾.

4- الغزو الاسباني على تونس (1510-1535م): ظل المغرب الإسلامي طيلة القرون التي تلت سقوط دولة الموحدين مجزأ بين ثلاث ممالك صغيرة، أولها المرينية في المغرب الأدنى، والزيرية في المغرب الأوسط، والحفصية في المغرب الأدنى، كلها لعبت دورا بارزا في صناعة الحدث التاريخي الذي عرفته المنطقة خصوصا خلال القرن السادس عشر ميلادي، فقد طفت على الساحة السياسية مستجدات انجرت عنها تغييرات على المستوى المحلي والاقليمي.

فبعد سقوط الأندلس، ثم توحيد اسبانيا وبناء قوتها، ثم تطلعها إلى بناء امبراطورية مترامية الأطراف بداية بالمغرب الإسلامي، والوجود العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط وما انجر على ذلك من صراعات ومواجهات جعل من المنطقة تخرج من عهد وتدخل عهدا جديدا، فبعدها كانت المنطقة تسمى بالمغرب الإسلامي أضحت تلقب بالمغرب الحديث أو الايالات المغاربية.

4-1) المملكة الحفصية وبداية النهاية: أنشأ أبو زكريا الحفصي المملكة الحفصية بالمغرب الأدنى بعد انفصله عن الموحدين خلال القرن 12م⁽³⁾، وينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص

¹ - ابن غليون- المصدر السابق- ص:152.

² - المصدر نفسه- ص:152.

³ - محمد الهادي شريف- تاريخ تزنس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال- تع: محمد الشاوش ومحمد عجينة- ط:3- دارالاسراس للنشر- تونس- 1993- ص ص: 52-66.

يجي بن عمر الهنتاني⁽¹⁾، ولقد حظيت المملكة الحفصية منذ استقلالها عن الموحدين بنفوذ واسع ولكن مع أوائل القرن 14م عرفت ضعفا وانحطاطا بسبب شراء ضمائر بعض الأمراء الحفصيين⁽²⁾. من بينهم السلطان الحسن بن محمد الذي خلف أباه محمد بن الحسن على العرش المتضعع الذي وصفه أحمد توفيق المدني قائلا: "...وكان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر، مهملًا لأمر الملك وترك خمسة وأربعين ذكرا، خلفه منهم الحسن، فقتل اخوته، ولم ينجح إلا الرشيد^(*) وعبد المؤمن ولغيبتهما اشتغل مثل أبيه بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمئة غلام فمالت عنه الأمة إلى الرشيد"⁽³⁾.

كل هذه الأسباب مجتمعة مع المزايا التي كانت تتمتع بها المملكة الحفصية وعلى رأسها الموقع الاستراتيجي إذ كانت حلقة وصل بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط أضحت عرضة لأطماع الاسبان خاصة بعدما قبل ملوكها التبعية للغزاة الاسبان مقابل الاحتفاظ بمناصبهم اعتقادا منهم أن الاسبان سيحترمون العهود والمواثيق المبرمة بينهم ومتناسين بأن الطموح الاسباني لن يتوقف عند احتلال السواحل الجزائرية فقط، بل سيواصلون في تجسيد مشروعهم التوسعي على حساب المغرب الأدنى أيضا، فخططوا لاحتلال سواحلهم نظرا للموقع الاستراتيجي الذي كانت تحتله، وضربا للوجود العثماني في المنطقة.

4-2) مشروع الغزو الاسباني على السواحل الحفصية: نظرا للتواجد العسكري العثماني في

جزيرة جربة منذ سنة 1504م قررت السلطات الاسبانية شن حملة عسكرية بحرية انتقامية على الجزيرة

¹ - الهنتانة: قبيلة بربرية تلتحق بالصامدة التي تعتبر من بين أكبر القبائل بالمغرب الأقصى. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب - خلاصة تاريخ تونس - ط:3- دار الكتب العربية الشرقية - تونس - 1373هـ - ص:105.

² - المرجع نفسه - ص:124.

* - تمكن الرشيد من الفرار بأعجوبة من عملية اغتيال دبره له أخوه عبد المؤمن، والتجأ إلى الجزائر أين رحب به خير الدين والذي اقتاده إلى القسطنطينية وهناك اقترحا على السلطان سليمان القانوني بتحرير تونس من الاسبان. ينظر:

Louis Piesse- Itérinaire de l'Algérie de la Tunisie et de Tanger- Libraire Hachette- Paris- 1882- P : 483.

³ - أحمد توفيق المدني - المرجع السابق - ص: 229، 230.

مستغلين نقل الاخوة عروج لقاعدتهم العسكرية نحو حلق الوادي وذلك خلال سنة 1510م، أي بعد سقوط مدينة بجاية مباشرة.

جهزت السلطات الاسبانية حملة في السنة نفسها (1510) تشكلت من إثني عشر سفينة يقودها بيدرو نافارو، نزلت القوات في مضيق القنطرة فحاول القائد الاسباني أن يخادع سكان المنطقة، فأنزل ثلاثة من رجاله يجيدون التكلم باللغة العربية فغرسوا علما أبيضاً على الشاطئ كدليل على أن الحملة ليس الهدف منها احتلال المنطقة وإنما قدمت بهدف التفاوض⁽¹⁾، لكن جماعة من الأندلسيين الذين يعرفون خبث ومكر الاسبان نزعوا العلم بسرعة وبلغوا سكان المنطقة بحقيقة انزالهم بشاطئ القنطرة. عندها تنظموا وتشجعوا من أجل رفع لواء الجهاد والدفاع على أرضهم وأرواحهم وأعراضهم، فواجهت القوات الاسبانية مقاومة عنيفة أجبرتهم على الانسحاب متجهين نحو طرابلس⁽²⁾. فالاسبان كانت لهم قواعد يعملون بها عند كل موقف يواجهونه من أهمها تغطية أي انكسار بانتصار جديد.

عاد القائد رفقة جنوده إلى طرابلس يوم 9 أوت من سنة 1510م راغباً في احكام حصار على جزيرة جربة للمرة الثانية، لذلك ترك عدد من جنوده على متن سفنه ولكن لحسن الحظ ساءت الأحوال الجوية في تلك الليلة مما أجبرته على مغادرة الميناء والبقاء على متن السفن إلى غاية تاريخ 23 أوت من السنة نفسها.

في الوقت الذي لا يزال بدرو نافارو متواجداً بمرسى الميناء لوحظت خمسة عشر سفينة في عرض البحر يقودها غارسيا الفاريز الطليطلي، رفقة اخوته وعمه فرناندو، تنفس بدرو نافارو الصعداء واتفقوا على النيل من سكان جربة، لذلك تحركت القوات مجتمعة يوم 27 أوت من السنة نفسها وهاجموا الجزيرة في اعتقاد منهم أن النصر سيكون سهلاً، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً إذ

¹ - شارل فيرو - المصدر السابق - ص: 79.

² - عمر محمد الباروني - المرجع السابق - ص: 51.

استقبل سكان الجزيرة الغزاة بكل شجاعة وبسالة ودافعوا على أرضهم ودويهم دفاعاً مستميتاً إلى أن تمكنوا من طرد العدو والحاق خسائر فادحة به⁽¹⁾.

أمام العزيمة القوية لاسبان من احتلال تونس واصلوا مسيرتهم رغم خسارتهم، فكانت وجهتهم هذه المرة جزيرة قرنة قرب صفاقس، والتي كانت تضم العديد من القرى الصغيرة، وهي تتميز بأموالها العالية التي تجعل الرسو بها في غاية الصعوبة مما أجبرهم على الانسحاب⁽²⁾.

حاول الاسبان للمرة الثانية احتلال الجزيرة، فجهزوا حملة عسكرية سنة 1520م مستغلين انشغال خير الدين بترتيب أموره الداخلية في الجزائر بعدما تم تعيينه حاكماً عاماً عليها، قاد الحملة هوق دوموتكا، فنزل بجزيرة وتمركز بها، وأرغم شيخها على الامضاء على معاهدة استسلام نصت بنودها على ما يلي:

- ✓ دفع ضريبة سنوية للعرش الاسباني.
- ✓ منع انزال قوات خير الدين في الجزيرة
- ✓ يمنع منعاً تاماً التحالف مع أعداء الاسبان تحت أي ظرف من الظروف وإلا ستكون النتائج وخيمة.
- ✓ ارسال وفد إلى اسبانيا ليقدم رموز الولاء والطاعة للامبراطور كارلوس الخامس نيابة على سكان جزيرة جربة.

غير أن شيخ الجزيرة ضرب عرض الحائط بنود هذه المعاهدة بمجرد انسحاب القوات الاسبانية، ذلك أن القائد لم يترك خلفه حامية عسكرية تضمن له تنفيذ الاتفاقية المبرمة مع شيخ الجزيرة لقناعته بأنه لن يجراً على ارتكاب عمل مثل هذا.

خاتمة المحور الرابع من المقياس:

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات لعل من

أهمها نذكر:

¹ - عمر محمد الباروني - المرجع السابق - ص: 57.

² - شارل فيرو - المصدر السابق - ص: 84.

- ✓ تميز المسار التاريخي لمشروع الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية بمرحلتين: مرحلة تم استعمال فيها القوة العسكرية والقتل والبطش والتنكيل من أجل اخضاع المدن الجزائرية الساحلية من أهمها مرسى الكبير ووهران وبجاية، ومرحلة تم فيها اخضاع بقية المدن الساحلية عن طريق فرض معاهدة الاستسلام التي فرضت على سكان المدن المستسلمة أن يعيشوا النتائج نفسها التي عايشتها المدن المذكورة أعلاه، إلا أن الفارق الواحد بينهما هو أنهم تفاعلوا في مجازر وحشية تخالف كل الأعراف والقوانين الدولية والانسانية معا.
- ✓ تميزت طرابلس بموقع استراتيجي مهم جعل الكثير من القوى الأجنبية تطمع في احتلالها ومن بين هذه القوى نذكر اسبانيا، فقد سخرت هذه الأخيرة كل طاقاتها المادية وبشرية بهدف احتلالها والسيطرة عليها وقد تمكنت من ذلك مع نهاية سنة 1510م.
- ✓ واجهت اسبانيا الكثير من المشاكل والأزمات سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي مما أجبرها على أن تتنازل على طرابلس لفرسان القديس يوحنا وقد تم لهم ذلك خلال سنة 1530م، لتبدأ طرابلس مرحلة تاريخية أخرى من الاضطهاد والتنكيل.
- ✓ تمكن الاسبان من احتلال مواقع مهمة من تونس خاصة بعدما آل الحكم فيها إلى سلاطين ضعفاء كان همهم الوحيد اللهو والمجون.

المحور الخامس

تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية

(1512-1830م)

(1) - التدخل العثماني في الجزائر

1512-1518م

(2) - الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية

(1518-1520م)

(3) - عهد الباي لاريابي (1520_1587م)

4- فترة حكم الباشاوات والأغوات (1588_1671م)

5- عهد الدايات (1671_1830م)

مقدمة

ظلت الجزائر على مر العصور عرضة لأطماع قوى خارجية، هذه الأخيرة طمحت في استنزاف ثرواتها واستغلال موقعها الاستراتيجي، متخذة لأجل تحقيق هذه الغاية العديد من الدوافع بهدف اقناع منافسيها بضرورة ما تفعل هذا من جهة، ولاسكات سكان البلد المحتل من جهة أخرى. ومن بين هذه القوى الخارجية نذكر اسبانيا.

فبعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس سنة 1492م وضعت اسبانيا مشروعاً توسعياً ليس على حساب الساحل الجزائري فقط، وإنما على حساب السواحل المغاربية عموماً، متخذة من الدافع الانتقامي محركاً أساسياً لهذا المشروع، هذا أمام الرأي العام الخارجي، أما في حقيقة الأمر فقد كانت هناك أسباب أخرى وراءه.

عقب هذه الأحداث، ولأن الجزائر في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها كانت تفتقر لوحدة سياسية واجتماعية، وقوة عسكرية، اضطرت للبحث عن منقذ لها يدفع عنها هذا الخطر الصليبي؛ فلم تجد أمامها سوى الخلافة العثمانية التي كانت تمثل آنذاك قوة عسكرية وسياسية، خاصة وأنها حملت على عاتقها مهمة الدفاع عن الأراضي الإسلامية من التحرشات الصليبية.

على هذا الأساس استنجد الجزائريون بالاخوة بربروس المتواجدين في جزيرة جربة منذ سنة 1504م، هؤلاء مثلوا الخلافة العثمانية على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط؛ فبعد أن وصلت أخبار جهادهم البحري وانتصاراتهم إلى مسامع سكان الجزائر، لم يترددوا في طلب العون منهم، وما كان لهم إلا أن يستجيبوا لنداء الاستغاثة، بداية من بجاية، ولم يتوقف الأمر عند هذه المدينة، بل

تجاوزها ليتمكنوا من فرض وجودهم على الكثير من المناطق. وعليه نطرح الاشكالية التالية: ما هي الآليات والاستراتيجيات التي اتخذها العثمانيون في صددهم للعدوان الاسباني على مستوى السواحل الجزائرية؟

ولقد تفرعت عن هذه الأشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية لعل من أهمها نذكر: هل تمكن الاخوة بربروس من تحرير بجاية بعدما كانت أول منطقة طلبت الدعم منهم؟ ما هي الصعوبات والعراقيل التي وقفت حاجزا أمام تقدم العثمانيين في مختلف المناطق الجزائرية؟ وهل استطاعوا أن يحققوا الأهداف التي سطروها قبيل تدخلهم؟ وهل يعتبر ذلك غزوا أو احتلالا؟ سنحاول من خلال هذه الجزئية الاجابة على كل هذه الأسئلة محاولين تتبع المسار التاريخي للتدخل العثماني في الجزائر والوقوف بالتحليل على أهم النتائج التي ترتبت عليه.

1- التدخل العثماني في بجاية (1512م): بعدما يقن سكان بجاية أن الاسبان تمكنوا من المنطقة ومن مناطق كثيرة، وأصبحت قوتهم تزداد يوما بعد يوم في ظل غياب أية قوة ترد هذا الخطر الصليبي، أخذوا يبحثون عن منقذ لهم فوجدوا في قوة العثمانيين المنفذ الوحيد من بطش وظلم الاسبان، لذلك قرروا ربط اتصالات بهم بغية تحصيل تدخل عسكري في بجاية.

عين سكان بجاية وفدا يمثلهم تكون من أعيانهم وعلمائهم⁽¹⁾ وقصدوا حلق الوادي أين كان يتواجد عروج وقواته حاملين معهم رسالة باسم سكان بجاية⁽²⁾ ومجمل ما يمكننا قوله هو أن هذه المراسلة ساهمت في التعجيل بالتدخل العسكري للممثلة السلطة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط، إذ لم يطل رد الاخوة بربروس على نداء البجاويين، فقرروا في السنة نفسها مواجهة الاسبان، لهذا الغرض أقلع عروج بعمارة بحرية من حلق الوادي، واشتبكت قواته مع القوات الاسبانية إلا أنه لم

¹ ذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن طلب التدخل الأول كان من طرف الملك الحفصي الذي أراد تحرير المدينة من الاسبان، ولكن هذا غير منطقي، ذلك أن السلطة الحفصية انسحبت من الشرق الجزائري مباشرة بعد سقوط مدينة بجاية وأعلنت ولائها وطاعتها للاسبان، كما كانت تتخوف من أي ردود فعل عدوانية من هؤلاء إذا ما حاولت أن تتحالف مع أي قوة أجنبية ضدهم.

2-Henri Grammont, Le R'azaout est-il l'œuvre de Kheir_Ed_Din (Barbarousse)- Imprimerie de X. Duteis- 1830- P : 27.

يحقّق الانتصار المرجو، ذلك أن عروج أصيب بإصابة خطيرة في يده أجبرت قواته على الانسحاب عائداً إلى حلق الوادي بهدف معالجة إصابة عروج، ولكن الأطباء عجزوا على انقاذها، فقررروا في نهاية المطاف بثرتها حفاظاً على حياته⁽¹⁾؛ وبالرغم من أن عروج فقد ذراعه إلا أنه لم يفقد عزيمته وتصميمه على تحرير بجاية من الاحتلال الإسباني، ولكن بعدما أصبح جيغل قاعدة عسكرية له.

على هذا الأساس تحرك وفد قاصداً عروج وعند التقاء الطرفين تدارسا القضية وقرر عروج في نهاية المطاف تلبية نداء الجيغليين لتخليصهم نهائياً من استغلال الجنويين لهم. على اثر ذلك جهز حملة عسكرية قادها إلى جيغل وبعد مناوشات لم تكن بالصعبة تمكن عروج من تحرير المدينة⁽²⁾. استبشر سكان المدينة بهذا النصر ولم يجدوا بالمقابل ما يقدموه كرمز للعرفان على هذا الجميل سوى تسليم عروج منطقة يختارها هو ليؤسس عليها قاعدته العسكرية دون مقابل، لهذا قرر عروج ودون تردد نقل قاعدته

العسكرية المتواجدة في حلق الوادي إلى الجزائر وبالضبط في مدينة جيغل⁽³⁾.

بعدما استقر الأسطول العثماني في مدينة جيغل قرر تحرير مدينة بجاية للمرة الثانية، لهذا الغرض أقلع عروج بعمارة بحرية من حلق الوادي وذلك خلال السنة 1515م، واشتبكت قواته مع القوات الإسبانية إلا أنه لم يحقق الانتصار المرجو، لحصانة المدينة هذا من جهة، ولقوة الإسبان من جهة أخرى⁽⁴⁾.

استطاع الاخوة بربوس بقيادة عروج تحقيق العديد من المكاسب في مدة زمنية وجيزة لم تتعدى ثلاث سنوات، بما أنهم كانوا السباقين إلى رفع التحدي ومواجهة الإسبان الذين كانوا يشكلون

³- أحمد توفيق المدني- المرجع السابق- ص ص: 150، 151.

²- أحمد توفيق المدني- محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م- د ط- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1986م- ص: 23.

²- محمد سي يوسف- أمير أمراء الجزائر عالج علي- د ط- دار الأمل- الجزائر- 2009م- ص: 42.

³- أحمد توفيق المدني- المرجع السابق- ص ص: 150، 151.

أكبر قوة عسكرية في تلك الحقبة التاريخية، بعدما عجزت المملكة الزيانية وحتى جيرانها الحفصيون والمرينيون على صد عدوانهم ووقف الزحف الصليبي الذي تمكن من احتلال معظم السواحل المغاربية.

لم يتوقف الاخوة بربروس عند الشرق الجزائري بل تجاوزوه ليصل نفوذهم وسيطرتهم إلى باقي الحواضر الجزائرية التي كان لها وزنها السياسي والجغرافي، بداية بمدينة الجزائر، فبعد وفاة ملك اسبانيا فرديناندو سنة 1516م اجتمع أعيان ووجهاء المدينة للتخطيط للطريقة المثلى التي يمكنهم بها التخلص من سيطرة الاسبان وبطشهم خاصة وأن الحامية المتواجدة في صخرة البنيون كانت تترصدهم بالجزائريين وتهدد أمنهم واستقرارهم.

أفضى الاجتماع إلى الاستنجاد بالعثمانيين الممثلين في شخص عروج والمتواجدين في جيجل، ذلك أنها كانت القوة العسكرية الوحيدة التي حملت على عاتقها صد العدوان الاسباني على السواحل الجزائرية بالرغم من معارضة زعيم المنطقة سالم التومي، الذي كان متخوفا من زوال سلطانه وهيبته أمام قوة وشجاعة عروج.

لتحقيق هذا المشروع قصد وفد من الأعيان يتأسسه أحمد ابن القاضي مدينة جيجل واجتمعوا بعروج، وقدموا له تقريرا مفصلا على معاناتهم اليومية، وأنه يمثل القوة العسكرية الوحيدة التي يمكن أن حملت على عاتقها مهمة تخليصهم من بطش وظلم الاسبان، وناشدوه باسم رابطة الدين تلبية ندائهم.

أمام إصرار والحاح الوفد قرر عروج تلبية النداء فتوجه إلى مدينة الجزائر مرفقا بقوة عسكرية قدر تعدادها بثمانمائة جندي تركي مدعمة بثلاث آلاف متطوع من المجاهدين الجزائريين برا ودخلها

دخول الأبطال أواخر سنة 1516م⁽¹⁾؛ بينما أمر خير الدين اللاحق به بحرا مرفقا بقوة عسكرية قدرتها الروايات التاريخية بثلاثة سفن تحمل على متنها 2500 جندي⁽²⁾.

قرر عروج بمجرد استقراره بمدينة الجزائر تحرير قلعة البنيون فاستنفر الجموع وقررها حربا مقدسة ضد الكفار الصليبيين، بعدها بعث برسالة إلى القائد الاسباني بالقلعة يخبره بين أمرين، الاستسلام والجلء النهائي دون قيد أو شرط من القلعة، أو الحرب التي ستكون لسان الحال بين الطرفين⁽³⁾.

رفض قائد القلعة الانسحاب مفضلا الدخول في حرب مع عروج وقواته، هذه الأخيرة بدأت في قذف القلعة بالمدفعية وبعد مناوشات استمرت عشرين يوم لم يتمكن عروج من سحق القوات الاسبانية⁽⁴⁾؛ قرر عندها تأجيل مشروع الفتح إلى حين تتوفر القوة العسكرية والسياسية اللازمة لتحقيق النصر الأكيد.

بعد البحث والتحري تأكد لدى عروج أن هناك مآمرة تحاك ضده، حركها سالم التومي بمساعدة

الأمير الزياني أبي حمو الثالث⁽⁵⁾ وحاكم تنس أبي عبد الله؛ بعد تأكده من المعطيات قرر عرضها على مجلس أعيان ووجهاء المدينة لتقرر في حقه عقوبة الخيانة التي كلفته حياته، إذ تقرر إعدامه وعلقت جثته على بوابة المدينة، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه اجهاض مشروع تحرير المدينة من

¹- كليل صالح- سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني في احتلال المغرب الأوسط- رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير- جامعة العقيد الحاج لخضر- باتنة- 2007م- ص: 91.

²- خير الدين بربوس- المصدر السابق- ص: 134.

³- المصدر نفسه- ص: 134.

⁴- كليل صالح- المرجع السابق- ص: 92.

⁵- أبو حمو الثالث: أحد أمراء بني زيان، حكم خلال الفترة الممتدة من سنة 922هـ/1516م وإلى غاية سنة 923هـ/1517م. ثم استرجع سلطانه على تلمسان سنة 927هـ/1521م. ينظر: عبد العزيز فيلاي- المرجع السابق- ص: 78.

¹- بعد النصر الكبير الذي حققه عروج وقواته في تنس، نظم شؤونها وأصلح الكثير من الأمور فيها، وبينما هو منشغل في مهامه هاته جاءه وفد من تلمسان

الاسبان، هذا من وجهة نظر الجزائريين، أما من وجهة نظر عروج فهي رسالة لكل من يحاول الإطاحة به بعدما تمكن من فرض وجوده وسيطرته على المنطقة.

زاد هذا النصر الكبير من عزيمته عروج الذي قرر أن يواصل مسيرته نحو تحرير وإخضاع ما تبقى من المدن؛ بداية بمدينة تنس وذلك خلال سنة 1517م، فبعد اصطدام عسكري بين الطرفين - العثماني والاسباني - تمكن عروج من تحرير المدينة وطرد الاسبان منها، على أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن سكان المدينة كان لهم دورا كبيرا في تحقيق هذا النجاح، حيث قدموا له الدعم المعنوي والعسكري للتخلص من العدويين، الاسبان وحاكمهم أبي عبد الله. بعد هذا الانجاز الكبير قرر عروج القضاء على السيادة الزيانية التي كانت تمثل السلطة الفعلية الرسمية المنافسة له.

استغل عروج الصراع الدائر بين أبي حمو الثالث وأبي زيان أحمد، وتدخل لصالح هذا الأخير خاصة بعد الاستنجاد به، ومطالبته باسم سكان تلمسان تخليصهم منه⁽¹⁾. استجاب عروج لطلبهم، وجهاز حملة عسكرية بمساعدة إسحاق، وتوجه بها إلى تلمسان في سنة 1517م، وفي طريقه إليها اغتتم فرصة مروره على قلعة بني راشد⁽²⁾ فتمكن من اخضاعها بعد دخوله في مناوشات عسكرية مع الاسبان؛ وترك عليها أحاه إسحاق مدعما بقوة عسكرية ليقوم على تنظيم وتسيير شؤونها وحمايتها من أي ردود فعل عنيفة قد تأتي من الاسبان⁽³⁾، نظرا للخسائر التي سيتكبدها هؤلاء من ضياعهم لقلعة بني راشد.

زحف بعدها عروج مرفقا بقوته نحو تلمسان وكله إصرار على اخضاعها، وتنحية ملكها أبي حمو الثالث، خاصة وأنه تأكد من مساندة وتعاطف سكان المنطقة له؛ أثناءها وصلت معلومات لأبي حمو الثالث مفادها أن عروج على أبواب المدينة، عندها لم يكن أمامه حل سوى الفرار، خاصة وأنه

ضم كبار الشخصيات ليشتكى له الأوضاع المزرية التي آلت إليها المنطقة. ينظر: يحي بوعزيز - الموجز في تاريخ الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 14.

² قلعة بني راشد: يطلق عليها أيضا "هواره"؛ وهي عبارة عن قلعة صغيرة تبعد عن مدينة معسكر بحوالي 25 كلم، وعن مستغانم 55 كلم. ينظر: حنيفي هلايلي - العلاقات الجزائرية ونهاية الايالة (1815-1830) - ط: 1 - دار الهدى - الجزائر - 2007م - ص: 190. وبهذا الموقع فإن قلعة بني راشد كانت بمثابة عنصر تموين للاسبان المتواجدين على مستوى مدينة وهران؛ كما كانت تعتبر مركز حراسة وتهديد دائم على تلمسان عاصمة الزيانيين.

³ يحي بوعزيز - الموجز في تاريخ الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 14.

كان يفتقر لقاعدة شعبية؛ عند وصول عروج استقبال الأبطال، وأول أمر قام به هو اطلاق سراح أبي

زيان وتنصيبه حاكما عاما عليها نيابة عنه⁽¹⁾، على أن المنطقة أصبحت خاضعة لعروج.

ظن عروج أنه بهذا الإنجاز تخلص من خطر الاسبان المحذق بتلمسان، ولكن ظنونه هذه كانت خاطئة وفي غير محلها، ذلك أن الملك المخلوع أبي حمو الثالث اتجه نحو وهران وأقنع القائد الاسباني دي قوماريس "De Gomerz" بطرحه القاضي بأن عروج لن يقتنع باخضاعه لقلعة بني راشد وتلمسان وإنما هدفه الرئيس هو تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير⁽²⁾.

اقتنع القائد الاسباني بالطرح الذي قدمه أبو حمو الثالث، فقرر تجهيز حملة عسكرية ضخمة قدرت الروايات التاريخية تعدادها بحوالي عشرة آلاف جندي مدعمة بألفين من رجال أبي حمو الثالث⁽³⁾، لاعادة احتلال قلعة بني راشد وإخضاع تلمسان من جديد.

اتجهت الحملة إلى قلعة بني راشد تحت قيادة مارتان دارقوت "Martin Dargote"؛ أين تواجد الأخوين عروج واسحاق، أطبقت القوات الاسبانية حصارا على القلعة، فحاول عروج طلب الدعم من سلطان المغرب، ولكنه تقاعس عن تقديم المؤونة، أمام عدم تكافؤ القوتين، ونفاذ المؤونة قرر عروج مرفقا باسحاق ورجاله الانسحاب ليلا في اتجاه بني يزناسن، غير أن الاسبان تفتنوا بخروجهما، فلاحقوهم، ودارت بين طرفين معركة كانت نتيجتها استشهاد كل من عروج واسحاق وأسر ما تبقى من جنده⁽⁴⁾.

كل هذه الأحداث وقعت خلال سنة 1518م. بعدما تمكن الاسبان من اخضاع كل من قلعة بني راشد وتلمسان، قرروا إعادة أبي حمو الثالث إلى كرسي العرش أمام سحق كبير من السكان؛

¹ -كليل صالح- المرجع السابق- ص:99.

² -عبد الحميد أبي زياد بن أشنهو- دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر- د ط- 2 شارع نورمندي- الجزائر- د س ط- ص:76.

³ -كليل صالح- المرجع السابق- ص:101.

⁴ -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، (المرجع السابق). ص:15.

بالمقابل فرضوا على هذا السلطان دفع ضريبة سنوية للعرش الاسباني قدرت بـ 12000 وحدة ذهبية، وإثني عشر من أجود الخيول، وستة نسور صيد⁽¹⁾.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج لعل من أهمها:

✓ كانت منطقة الشرق السبّاقة للاستنّاج بالآخوة بربروس الذين مثلوا الخلافة العثمانية على مستوى

حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا راجع إلى قرب المسافة بين بجاية ومكان تواجدهم تونس، وأيضا ليأسهم من أي تدخل قد يأتي من السلطة الزيانية.

✓ سارت كل الظروف السائدة في الجزائر خلال الفترة قيد الدراسة لصالح العثمانيين، خاصة وأنا ندرك يقينا بأنه كانت لهم أطماع في البلاد.

✓ تمكن الآخوة بربروس بقيادة عروج من احكام سيطرتهم على رقعة جغرافية مهمة في مدة وجيزة مما انعكس ايجابا على عثمانة الجزائر.

✓ يشكل استشهاد كل من عروج واسحاق في موقعة بني راشد ضربة موجة لخير الدين والعثمانيين على حد سواء، ذلك أن هذه الحادثة ستحدث أزمة حقيقية ولا بد من البحث عن حلول استعجالية وذكية لمنع اجهاض مشروع عثمانة الجزائر.

(2) - الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية (1518-1520م): أمام المستجدات الخطيرة التي

طرأت على الساحة السياسية وجد خير الدين نفسه وحيدا يصارع عدوين، أحدهما داخلي يتمثل في بعض الأطراف التي كانت تتربص به للإطاحة به؛ وعدو خارجي، المتمثل في الاسبان هؤلاء كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة للانتقام لكل الضربات الموجعة التي تكبدوها على أيدي الآخوة بربروس. وهذا ما حصل بالفعل فقد بدأت المآمرات تحاك ضد خير الدين الذي كان يعاني من انكسار معنوي وسياسي وعسكري، بالمقابل قررت السلطات الاسبانية أن تضرب الحديد وهو ساخن، فقررت تجهيز

5-Berbugger- La mort du fondateur de la régence d'Alger- R. A- N° : 4, 1859, 1860-P : 25.

حملة عسكرية للقضاء على خير الدين، واحتلال مدينة الجزائر تأديبا لشعبها الذي تمرد عليها، وساند العثمانيون معنويا وعسكريا وسياسيا.

استغلت اسبانيا الظروف العصبية التي كانت تمر بها البلاد والانكسار الذي كان يعاني منه خير الدين لتوجه ضربتها نحو مدينة الجزائر، محاولة في ذلك استرجاع نفوذها هذا من جهة، والقضاء على السيطرة العثمانية من جهة أخرى. فقررت توجيه حملة عسكرية بهدف احتلالها.

ضمت الحملة أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف جندي، تحت قيادة نائب الملك الصقليين كودي منكاد، واشترك معه في القيادة القائد الإسباني كونز الفومارينو دي ريبيرا. أبحر الأسطول

من جزيرة صقلية أواخر شهر جويلية وأرسى في المرسى الكبير أين تزود بالجند والمدد، ثم اتجه نحو بجاية فأخذ منها أيضا جيشا كبيرا ثم غادرها باتجاه مدينة الجزائر معتقدا بأن كل هذه القوات سوف تحقق له النصر الكبير، ووصل هناك في يوم 18 أوت من سنة 1519م، وبعد معركة دارت بين الجيشين تمكن القائد المجاهد خير الدين بمساعدة الجزائريين من تحقيق النصر الأكيد على العدو الإسباني⁽¹⁾.

كان هذا الانتصار الكبير بمثابة ضربة موجعة لكل من تأمر على خير الدين، كما قضى على كل الاشاعات التي انتشرت، ومفاذاها أن باستشهاد عروج واسحاق وانهزام العثمانيين في قلعة بني راشد سوف يتمكن الاسبان من القضاء على خير الدين بسهولة، ولكن ما حصل أخلط كل الأوراق على الاسبان والمتربصين بخير الدين معا.

بعد هذا الانتصار الكبير دعا خير الدين علماء الجزائر وأعيانها إلى اجتماع عام، وذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكنهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه، ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكون قد انتهت، وعليهم أن يختاروا واحدا منهم يجعلوه أميرا عليهم، أما هو فقد قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر. فناشده العلماء نيابة عن الرعية بأنه يقتضي عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها وحمايتها.

¹ مؤلف مجهول، -كتاب غزوات عروج وخير الدين- مخطوط رقم: 1622- المكتبة الوطنية (الحامة)- الجزائر- ورقة: 36، 37.

عندها أشار عليهم خير الدين بأن يرسلوا السلطان العثماني بذلك، فاستحسن أعيان الجزائر ذلك، وكتبوا رسالة باسمهم إلى السلطان، كما كتب خير الدين كتابا مماثلا. وقرروا ارسال وفد يتزعمه أبو العباس أحمد ابن القاضي سنة 1519م ليحمل الرسالة إلى السلطان سليمان القانوني، يعرضون من خلالها قبول الحاق الجزائر كولاية عثمانية، وتعيين خير الدين حاكما عاما عليها نيابة عنه⁽¹⁾.

ترجم قبول السلطان العثماني سليمان القانوني لطلب الجزائريين بارسال فرمان يقضي بتعيين خير الدين باي لارباي⁽²⁾ على الجزائر وتدعيمه بقوة عسكرية بحرية وبرية، فأرسل له أول دفعة من الجيش الانكشاري⁽³⁾ تمثل في ألفي جندي انكشاري وعتاد ودخيرة حربية وعدد من السفن الحربية⁽⁴⁾، واعتبار الجزائر ايالة عثمانية منذ سنة 1520م متخذة من مدينة الجزائر مركزا لحكمه والتي اعتبرت كذلك منذ سنة 1516م⁽⁵⁾ ولكن بشكل غير رسمي فيما اتخذت الصبغة الرسمية سنة 1520م التاريخ الرسمي لالتحاق الجزائر بالخلافة العثمانية. ومنذ هذا التاريخ وإلى غاية سنة 1830م تاريخ سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي بقيت مدينة الجزائر تمثل مركز الحكم للبلاد.

3- عهد الباي لارباي: (1520_1587م): عرفت الجزائر مند التحاقها بالخلافة العثمانية

كولاية تابعة لها عدة تطورات ومستجدات مست كل النواحي، السياسية والعسكرية، الاجتماعية والاقتصادية؛ هذه التطورات كانت لها صدى على الصعيد الداخلي والخارجي، فالجزائر الأمس لم تعد مثل ما أصبحت عليه بعد الالتحاق. وبهذا يمكننا القول بأن البلاد خرجت من حقبة سوداء كلها ضعف وهوان مس كل الميادين، لتدخل عهدا جديدا تأرجح بين القوة أحيانا والضعف أحيانا

²- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: خير الدين بربوس- المصدر السابق.

²- باي لارباي: تعني.. ينظر:

A.Bellegrin_ Essai sur les nems et les les lieux d'Algérie et de Tunisie_ Etymologie édition_ Tunis _S. A. P. I_ 1940_ P : 204

³- الانكشارية: كلمة عربية حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمتها "يني تشاري" وتكتب بالتركية "يكيجيري" وهي مكونة من قسمين "يكي" "yeni" ويعني "جديد" و"جري" "cery" بمعنى "العسكر". ينظر: أماني بنت جعفر بن صالح المغازي- دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية- ط:1- دار القاهرة- القاهرة- 2007م- ص ص: 21، 22.

⁴- محمد صالح بن العنتري- فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة و استيلاءهم على أوطانها- مر، تع:بجي بوعزيز- د ط- دار هومة- الجزائر- 2005م - ص: 77.

³- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: أحمد توفيق المدني. المرجع السابق.

أخرى. ومن بين الفترات التي عرفت فيها الجزائر قوة وازدهارا كبيرين فترة الباي لارباي، هذه الأخيرة أجمعت كل المصادر والمراجع التي عالجت تاريخ الجزائر الحديث أنها من أحسن فترات الحكم العثماني على كل المستويات.

3-1) مميزات هذا العهد: تميزت هذه الحقبة بخصائص أدخلتها ضمن خانة الاستثناء، ذلك أنها اعتبرت بمثابة عهد أخرج الجزائر من دائرة البلدان الضعيفة التي لا تستطيع رد الأخطار عنها، إلى بلد أصبح يضرب له ألف حساب قبل الدخول معه في أي صراع لا تحمد نتائجه، هذا على الصعيد الخارجي الذي وإن استقر حاله فسوف ينعكس ذلك على الوضع الداخلي الذي عرف تغييرات جذرية مست كل النواحي.

فعلى الصعيد السياسي والاداري عرفت الجزائر تطورات كثيرة في الصعيدين السياسي والإداري،

ذلك أن هذين القطاعين لم يكن يمكن الفصل بينهما في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر؛ ذلك أن نموذج الحكم العثماني في الجزائر أثر بشكل مباشر على التداخل الذي ساد مختلف المؤسسات.

فبعدها كانت الجزائر تعيش نظام حكم ملكي جسده المملكة الزيانية التي اتخذت من تلمسان عاصمة لحكمها، بالتوازي مع نظام قبلي تبلور في شكل كيانات سياسية أكثر ما يمكن أن نصفها بأنها كانت عبارة عن تجمعات بشرية في حيز جغرافي محدد، يحكمها مجلسا يتكون من كبار شيوخها وشخصياتها، لتختار منهم واحدا يكون زعيما عليها، لتصبح دولة لها نظام حكم موحد حاول قدر الامكان أن لا يتناقض أو على الأقل أن يحترم مقومات وخصائص الشعب الجزائري.

لهذا عرفت الجزائر خلال هذه الفترة وفي فترات لاحقة نظام حكم يشبه إلى حد كبير ما يعرف حاليا بـ"النظام الجمهوري"، الذي يعتمد أساسا على التداول على السلطة، كما يستند في شرعيته على مؤسسات تشريعية وتنفيذية. ولنا الآن وقفة مع أهم المؤسسات السياسية التي كانت تعمل على توفير الأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي.

فلقد تمكنت السلطة العثمانية بالاستعانة بمجموعة من المؤسسات من تسيير شؤون البلاد، ومن بين هذه المؤسسات نذكر الديوانيين⁽¹⁾: الديوان العام أو ما يطلق عليه بـ "الديوان الكبير" والديوان الخاص أو "الصغير"⁽²⁾؛ واعتبر الديوان من المؤسسات السياسية، وهو بنية مقتبسة من النظام الإداري المتبع في السلطنة العثمانية، كان يمثل حينها عنصر تجديد وتطوير أدخله السلاطين العثمانيون على السياسة العامة للخلافة⁽³⁾.

ضم الديوان العام أو الكبير كبار جنود الانكشارية⁽⁴⁾، وممثلين عن رياس البحر، بالإضافة إلى المفتين _ المالكي والحنفي _ والقضاة والأعيان. كان يجتمع هذا الديوان كل اثنين، الأربعاء وخميس. وقد كان للديوان العام تأثيرا كبيرا على الحياة العامة بحيث لم يكن يسلم مقاليد السلطة إلا لمن قدمه. كما كان يعود له الفضل إلى عدم ظهور الحكم الوراثي في الجزائر⁽⁵⁾. أيضا لعب دورا هاما أثناء الأزمات الداخلية⁽⁶⁾، ووضع حدا للفوضى والاضطرابات الذين شهدتهما البلاد بعد اغتيال مصطفى باشا⁽⁷⁾، مما أدى إلى تعاقب ثلاثة دايات على السلطة في ظرف ثلاث سنوات⁽⁸⁾.

وقبل أن نتطرق إلى أهم الشخصيات التي تكون منها الديوانان، وكذا التنظيم الإداري على مستوى المدن والأوطان يجب أن نشير إلى تلك التقسيمات الجغرافية التي وضعتها السلطة العثمانية

¹ - ورد هذا المصطلح في مختلف التقارير التي وفرتها مجموعة الملفات العثمانية على سبيل المثال نذكر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - التقرير رقم: 6 و 18 في الترتيب العام للملف - المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات - الجزائر.

² - أحمد توفيق المدني - عثمان باشا داي الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 182.

³ - جمال قنان - معاهدات الجزائر مع فرنسا 1816-1830 - د ط - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1997م - ص: 247.

4 - Pierre Boyer - Les pachas triennaux à la revolution d'Ali Khoja (1571_1817) - R H- N: 495- (99/124) - P. U. F- 1970- P: 104.

¹ - ذكر المؤرخ الألماني "سيمون يفاير" أن: "حكام الجزائر لم يكونوا ملوكا وراثين بل كانوا رؤساء جمهورية عسكرية". ينظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي - تاريخ الجزائر العام - ج: 3 - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - د س ط - ص: 608.

² - يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أنه كانت هناك فترات لعب فيها الديوان دورا سلبيا، ولم يكن بحجم المشاكل والظروف الصعبة التي مرت بها البلاد خاصة في فترة الأغوات.

³ - مصطفى باشا: تولى الحكم سنة 1212هـ/1796م؛ وتوفي مقتولا. ينظر: حمدان بن عثمان حوجة - المرآة - تق وتغ: محمد العربي الزيري - ط: 2 - المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1982م - ص: 71.

⁴ - حكم الجزائر ثلاثة دايات في فترة الممتدة ما بين 1221_1228هـ/1806_1813)، وكل واحد منهم كان يسمى عليا. ينظر: جمال قنان - المرجع السابق - ص: 247.

لتمكينها من السيطرة على زمام الأمور خاصة وأن الجزائر عرفت باتساع مساحتها الجغرافية. تمثلت هذه التقسيمات⁽¹⁾ في دار السلطان⁽²⁾ وثلاث بياليك⁽³⁾.

3-2) التقسيم الجغرافي للجزائر بعد التحاقها بالخلافة العثمانية: بعد الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وضعت هذه الأخيرة تقسيمات جغرافية لتمكينها من السيطرة على زمام الأمور خاصة وأن الجزائر عرفت باتساع مساحتها. تمثلت هذه التقسيمات في دار السلطان وثلاث بياليك.

أ- دار السلطان: مركزه مدينة الجزائر⁽⁴⁾ التي اتخذها عروج عاصمة للوسط الجزائري بعد التقسيم

الإداري الأول سنة 1516م، ثم أصبحت عاصمة لكل البلاد بعدما عين خير الدين باي لارباي على الجزائر سنة 1520م. وقد قسمت دار السلطان إلى مجموعة من الأوطان، يخضع كل وطن منها إلى

سلطة القائد. وهذه الأوطان هي كالتالي: وطن سبوا⁽⁵⁾، وبنو مسوس⁽⁶⁾، وبنو خليل⁽⁷⁾، والسبتة⁽¹⁾. والسبتة⁽¹⁾.

⁵ - للاطلاع على خريطة توضح المعالم الجغرافية لهذه الأقاليم ينظر الملحق رقم: 5 .

⁶ - دار السلطان: ورد تسميتها في الوثائق العثمانية بـ "محروسة الجزائر" أو "باب الجهاد". ينظر: ملفات الوثائق العثمانية - رقم الملف: 3205- المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات - الجزائر.

⁷ - بياليك: مفرد "بايلك". مصطلح تركي أطلقته الإدارة العثمانية على الأطار الجغرافي التابع لسلطتها. ينظر: مصطفى أحمد بن حموش - فقه العمران الإسلامي للأرشييف العثماني الجزائري (956هـ، 1246هـ) م. 1549م. د ط - دار البحوث والدراسات الإسلامية للنشر - دبي - د س ن - ص 268.

⁸ - للاطلاع على المعالم العمرانية والجغرافية لمدينة الجزائر على العهد العثماني ينظر الملحق رقم: 6.

¹ - سبوا: كلمة تطلق على منطقة ببلاد القبائل، تقع على ضفاف الوادي مسمى بهذا الاسم، وهو ينبع من جبال جرجرة. ينظر: أحمد بن مبارك بن العطار - تاريخ حاضرة قسنطينة - تح: رابح بونار - د ط - د مط - د س ط - ص: 71.

² - وطن بني مسوس: المنسوب إلى القبيلة المحصورة بين وطن الخشنة في الشرق والحراش في الغرب. ينظر: أبو القاسم سعد الله - محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال - ج: 2 - ط: 3 - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1982م - ص: 29.

³ - وطن بني خليل: ضم هذا الوطن أواخر العهد العثماني أربعة عشر حيا، من أهمها نذكر: أولاد فايت، معاملة، بن شاوي، وبنو كينة، وسيدي موسى. وبنو خليل فخذ من فخذ قبيلة لطيف العربية، وسمي بذلك نسبة إليهم. ينظر: أحمد توفيق المدني، - كتاب الجزائر - د ط - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1984م - ص: 126.

(ب)-بايلك تيطري: تأسس سنة 1540م. كانت عاصمته مدينة المدية. وهو أول بايلك بعد دار السلطان⁽²⁾. اتصف بضيق مساحته مقارنة ببايلك الشرق والغرب، كما عرف بضعف اقتصاده نتيجة افتقاره لموارد وثروات طبيعية، ذلك أن جل مساحته هي مناطق داخلية.

(ج)-بايلك الشرق: عرف بـ "قسطنطينة"⁽³⁾، فقد كانت هذه الأخيرة تعبر في تلك الحقبة التاريخية على بايلك الشرق. ولقد تداول على حكم المنطقة عدة دول إلى أن جاء العثمانيون ودخلت تحت سلطتهم مثلها مثل بقية المناطق الجزائرية الأخرى.

تضاربت الروايات التاريخية حول التاريخ الحقيقي لالتحاق المنطقة بالسلطة العثمانية. فهناك من المؤرخين من ربطه بالسنة التي اخضع خلالها خير الدين مدينة القل لسلطته وكان ذلك سنة 1519م⁽⁴⁾. أما البعض الآخر فأرجعه إلى الحملة التي شنّها قارة حسن على قسنطينة، إذ فرض خلالها على السكان الاعتراف بتبعيةهم لخير الدين الممثل الشرعي للسلطة العثمانية في الجزائر؛ وقد تم له ذلك خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1519م وسنة 1522م⁽⁵⁾. ولقد اكتسب البايك مكانة خاصة نتيجة غناه بالثروات الطبيعية واتساع رقعته الجغرافية التي امتدت من البحر شمالا إلى ما وراء ونوغة⁽⁶⁾، وبرج حمزة⁽¹⁰⁾

وسفوح جبال جرجرة غربا.

⁴- وطن السبتة: امتد هذا الوطن من على طول البحر من القليعة إلى تيبازة. ينظر: أبو القاسم سعد الله- المرجع السابق- ص: 29.
⁵- محمد بن ميمون الجزائري- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية محمد بن عبد الكريم- ط: 2- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1985م- ص: 36.

³- ينظر الرسالة رقم: 5-6-20 من ملفات الوثائق العثمانية- رقم الملف: 1642 - المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات- الجزائر. وللاطلاع على خريطة تمثل المعالم الجغرافية للمدينة ينظر الملحق رقم: 7

7-- M . Léon Galibert- L'Algérie ancienne et moderne, Parie: Furne et C libraire- éditeur- P :

8_ ناصر الدين سعيدوني- ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثماني)- ط1- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1999م- ص: 11.

⁹- ونوغة: منطقة في أول ابتداء قسنطينة. ينظر: محمد صالح بن العتري- المصدر السابق- ص: 90.

¹⁰- برج حمزة: وهي منطقة بوية حاليا. كان يمثل حصنا استعمله العثمانيون لحراسة المنطقة، تكون من نوبة واحدة. ينظر:

Loius Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier day- Typographie Adolphe- Jourdon imprimerie_ libraire_ éditeur- 1999- P : 87.

هـ)-بايلك الغرب: أسس سنة 1563م⁽¹⁾، تمتد رقعته الجغرافية من وادي ملوية غربا إلى دار سلطان وبايلك التيطري شرقا ومن سواحل البحر الأبيض شمالا إلى الصحراء جنوبا⁽²⁾. كانت عاصمته في بداية الأمر مدينة مازونة⁽³⁾، وبقيت كذلك إلى أن استبدلت بمدينة معسكر⁽⁴⁾، التي اتخذتها السلطة العثمانية على مستوى البايك كنقطة انطلاق لتحرير وهران⁽⁵⁾، هذه الأخيرة أصبحت أصبحت عاصمة البايك نهائيا بعد تحريرها من الاسبان سنة 1792م.

يعتبر بايلك الغرب ثاني أكبر بايلك بعد بايلك الشرق. وما عرف على هذه المنطقة أنها كانت ذات طابع حربي، وذلك لما شهدته من توتر العلاقات العثمانية مع حكام المغرب الأقصى هذا من جهة، والتهديد الاسباني الدائم لها من جهة أخرى.

هذا فيما يخص التقسيمات الجغرافية التي وضعها ممثلوا الخلافة العثمانية في تسيير شؤون البلاد، والملاحظ عنها كما ذكرنا سابقا أن هذه التقسيمات بقيت سارية المفعول إلى غاية سنة سقوط مدينة الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

3-3) المؤسسات الادارية: قبل أن نواصل في التعريف ببقية المؤسسات التي اعتمدت عليها السلطة العثمانية في تسيير شؤون البلاد لا بد لنا من نعرج على أهم الشخصيات التي تكون منها الديوان الخاص والعام والتي سلمت لها مهمة ارساء القانون والنظام في شتى أنحاء البلاد. أما الديوان الخاص أو الصغير فقد ضم مجموعة من الموظفين يمكن تشبيهم بـ "الوزراء" حاليا، عددهم خمسة. من بين أهم الشخصيات التي ضمها الديوان الخاص نذكر:

1-Aramburu J- Oran et l'ouest algérien au 18^{ème} siècle- Présentation et traduction : korso et Epalza- B-N- Alger- 1978- P: 9.

²-ترجع بعض الروايات التاريخية أن حسن بن خير الدين باشا كان أول من وضع الأسس الأولى للإدارة العثمانية ببايلك الغرب، وتم له ذلك قبل عودته من حصار وهران متجها إلى مدينة الجزائر سنة 968 هـ/1563م. ينظر:

Esterhazy Walisn- Domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger- Paris-1840 -P :165

³-مازونة: تقع بمنطقة جبال الظهرة وتشرف على مجموعة من السهول الخصبة، هذا الموقع هو الذي مكنتها من أن تكون عاصمة للبايلك.

⁴-معسكر: تتوسط هذه المدينة فحوصا وأحوازا هامة مما مكنتها من التحكم في المسالك التجارية التي تربطها بمختلف حواضر البايك كما تحيط بها سهولا

من أحصب سهول الجزائر؛ هذا بالإضافة إلى قربها من مدينة وهران التي كانت تسعى السلطات العثمانية جاهدة لاستردادها من الاسبان.

5_Gabriel Esquer- La prise d'Alger (1830)- Librairie ancienne H Champion- Edouard- Parie- 1923- P : 9.

- ✓ _ الخزناجي⁽¹⁾: كان بمثابة وزير المالية حالياً، اعتبر الرجل الثاني بعد الحاكم الأعلى في البلاد أثناء
- غياب أو مرضه⁽²⁾. كان بيده كل تقارير وحسابات الدولة⁽³⁾.
- ✓ _ وكيل الخرج: ورد تسميته في ملفات الوثائق العثمانية بـ "وكيل باب الجهاد"⁽⁴⁾؛ وهو الناظر على أعمال جهاد البحر، والمقتصد بين الجزائريين وممثلي دول وممالك أوروبا⁽⁵⁾.
- ✓ _ بيت المالجي: كان المسؤول على جميع الأملاك التي كانت تؤول إلى خزينة الايالة بالمصادرة أو عند وفاة أصحابها الذين لا ورثة لهم.
- ✓ _ خوجة الخيل: بمثابة وزير الحرب والناظر على أملاك الايالة
- ✓ _ الآغا⁽⁶⁾: يعتبر لقب تشريفي؛ وهي رتبة تأتي بعد لقب بولكباشي⁽⁷⁾. كلفت هذه الشخصية الشخصية بالسهر على تأمين مخازن الايالة التي كانت تحتوي الأقوات والمؤن وغيرها من المواد الضرورية⁽⁸⁾.

⁶- ينظر على سبيل المثال ملف الوثائق العثمانية رقم 3205- المصدر السابق.

¹- Shaw- Voyage dans la régence d'Alger- Traduit de l'anglais avec nombreuses argumentation des notes géographique et autres- Par: J. Caly Mac, Cathy Martin- 1831- P: 168.

²- ينظر كل من: ملف الوثائق العثمانية، رقم: 1642- المصدر السابق.

3- Engéne Plautet, Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579_1833, T : 2, Tunis : Edition Bouslama, 1889. P : 18.

4-Claude Bontems-Les institutions Algériennes sous la domination Turque- P : 18.

⁵- الآغا: كان يلقب أيضا بالزبوج، التي تعني باللغة العربية القائد العام. ينظر:

A.Bellegrin,Essai sur les nems et les les lieux d'Algérie et de Tunisie, Tunis : Etymologie édition, S. A. P. I, 1949. P : 204.

وقد ورد هذا اللقب في الكثير من المواقع في ملفات الوثائق العثمانية على سبيل المثال نذكر الرسالة رقم: 22 في الترتيب العام للملف رقم 1642 المصدر السابق. وآغا الانكشارية لقب تشريفي يأتي بعد لقب بولكباشي ويعني القائد العام للفرقة الانكشارية، وبهذا يعتبر الآغا المسؤول الأول على الشؤون العسكرية والأمنية. ينظر: أحمد بن مبارك بن العطار- المرجع السابق- ص: 54.

⁶- بولكباشي: ورد هذا القب في ملفات الوثائق العثمانية. ينظر في ذلك على سبيل المثال الرسالة رقم: 18 في الترتيب العام للملف رقم 1642- المصدر السابق. وهي مرتبة عسكرية بمثابة رئيس كتيبة. ينظر: بن ميمون الجزائري- المصدر السابق- ص: 38.

7-Auteur inconnue- Histoire des états Barbaresques par un auteur qui a résidé plusieurs années avec caractère public, Traduit de l'anglais- T : 1- Chez Chaubert Quai, des Augustins Hérissant imprimerie- P : 342.

✓ **الكتاب الأربعة:** الأول يدعى المكتباجي. في حين لقب الثاني بـ وكيل الخرج الكبير، ثم الكاتب الثالث، فالكاتب العام⁽¹⁾.

أما عن الشخصيات التي تكون منها الديوان العام فيمكننا حصرها في كل من العلماء⁽²⁾ والمفتيين والقضاة⁽³⁾ ونقيب الأشراف⁽⁴⁾.

إلى جانب هذا المجلس الذي كان ينظر في مصالح الرعية يضاف المشاركة الفعالة والمهمة لمجلس رياس البحر، الذي كان له نفوذا كبيرا ودورا مهما في اتخاذ القرارات، خاصة تلك التي تعلق بتعيين حكام الجزائر⁽⁵⁾. ضف إلى ذلك كبار قادة الجيش الانكشاري.

بالإضافة إلى هاتين المؤسستين استعان الحاكم الأعلى للولاية الجزائرية بأجهزة إدارية مكنته من فرض سلطة الدولة على مستوى البياليك نذكر منهم:

✓ **البايات:** كان لكل باي⁽⁶⁾ ديوان محلي يساعده في تسيير شؤون المنطقة التي كان مكلفا بإدارتها. فلقد عجزت السلطة العثمانية على وضع جميع القطر الجزائري تحت إدارة حاكم واحد؛ لذلك جعلت تسيير شؤون هذه البياليك بواسطة السلطة المركزية ممثلة في شخص الباي، يساعده في ذلك مجموعة من الموظفين، وقد وزع العمل الإداري والأمني على مستويين: المدن والأوطان

8_ Pierre Boyer L'évaluation de l'Algérie médiane, ancien département d'Alger de 1830 a 1956- Libraire d'Amérique et d'ocient- Andien Maisonneuve- Parie- 1960- P : 35.

⁹ _ من بين العلماء الذين اشتهروا بعلمهم نذكر حمودة المقاسي الجزائري (1245هـ/1829م)، وهو من أفاض علماء الجزائر، ارتحل إلى مصر أين لازم العلامة محمد الدسوقي صاحب الحاشية، وأخذ عنه العلوم النقلية حتى أجازته وشهد له بالتفوق والنبوغ. عند رجوعه إلى الجزائر مر بتونس ودرس بها. ينظر: أحمد توفيق المدني - عثمان باشا داي الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 72.

² _ من بين المفتيين الذين مارسوا هذه الوظيفة نذكر: محمد بن محمود العنابي الذي ولد سنة 1180هـ/1775م، توفي بالاسكندرية عام 1267هـ/1851م. ينظر: عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحديث - ط:3- مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت، لبنان - 1403هـ/1983م - ص: 245.

¹ _ من بين قضاة المذهب الحنفي نذكر: محمد بن عبد الرحمن، والحاج أحمد بن الحاج عمر. أما على المذهب المالكي فنذكر على سبيل المثال لا الحصر الحاج علي بن عبد القادر، وأحمد بن علي بن جعدون. ينظر: أحمد توفيق المدني - عثمان باشا داي الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 74.

² _ من بين الذين تلقبوا بهذا اللقب وكانت لهم مكانة سياسية واجتماعية نذكر أحمد الشريف الزهار. ينظر: الشريف الزهار - مذكرات الحاج الشريف الزهار - تح: أحمد توفيق المدني - د ط - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر - 1980م.

³ - أحمد سليمان - تاريخ مدينة الجزائر - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - د س ط - ص: 39.

⁴ - كذلك وردت تسميته في ملفات الوثائق العثمانية، على سبيل المثال نذكر ملف الوثائق العثمانية رقم: 1641 - المصدر السابق.

أ) _الادارة على مستوى المدن: وضعت السلطة العثمانية مجموعة من المؤسسات الادارية والاقتصادية على مستوى المدن لتسيير شؤون الرعية، وضمانا لاحترام القانون والنظام العام. ومن بين أهم هذه المؤسسات نذكر:

✓ **ديوان الأوجاق:** تألف من كبار الشخصيات المحيطة بالباي. كانوا على اتصال دائم به، يشاركونه

في اتخاذ القرارات المصيرية، ويساعدونه في تسيير شؤون البايلك⁽¹⁾.

✓ **الخليفة:** يعتبر هذا المنصب من بين الوظائف المهمة في ادارة شؤون البايلك؛ وقد حظيت هذه الشخصية بالاعتبار نفسه الذي حظي به الباي في جولاته الخارجية. كما كان المسؤول على تسيير شؤون الأوطان، خضع له كل القياد والمحلات العسكرية⁽²⁾. وقد كان للخليفة نائبا له يلقب بـ "الخليفة الثاني" أو "خليفة الكرسي"⁽³⁾.

✓ **الباش حامبا:** كان مسؤولا على الادارة والديوان⁽⁴⁾.

✓ **قايد الدار⁽⁵⁾:** وهو آغا متقاعد، كان بمثابة "شيخ البلدية" بمصطلح العصر. من بين مهامه المتعددة تولي ادارة مركز البايلك⁽⁶⁾؛ وعادة ما كانت تسند هذه المهمة للرجال الذين أظهرُوا اخلاصهم وسعيهم الدائم لتحقيق مصالح السلطة⁽⁷⁾. كان يخضع لسلطة آغا الدار مجموعة من العمال نذكر من بينهم: أمين الخبازين، والبراح الذي كان يجول ساحات المدينة وأسواقها لابلاغ الرعية بأوامر الباي والخليفة وقايد الدار⁽⁸⁾.

⁵ - ينظر الرسالة رقم: 6 في الترتيب العام للملف رقم 1642 - المصدر السابق.

¹ - ينظر كل من الرسالة رقم: 4، 7 - المصدر نفسه

² - الزباني - المصدر السابق - ص: 190.

3- Abdel Jelil Temimi, Le beylec de Contantine et Ahmed bey 1830-1837-V: 1- Publication de la revue d'histoire Maghrébine- 1987- P: 67.

⁴ - صالح فركوس - الحاج أحمد باي قسنطينة (1826-1830) - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - د س ن - ص: 51.

⁵ - هكذا وردت تسميته في ملفات الوثائق العثمانية مثال ذلك ينظر الملف رقم 1642، الرسالة رقم: 5 في الترتيب العام للمجموعة - المصدر السابق.

⁶ - ناصر الدين سعيدوني - وراقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 2003م - ص: 150.

⁷ - المرجع نفسه - ص: 483.

✓ الباش كاتب أو الكاتب العام: كلف بتحرير رسائل الباي وختمها⁽¹⁾، وكل ما اتصل بالشؤون السياسية للبايلك⁽²⁾؛ كما كان يستقبل الرسائل الواردة على الباي، ويحرر رسائل الموظفين العاملين على مستوى البايك⁽³⁾. كما تولى تحرير الجلسات المتصلة بالمراسلات العامة بين الباي، والخلفاء والقادة⁽⁴⁾.

✓ الباش السيار: كان مسؤولاً على قافلة البريد⁽⁵⁾، فكان يحمل بنفسه رسائل الباي إلى الحاكم الأعلى بدار السلطان، ويعود بالردود إليه⁽⁶⁾.

✓ شيخ المدينة ونقيب الأشراف: بالإضافة إلى كل ما ذكر أعلاه من موظفين كان هناك أيضاً حاکمان ينظمان شؤون السكان، ويحافظان على الأمن والاستقرار⁽⁷⁾. أما الشخصية الأولى فكانت تلقب بـ "شيخ البلد" أو "رئيس الأمناء". في حين أطلق على الشخصية الثانية لقب "نقيب الأشراف"، هذا الأخير كان يتم اختياره من بين العائلات المعروفة على مستوى البايك، إما لنفوذها السياسي أو الاقتصادي، أو لنسبها وشرفها _ تكون من العائلات المرابطة_. كانت تعيينه السلطة على مستوى البايك على مدى الحياة. ومن بين مهامه المشاركة في حل مشاكل الرعية ودعم ممثلي السلطة عند وجود خطر أجنبي. هذا بالنسبة للموظفين السامين الذين كانوا يعملون بالتنسيق فيما بينهم لإدارة شؤون المدن، كما كان هناك مجموعة من العمال هؤلاء عملوا في قصر الباي، نذكر منهم:

⁸- صالح العنتري- المصدر السابق- ص: 21.

⁹- ينظر الرسالة رقم: 11 و 23 في الترتيب العام لملف الوثائق العثمانية رقم: 1642- المصدر السابق.

¹⁰- ينظر الرسالة رقم: 25 من المصدر نفسه.

¹¹- ينظر كل من الرسالة رقم: 6 و 7 من الملف رقم: 1642- المصدر نفسه.

¹²- ينظر الرسالة رقم: 3 من المصدر نفسه.

¹³- صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص: 20.

¹- Abdel Jelil Temimi, Op. Cit. P: 51.

- ✓ **باش سراج:** كان كبير السياس. كلف بخدمة الاسطبلات وتجهيز حصان الباي الشخصي عندما كان يعتزم هذا الأخير امتطاءه⁽¹⁾.
- ✓ **قائد المقصورة:** كان بمثابة المقتصد في قصر الباي⁽²⁾.
- ✓ **قائد الجبيرة:** كلف بجبيرة⁽³⁾ الباي وتزويدها بالأموال اللازمة.
- ✓ **قائد السبسي:** كلفت هذه الشخصية بحمل غيلون الباي⁽⁴⁾.
- ✓ **باش القهواجي:** تمثلت مهمته في تحضي القهوة الخاصة بالباي⁽⁵⁾.
- ✓ **قائد السيوانية:** تمثلت مهمته في حمل مظلة الباي عند المطر أو في الحر الشديد⁽⁶⁾.
- ✓ **قائد الدريية:** وهو البواب الأول في قصر الباي⁽⁷⁾.
- ✓ **باش فراش:** كان المسؤول على كل الأفرشة الخاصة بقصر الباي⁽⁸⁾.

(ب)- الإدارة على مستوى الأوطان: اختلفت المصادر والمراجع في تسمية العنصر الأول والأساسي الذي كان يتكون منه الأوطان في تلك الحقبة التاريخية، فمرات أطلقوا عليه مصطلح "المشيخة". ومرات أخرى سموه بـ "النجوع"⁽⁹⁾. في حين عمدت بعض المراجع الأخرى على تسميته

²- ناصر الدين سعيدوني- دراسات وأبحاث، (المرجع السابق)- ص: 320.

³- صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص: 22.

⁴- الجبيرة: هي المحفظة التي كانت تعلق في مقدمة سرج الحصان الخاص بالباي. ينظر: ناصر الدين سعيدوني- المرجع السابق- ص: 320.

⁵- صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص: 23.

⁶- فندلين شلوصر- قسنطينة أيام أحمد باي- تر وتق: أبو العيد دودو- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- د س ط- ص: 30.

⁷- ناصر الدين سعيدوني- أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 320.

⁸- صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص: 22.

⁹- المصدر نفسه- ص: 23.

¹- حمدان خوجة- المصدر السابق- ص: 99.

"القيادة"⁽¹⁾. ويتكون هذا العنصر الإداري من دواوير⁽²⁾، أما الأقسام التي كانت تتكون منها هذه فعرفت بـ "الخروبة"⁽³⁾.

مباشرة بعد تولية الباي في منصبه الجديد يقوم باستدعاء كل الشخصيات البارزة، خاصة تلك التي مثلت مصالح القبائل القوية والغنية، وبحضور الأئمة والعلماء يقوم بتنصيب الشيوخ والقياد حتى يتسنى لهم تسيير شؤون الرعية على مستوى الأوطان.

✓ **مجموعة القياد:** كان يتم اختيار القايد من فئة الأتراك أو الكراغلة؛ كان اتصاله الإداري مباشرة مع الباي. كما كان يستعين بشيخ القبيلة قصد تسيير شؤون الرقعة الجغرافية الداخلة تحت اطار مهامه، ذلك أن اقامته لم تكن بين أفراد القبيلة التي كان مكلفا بإدارتها، وإنما كانت في عاصمة البايك، أو في أحد الأبراج القريبة من اقامة القبيلة المسؤول عليها⁽⁴⁾، كما كانت له اختصاصات متعددة خاصة الأمنية والاقتصادية⁽⁵⁾.

✓ **مجموعة الشيوخ:** كانت سلطة الشيخ⁽⁶⁾ مزدوجة، احدهما إدارية والأخرى عسكرية. وقد كلفت

²- صالح فركوس - المرجع السابق - ص: 29.

Pierre Boyer- Op. Cit- P: 19.

³- دواوير: مفردة دوار. وهو عبارة عن مجمع من الخيام. ينظر:

وأضاف فندلين شلوصر أن الدوار هو عبارة عن منطقة يعيش فيها البدو مجتمعين فيها من 50 إلى 60 خيمة، يسير أمورهم الادارية شيخ الدوار. ينظر: المصدر السابق - ص: 89.

⁴- الخروبة: وحدة للمساحة. وهي أيضا وحدة للوزن يراد بها وزن حبة الخروب. ينظر: محمود فاخوري وصلاح الدين خوام - موسوعة وحدات القياس العربية والاسلامية وما يعادلها بالمقاييس (الأطوال _ المساحات _ الأوزان _ المكاييل) - د ط - مكتبة لبنان للنashرون - لبنان - د س ط - ص: 277.

⁵- القشاعي فلة المولودة ميساوي - الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792 _ 1837) - رسالة مقدمة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث - معهد العلوم الاجتماعية - جامعة الجزائر - 1403هـ/1983م - ص: 130.

⁶- خنوف علي - السلطة في الأرياف الشمالية لبايك الشرق الجزائري هاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي - دط - مطبعة العناصر - الجزائر - د س ط - ص: 49.

⁷- الشيخ: وهو المصطلح المعتمد في ملفات الوثائق العثمانية عندما كان يأتي الباي على ذكر بعض الأحداث الهامة التي كانت تحدث في مناطق مختلفة من البايك، مثال ذلك ينظر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642، الرسالة رقم: 15، 28 - المصدر السابق. وكلمة الشيخ تعني "قدم" بوجه عام. كان يتم اختياره من طرف أفراد القبيلة من بين الأكبر سنا والأكثر نضجا وحكمة وفقها بتسيير شؤون الرعية. ينظر: ف. يانايقي - مغامرات وملاحظات (تقرير عن اقامة في الجزائر) - د ط - د مط - باريس - د س ط - ص: 125.

السلطة العثمانية الشيخ بتسيير شؤون القبيلة والعمل على مراقبة مواسم الحرث والحصاد وتقسيم الأراضي على العائلات. كما كلف بالنظر في قضايا توزيع المياه، واختيار مكان استقرار "الدوار"⁽¹⁾. وكان يمثل مجموع الشيوخ على مستوى البايليك الثلاثة شيخية أطلقت عليها السلطة العثمانية لقب شيخ العرب⁽²⁾.

بعد هذا العرض المفصل لأهم المؤسسات والشخصيات التي كانت تسييرها ليس خلال فترة باي لارباي فقط، بل خلال كل مراحل الحكم العثماني في الجزائر، ولم يتغير من هذا الوضع سوى في قضية من يأخذ بزمام الأمور: مؤسسة الجيش الانكشاري، أم رياس البحر؛ وعلى هذا الأساس كانت كل مؤسسة تضع أهم الشروط التي كان على الحاكم العام التقيد بها كفترة الحكم مثلا.

4- فترة حكم الباشاوات والأغوات (1588_1671م): ظن الكثير من الجزائريين أن

نظام حكم الباي لارباي لن يزول أبدا من الجزائر، خاصة بعدما حققه من مكاسب على المستويين الداخلي والخارجي، ولكن ما حدث قلب كل الموازين ذلك أن نظام الحكم في الجزائر استبدل بنظام جديد كانت له خصوصياته ميزته عن العهد الذي سبقه اصطلاح عليه في الدراسات التاريخية بفترة حكم الباشاوات ثم استبدل هذا العهد بآخر أطلق عليه نظام الأغوات.

4-1- عهد الباشاوات (1588_1659م): قبل أن نتطرق لخصوصيات هذه الحقبة لا بد

لنا

أن نخرج إلى الأسباب والدوافع التي كانت وراء تغيير نظام الحكم في الجزائر، وهل هذا التغيير كان نتاجا عن قرار من الداخل أو تم اتخاذه في الخارج وفرض على الجزائريين فرضا دون الأخذ برأيهم أو مشاورة أهل الحل والربط في البلاد.

¹- صالح فركوس- المرجع السابق- ص: 49.

²- وردت بهذه الصفة في ملفات الوثائق العثمانية. وأول من تقلد هذا المنصب بإذن من الباب العالي المدعو بن حباش، هذا الأخير كان من بين الشخصيات المهمة في الجزائر. ينظر:

Dureau De la Malle- Province de Constantine (recueil

de

renseignements)- Libraire de guide, Editeur des annales des voyages- 1837- P : 169.

أ) _ أسباب استبدال نظام الحكم: لعل السؤال الذي يراود الكثير من المتابعين لنظام الحكم السابق أنه كيف يمكن استبداله بالرغم من كل الخصائص الايجابية التي ميزته، والمكاسب التي قدمها للجزائر على المستويين الداخلي والخارجي؟ نعم ما دفع إلى استبدال نظام الحكم في الجزائر هو تلك القوة التي اكتسبتها، فقد أخافت هذه القوة السلطنة العثمانية فقررت استبدال نظام الحكم لعله يكون الحل الوحيد والسليم للقضاء على مخاوفها؛ فهل ياترى لماذا كل هذه التخوفات؟

لقد أكسب تبعية الجزائر للخلافة العثمانية مكاسب كثيرة، فقد أصبحت الجزائر قوة اقليمية يضرب لها ألف حساب، لهذا تخوفت السلطنة العثمانية من استقلال الجزائر عنها، وبتالي استقلالها بالايالات الأخرى _ تونس وطرابلس _ لهذا قررت وضع حد لتلك التخوفات قبل أن تحصل المبادرة؛ ولكن هل بالفعل ارتكزت السلطنة العثمانية في اتخاذها لهذا القرار على أدلة وحجج منطقية؟

لم تكن هناك بوادر أو علامات مسبقة لهذا الاستقلال، لكن السلطنة العثمانية لم تشأ أن تغامر وتنتظر، بل بادرت بوضع حد لهذه الحقة دون وضع فرضيات تنتظر منها أن تتأكد فعليا على أرض الواقع. وإذا لم تتوفر الحجج والأدلة على اتخاذ مبادرة الاستقلال فمن أين استمدت السلطنة العثمانية تلك التخوفات؟ ولغياب مادة تاريخية قد تبيينا على هذا التساؤل المهم فسوف نحاول عرض بعض الفرضيات التي ستكون مرآة عاكسة لما كان يحدث في الجزائر خلال تلك المرحلة من تاريخها.

كلنا يعلم أنه كانت هناك مؤسستين مهمتين تسييران الجزائر هما رياس البحر والجيش الانكشاري؛ ولو أن الصراع بين المؤسستين لم يظهر جليا على أرض الواقع نظرا للقوة التي كان يتمتع بها رياس البحر، ودورهم الفعال في دعم الاقتصاد الوطني بفضل الغنائم البحرية التي كان يغنمها الأسطول الجزائري من عملية الجهاد البحري؛ كما كان لهم الفضل في تحرير الكثير من المدن وبالتالي استعادة الوحدة السياسية والترايبية. لكل هذه الأمور أصبح المجتمع في الجزائر بمختلف شرائحه يحترم هذه المؤسسة ويكن لها كامل التقدير والاحترام.

لكن مؤسسة الجيش الانكشاري لم تبق مكتوفة الأيدي أمام هذه التطورات، فقد كانت ترى بأنها مسلوبة الحقوق وبالتالي لابد من اكتسابها بكل الطرق الممكنة شرعية كانت أم لا؛ لهذا رأت في

إثارة مخاوف السلطة العثمانية فيما يخص قضية استقلال الجزائر عن الخلافة العثمانية حلا لمشكلتها، فهي بمجرد اقناعها بهذا الأمر ستقرر استبدال نظام الحكم، ولكن ما لم تكن تتوقعه هو أن هذا التغيير لن يكون جدياً وإنما سوف يتم معالجته بشكل لن يؤثر كثيراً على استقرار البلاد وأمنها. فما سوف يتم تغييره هو فترة حكم الباشا التي قيدت بثلاث سنوات لا أكثر، وتقييد صلاحياته، لعل هذه التغييرات ستزيل الشكوك وتهدأ من الجو المكهرب الذي ساد العلاقات بين السلطة العثمانية والجزائر.

بعد تحليل الدوافع الحقيقية وراء تغيير نظام الحكم في الجزائر يمكننا الخروج ببعض الاستنتاجات لعل من أهمها:

✓ لقد تداول الكثير من الكلام حول أسباب تغيير نظام الحكم في الجزائر ولكنه ما تأكد للدارس أن السبب الرئيس وراء هذا التغيير هو ذلك الصراع الدائر بين مؤسسة الجيش الانكشاري ومؤسسة رياس البحر؛ فلولا تلك المخاوف ما كان للسلطة العثمانية أن تقرر تغيير نمط الحكم في الجزائر، فقد يؤثر ذلك بشكل سلبي على مجريات الأحداث.

✓ التغيير الذي طرأ في نظام الحكم في الجزائر لم يحقق المكاسب التي سعت مؤسسة الجيش الانكشاري لتحقيقها، مما زاد في شدة التوتر بينها وبين مؤسسة رياس البحر، وكل ذلك انعكس سلباً على الأوضاع داخل البلاد.

✓ كان من المفروض أن يتم استشارة أهل الحل والربط في الجزائر في قضية التغيير، ولكن فاجأت السلطة العثمانية المجتمع الجزائري بمختلف شرائحه قرار التغيير هذا الذي أضر بالجزائر أكثر مما أفادها. وهذا ما سوف نعالجه عند عرضنا لأهم خصائص ومميزات هذه المرحلة.

(ب) _ خصائص هذا العهد: تميزت هذه الحقبة من تاريخ الجزائر العثماني بخصائص جعلت الجزائر تدخل مرحلة حاسمة، فبعدما عرفت الجزائر قوة وازدهارا على عهد الباي لارباي أصبحت على عهد الباشاوات تعيش تدبداً بين القوة والضعف، والاستقرار والفوضى، ولعل السبب الرئيس وراء هذه المستجدات هي تلك التغييرات التي استحدثتها السلطة العثمانية، ويمكننا حصرها فيما يلي:

- ✓ حددت مدة حكم الباشا بثلاث سنوات بعدما كانت غير مقيدة في المرحلة السابقة⁽¹⁾.
- ✓ وصلت الكثير من الشخصيات السياسية إلى الحكم بالرشوة والمآمرات⁽²⁾.
- ✓ عمل بعض الباشاوات على تحقيق مصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة.
- ✓ تراجعت الإنجازات الحضارية مقارنة بتلك التي عرفته فترة الباي لارباي.
- ✓ ظهور الكثير من حركات العصيان والتمرد التي زعزعت الأمن والاستقرار في البلاد. من بينها تمرد الكراغلة نتيجة حرمانهم من الامتيازات التي خصت بها السلطة الأتراك، لذلك تمردوا في سنوات 1042 - 1044هـ/1626 - 1629م، مطالبين بحقهم في السلطة والثروة معا⁽³⁾. وبالمقابل قامت السلطة بطردهم من مدينة الجزائر، حيث كانوا موجودين في المكان المسمى وادي الزيتون الواقع على سفح جبل فليسة وقد قدر حمدان خوجة عددهم ما بين الثمانية والعشرة آلاف⁽⁴⁾.
- ✓. ويذكر ابن المفتي أن هجرة الكراغلة بدأت لما نفتهم السلطة من الجزائر في آخر يوم من رمضان لسنة 1038هـ/1629م ولم يرحل آخرهم من المدينة إلا في رجب من عام 1039هـ/1630م؛ ثم بدؤوا يعودون من تونس التي كانت تحت حكم يوسف داي⁽⁵⁾ إلى زواوة في رمضان من سنة 1040هـ/1632م⁽⁶⁾.
- ✓ التجاوزات الخطيرة التي صدرت من القائمين على الباستيون⁽⁷⁾ في الشرق الجزائري، إذ بالرغم من جدية الحكومة الجزائرية وصرامتها في موضوع تحصين الباستيون، إلا أن السلطات الفرنسية

¹-De Grammont, Op. Cit. P: 226.

²- عمار عمورة ونبيل داودة- الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر العامة ما قبل التاريخ إلى 1962م- ج:1- دار المعرفة- 2009م- ص ص: 200، 201.

¹-ناصر الدين سعيدوني- المرجع السابق- ص: 45.

²- حمدان بن عثمان خوجة- المصدر السابق- ص117

³- يوسف داي: تولى حكم ايالة تونس بعد وفاة عثمان داي بتاريخ 1019هـ/1610م؛ انتشر عدله في الرعية والبلاد. توفي سنة 1046هـ/1636م. ينظر: محمد الأندلسي الوزير السراج- الحلل السندسية في الأخبار التونسية- ج:2- تق-تح: محمد الحبيب الهيلة- د ط- دار الكتب الشرقية- تونس- 1973م- ص: 164.

⁴-ابن المفتي حسين بن رجب شاوش- تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها- جم: فارس كعوان- ط1- بيت الحكمة- الجزائر- 2009م- ص ص: 49، 50.

⁷- الباستيون: كذلك ورد تسميته في ملفات الوثائق العثمانية ويقصد به الشركة الافريقية الفرنسية التي منحت لها امتياز صيد المرجان على مستوى الشرق الجزائري. ينظر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 1640- المصدر السابق.

لم تحترم هذا الأمر، فقامت بتسليحه في العديد من المرات لذلك اتخذت السلطات الجزائرية إجراءات ردعية، كانت بين الغلق تارة، والتحطيم تارة أخرى. ومن بين الفترات التي تم فيها تحطيم الباستيون نذكر سنة 1604م، إذ أمرت السلطات الجزائرية بتدميره بسبب عملية تحصينه، إلا أنه أعيد بناؤه سنة 1628م، وبعد تسع سنوات أصدرت الحكومة الجزائرية أمرا بتهديمه بعد أن ساءت العلاقات

الجزائرية الفرنسية، ولكنه أعيد بناؤه من جديد سنة 1640م⁽¹⁾.

✓ الصراع الذي أخذ أشكالا كثيرة بين الجيش الانكشاري ورياس البحر⁽²⁾.

هذه نماذج من بعض الأحداث التي وقعت في هذا العهد، والدالة على حالة الفوضى التي كانت تعرفها البلاد نظرا لسوء اختيار الحاكم، هذا من جهة، وقصر مدة حكمه من جهة أخرى؛ ومع هذا فلا بد من التنويه إلى أنه وجد بعض الحكام الذين حاولوا اصلاح الأمور قدر الإمكان والرجوع بالبلاد إلى عهدها السابق.

4-2) حكم الأغوات (1659_1671م): لقد دام حكم الأغوات⁽³⁾ قرابة اثني عشرة سنة،

حكم خلالها أربعة أغوات فقط كلهم سقطوا ضحية اغتيال؛ أما سبب استبدال نظام البشاوات بهذا النمط من الحكم فيعود في ظاهره إلى اقدام قادة الجيش الانكشاري على خلع ابراهيم باشا⁽⁴⁾ وتعيين وتعيين قائد من بينهم أطلقوا عليه "الأغا" وحددت مدة ولايته بشهرين لذلك لقب بـ "أغا ذو القمرين". وقد تميز هذا النظام ب بروز ظاهرتين خطيرتين هما:

¹كوران أرجمت- السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر- تر: عبد الجليل التميمي- منشورات الجامعة التونسية- تونس- 1980م- ص:19.

²De Grammont, Op. Cit. P: 226.

³أغوات: مفردة أغا وهو مصطلح استعمل في اللغة التركية والكردية والفارسية فعند الأكراد تطلق على شيوخهم وكبارهم وتطلق عند الأتراك على الرئيس والسيد وتطلق في الفارسية على رئيس الأسرة. وقد استعمله العثمانيون للدلالة على الضباط الانكشارية، وفي المرحلة الأخيرة من العهد العثماني أصبح يطلق على الانسان الكريم صاحب المكانة العالية. ينظر: سهيل صابان- المرجع السابق- ص:15.

⁴عمار عمورة وداودة نبيل- المرجع السابق- ص:116.

✓ انتشار ظاهرة الاغتيالات مما انعكس سلبا على شتى الأصعدة، إذ كل الأغوات الأربعة الذي حكموا البلاد بداية بخليل أغا (1659_ 1661) ⁽¹⁾ فشعبان أغا (1661_ 1665م) ⁽²⁾ مروا برمضان أغا ووصولاً بالحاج علي أغا كلهم سقطوا ضحية اغتيال من طرف عناصر الجيش الانكشاري.

✓ محاولة الانفصال عن الخلافة العثمانية.

✓ يعتبر قيام هذا النظام الجديد بمثابة انقلاب على النظام السابق ⁽³⁾، مما سيدخل البلاد في دوامة يصعب الخروج منها مع حدوث أضرار على كل المستويات.

✓ برز على الساحة السياسية صراع قوي بين مؤسسة الجيش الانكشاري ورياس البحر، مما انعكس سلبا على أمن واستقرار الايالة.

✓ تميز هذا النظام باعطاء السلطة التنفيذية لأحد أفراد الجيش الانكشاري ⁽⁴⁾، وذلك على أساس الأقدمية.

✓ انتشار الرشوة والاختلاس وسرقة المال العام.

✓ عدم اهتمام الحكام باصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية.

✓ تقاعص رياس البحر على تقديم الدعم للخزينة العمومية، خاصة وأن الغنائم البحرية شكلت موردا مهما لها، قصد اثبات عدم قدرة مؤسسة الجيش الانكشاري على توفير الرخاء الاقتصادي الذي عملوا على تحقيقه طيلة فترة حكم الباي لارباي والبشاوات.

⁵- خليل أغا: تولى ادارة البلاد في شهر ذي القعدة من سنة 1070هـ/ 1660م. كانت فاتحة أعماله تأسيس الجامع الجديد، واتخذ منه مقرا لديوان

الافتاء على المذهب الحنفي وبقي كذلك طيلة الحكم العثماني للجزائر. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق- ص: 160.

⁶- شعبان أغا: ذهبت بعض الروايات التاريخية إلى أن أصله برتغالي، عرفت فترة حكمه اشتداد الصراع بين الجزائر وفرنسا، وتوالي الهجمات الأوروبية

على

مدينة الجزائر. ينظر: عمار عمورة- المرجع السابق- ص: 107.

¹- كان نجاح الانقلاب الذي ذبره قادة الجيش الانكشاري بمثابة ردة فعل انتقامية من مؤسسة الجيش البحري _رياس البحر- التي استأثرت بالحكم طيلة فترة حكم الباي لارباي والبشاوات. وهذا هو السبب الحقيقي والحنفي من وراء الانقلاب المنفذ في حق هذه المؤسسة.

²- بعدما كانت السلطة التشريعية في يد الديوان العام والسلطة التنفيذية في يد الديوان الخاص حصرت كل الصلاحيات في يد كبار قادة الجند، مما أثر سلبا على الوضع العام للبلاد بحيث تميز نظام الحكم بما اصطلح عليه سياسيا بالديكتاتورية العسكرية.

✓ نقص مداخيل الايالة دفع بالحكام إلى فرض ضرائب ثقيلة على الرعية بقصد سد العجز المالي الذي كانت تعاني منه الخزينة العامة، مما أدى إلى انتشار سحق شعبي عارم أدى بدوره إلى ظهور حركات تمرد وعصيان عبر شتى أنحاء الايالة.

✓ محاولة استقلال النظام الجديد عن الخلافة العثمانية باسطنبول، أجبر الصدر الأعلى على الرد بالمثل، إذ بعث فرمانان إلى كل من مصر وبلاد الحجاز يأمر من خلالهما القائمين على ادارة شؤون المنطقة على منع الجزائريين الدخول إلى المناطق المعنية سواء لأهداف اقتصادية أو ثقافية أو حتى دينية⁽¹⁾، مما جعل القائمون على شؤون البلاد في الجزائر يحاولون اصلاح العلاقات المتوترة مع الباب العالي في اسطنبول.

4- فترة الدايات (1671_ 1830م): أمام الوضع الخطير الذي آلت إليه الجزائر، قرر رياس البحر باعتبارهم مالكي الأسطول البحري الذي بفضل استطاعت الجزائر أن تفرض هيمنتها وسيطرتها على كافة البحر الأبيض المتوسط استرجاع الحكم من يد الانكشارية، بما أن هؤلاء أثبتوا على أرض الواقع فشلهم الكبير في إدارة شؤون البلاد والعباد.

لتحقيق هذا المشروع، تأمرت جماعة من رياس البحر على آخر الآغوات علي أغا (1084- 1090هـ/1665-1671م) فقامت باغتياله أوائل سنة 1090هـ/1671م، كانت هذه العملية بمثابة رسالة وجهت إلى كل من سيتجرأ ويتولى منصب الحكم من بعده، فالمصير نفسه سيلقاه لا محالة؛ وبالفعل فقد حققت هذه العملية النتائج المرجوة منها، إذ رفض جميع الآغوات تقلد منصب الحكم خوفا من القتل. على وقع هذه المستجدات اجتمع ديوان الأوجاق وتقرر الغاء عهد الآغوات واستبداله بنظام

آخر أطلقوا عليه نظام الدايات⁽²⁾.

¹ لم تكن لتؤدي مناسك الحج في الجزائر خلال العهد العثماني إلا بترخيص من السلطات للمعنيين بالأمر. ينظر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 1640- المصدر السابق. وبما أن الخلافة العثمانية كانت المسؤول المباشر على الأماكن المقدسة الخاصة بالمسلمين فقد حرمت الجزائريين من أداء مناسك الحج والعمرة لشحن الشعب الجزائري ضد النظام والتمرد عليه قصد اسقاطه.

² الدايات: مصطلح تركي يعني الخال. ينظر: مصطفى عبد الكريم عاصم- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية- ط: 1- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1996م- ص: 289.

4-1) مميزات هذا العهد: تميز هذا العهد كغيره من العهود التي مرت على حكم الجزائر بخصائص ومميزات، على أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يتم استحداث أي مؤسسة جديدة، أو ادخال تغييرات على التقسيم الجغرافي للبلاد، أو طريقة تسير البياليك.

أ)- على الصعيد السياسي والإداري: ظهرت مجموعة من المستحداث على الصعيد السياسي والإداري جعلت الجزائر تعاني من مراحل ضعف أثرت سلبا على الوضع الداخلي والخارجي للبلاد، كما لا يمكننا تجاهل مراحل أخرى عرفت فيه استقرار سياسي وانجازات عسكرية من أهمها تحرير مرسى الكبير ووهران من الاحتلال الإسباني الذي دام أكثر من القرنين من الزمن. ومن بين أهم المستحداث الذي عرفتھا المؤسسات الإدارية نذكر:

- ✓ طريقة تعيين الداي: كان يتم اختيار الداي عن طريق "الانتخاب" الذي كان يتم على مستوى الديوان، ولا يحق له تعيين خليفته؛ أما عند موته، فإن كانت هذه الأخيرة طبيعية فكانت تتم عملية اختيار الداي الجديد بالطريقة نفسها⁽¹⁾، أما في حالة ما إذا كانت اغتيال، فإن المنافسة
- ✓ الغير شرعية تكون هي الفاصل بين المترشحين⁽²⁾.
- ✓ ازدواجية الحكم: أصبح تسير البلاد يجمع بين شخصيتين هما الباشا والداي، هذا ما أثبتته ملفات الوثائق العثمانية التي ورد في تقاريرها لقب الداي والباشا⁽³⁾ معا⁽⁴⁾، كما نعتت الشخصية نفسها بـ "الدولاتلي"⁽⁵⁾.

استمر الحال على ما هو عليه، إلى غاية سنة 1139هـ/1718م، أين رفض الداي علي شوش (1130 - 1139هـ/1710-1718م) استقبال مبعوث السلطان العثماني أحمد الثالث

²- يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 46.

¹-M. Kaddache- L'Algérie durant la période Ottomane- Alger- O. P. U- P : 154.

²-الباشا: مصطلح تركي يعني الرأس أو قدم الملك، استعملته السلطة العثمانية في مختلف الولايات التابعة لها كلقب اداري يمنح لكبار ضباط الجيش الانكشاري، ثم مع مرور الوقت أطلق على مجموعة الولاة والوزراء. ينظر: مصطفى عبد الكرم الخطيب- المرجع السابق- ص: 65.

³- ملف الوثائق العثمانية رقم: 1426- المصدر السابق.

⁴- الدولاتلي: من بين ألقاب البشاوات، وتعني أنه الباشا والداي في الوقت نفسه. ينظر: أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج:9- د ط-

دار الغرب

الإسلامي- بيروت- 1998م- ص: 189.

إبراهيم شركان ونزوله بميناء الجزائر؛ وحتى يرر الداى علي شاوش تصرفه الذي أثار ضجة كبيرة، بعث بتقرير إلى السلطان يشرح له أسباب قيامه بمثل هذا العمل، وفسره من وجهة نظره ونظر الديوان أنه ازدواجية السلطة تشكل مخاطر على الاستقرار السياسي للبلاد وأثار مشاكل عدة⁽¹⁾.

لا ندرى قبول السلطان العثماني لهذا التبرير وتمير التمرد الأول من نوعه مند تبعية الجزائر لها كان من باب اقتناع السلطان بالحجج التي قدمها الداى علي شاوش، أو محاولة منه تجنب الدخول في اصطدامات مع الجزائر، خاصة وأن هذه الأخيرة شكلت ولاية مهمة بالنسبة للخلافة العثمانية. كانت هناك محاولات متكررة للسلطات العثمانية لفرض شخصية الباشا على الإدارة الجزائرية، إلا أن هذه الأخيرة أصرت على موقفها، ترجمه موقف الداى محمد بن حسن باشا (1139-1145هـ/1718-1724م)، الذي رفض استقبال مبعوث السلطان العثماني، النهج نفسه سار عليه خليفته الداى كرد عبدي باشا (1145-1153هـ/1724-1732م) الذي بدوره تبني الموقف نفسه رافضا استقبال الباشا المعين من طرف الباب العالي علي درناوي⁽²⁾.

مهما كان السبب الذي كان وراء تجاهل السلطات العثمانية لمثل هذه التصرفات، فقد نتج

عنه

أنه تم الغاء منصب الباشا، ومقارنة لقب الداى بلقب الباشا⁽³⁾، وبهذا أصبح حاكم البلاد يجمع بين لقبين في ظاهرة الأولى من نوعها عرفتها الجزائر منذ إلتحاقها بالخلافة العثمانية⁽⁴⁾. ولقد تميز نظام حكم الدايات بمجموعة من الخصائص لعل من أهمها نذكر:

أ)- مدة حكم الداى: بعدما اقتصرت مدة حكم الباشا على ثلاث سنوات، والأغا على شهرين فقط، أصبحت الفترة غير مقيدة بمدة زمنية محددة على عهد الدايات⁽⁵⁾، بمعنى أن الداى أصبح

⁵-M. Kaddache, Op. Cit. P : 154.

⁶-يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 52.

³-محمد المهدي شعيب- أم الحواضر في الماضي والحاضر- د ط- مطبعة البعث- قسنطينة- 1980م- ص: 394.

⁴- حمل كل من الداى إبراهيم باشا (1163-1166هـ/1745-1748م)، والداى إبراهيم باشا كوجوك (1166-1169هـ/1745-1748م)، والداى محمد بكير باشا (1169-1175هـ/1748-1754م)، والداى علي باشا بوصباغ (1175-1188هـ/1754-1766م)، والداى محمد عثمان باشا (1188-1203هـ/1766-1791م) لقب الباشا إلى جانب منصب الداى. ينظر: المرجع نفسه- ص: 394.

⁵-يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 46.

يحكم مدى الحياة. ومن خلال هذا الاجراء نستنتج أن رياس البحر ومن ورائهم أعضاء الديوان حاولوا ضمان أحد الأمرين: تفضي التعفن الإداري والسياسي الذي عرف به عهد الأغوات، الناجم عن قصر مدة حكم الأغا التي لم تكن لتسمح بقيام مشاريع تنمية أما الأمر الثاني فهو غلق الأبواب أمام مؤسسة الجيش الانكشاري للاستحواذ على السلطة. ومهما يكن السبب الذي كان

من وراء عدم تقييد فترة حكم الداوي فهذا لم يكن ليمنع حدوث اضطرابات وصراعات داخل مؤسسات الايالة، وغلق الباب أمام أطماع ضباط الجيش الانكشاري في الاستحواذ على السلطة.

(ب)- الداوي وصلاحياته: المتصفح لتاريخ الجزائر العثماني، خاصة خلال عهد الدايات يلاحظ بعض التناقض، فبقدر ما منحت للداوي صلاحيات غير محدودة، إلا أنه من جهة أخرى قيدت حريته في الكثير من الجوانب؛ هذا ما عبر عنه أحد الاسبان في هذا النص التاريخي الذي ذكر فيه أن الداوي "رجل غني ولكنه ليس سيد ثروته وأب بدون أطفال وزوج بدون زوجة، طاغية بدون حرية، ملك لعبيد عبد لأتباعه"⁽¹⁾. المعلومات نفسها أكده "أرنست اميريت" "Ernest Emerit" في هذه الرواية التاريخية الذي ذكر فيها ما نصه: يعتبر الداوي "رجل مستبد وليس له حرية، أرستقراطي لكنه محروم من الأرباح..."⁽²⁾

الكلام نفسه أكده الكاتب "فونتيخ دو بارادي" "Venture De Paradis" بحيث ذكر بأنه بالرغم من كل الامتيازات الغير محدودة التي منحت للداوي إلا أنه كانت تصادر أمواله وممتلكاته، إذا ما أثار غضب وسخط الجند⁽³⁾. أمام هذا التقييد الصريح لصلاحيات الداوي فإنه بالمقابل كان المسؤول العسكري والسياسي أيام الحرب والسلم معا، والقاضي الأعلى للبلاد⁽⁴⁾.

¹- محمد فارس خير- تاريخ الجزائر الحديث الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي - د ط- مكتبة النهضة الجزائرية- الجزائر- 1969م- ص: 73.

2- Ernest Emerit- Le voyage de la condamne a Alger en 1731- R. A- N°: 89- 1954- P: 292.

1-Venture De Paradis- Alger aux 18^{ème} siècle- Fagnan- Alger- 1898- P : 48.

²- يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 52.

ج)- شخصية الجزائر الدولية واستقلالها دبلوماسيا عن الخلافة العثمانية: تمتعت

الجزائر منذ التحاقها بالخلافة العثمانية بمكانة دولية، ففرضت كلمتها على القريب قبل البعيد وعلى العرب والأوروبيين في آن واحد، هذا ما مكنها من ربط علاقات انجر عنه ابرام مختلف المعاهدات والاتفاقيات. في بداية الأمر كان عقد مختلف الاتفاقيات والمعاهدات مع دول وممالك أوروبا يتم بعد اسشارة الباب العالي وبإذن منه، ولكن مع مرور الزمن أصبحت هذه الاستشارة صورية فقط، بل استقلت الجزائر دبلوماسيا عن الخلافة العثمانية بنسبة كبيرة على عهد الدايات، مستغلة الظروف الدولية التي كانت تعاني منها بالخلافة.

هذا الاستقلال الدبلوماسي لم يمنع الجزائر من أن تحافظ على تبعيتها للخلافة العثمانية، فقد رفضت ربط علاقات مع أطراف كانت في صراع مع السلطنة مثل روسيا وبروسيا، كما قطعت علاقاتها مع أطراف أخرى دخلت في عداوة مع الخلافة مثل فرنسا وذلك أثناء حملتها على مصر.

د)- ظاهرة الاغتيالات وتأثيرها على الوضع الداخلي والخارجي للبلاد: ظن أهل الربط

والعزم في الجزائر أنه مباشرة بعد الضربة القاسية التي وجهت لعناصر الجيش الانكشاري، واستعادة رياس البحر للسلطة سوف تتحسن الأوضاع ويتم القضاء على ظاهرة الاغتيالات التي انتشرت على عهد الأغوات؛ ولكن الواقع أن الظاهرة بقيت سارية المفعول، صحيح أنها كانت بشكل أقل مقارنة بالعهد السابق ولكنها كانت موجودة.

فمن بين الدايات الذين تم اغتيالهم نذكر الداوي مصطفى باشا (1213-1220هـ/1798-

1805م)، الذي تم اغتياله سنة 1220هـ/1805م، والداوي علي باشا الغسال (1224-1225هـ/

1808-1809م) الذي شنق سنة 1225هـ/1809م، والداوي علي باشا (1225-

1231هـ/1809-1815م) الذي قتل سنة 1231هـ/1815م، والداوي عمر باشا (1231-

1233هـ/1815-1817

الذي اغتيل سنة 1233هـ/1817م⁽¹⁾.

من خلال هذه النماذج التي تم عرضها يمكننا ملاحظة ما يلي:

✓ تراوحت مدة حكم هؤلاء ما بين السبع سنوات والسنة، أما الأول فحكم سبع سنوات، في حين حكم الثاني سنة واحدة، أما الثالث فقضى في سدة الحكم ستة سنوات، بينما بقي الرابع في منصبه لمدة سنتين فقط.

من خلال هذا الإحصاء يمكننا ملاحظة نقطتين مهمتين:

أما الأولى فنكمن في أن الأربع الحالات تتحد في نقطة واحدة أن الداوي الأول حكم سبع سنوات فيما تم اغتيال الثاني بعد سنة واحدة فقط، في حين حكم الثالث ست سنوات فيما تم اغتيال الرابع بعد سنة واحدة فقط من الحكم. وبهذا نلاحظ التقارب الموجود بين هذه الحالات الأربع.

في حين تكمن الملاحظة الثانية في ظهور نوع من الاستقرار الجزئي في كل من فترة حكم الداوي الأول والثالث، مقارنة بمدة حكمهم، فيما نجد مدة حكم كل من الداوي الثاني والرابع لم تتجاوز السنتين، بمعنى أن فترة حكمهم عرفت اضطرابات كثيرة مقارنة بسابقيهما

✓ كل عمليات الاغتيال تمت تقريبا بالطريقة نفسها.

✓ فترات اغتيال الدايات الأربع كانت متقاربة جدا بمعنى أن الجزائر خلال القرن الثامن عشر بصفة عامة، وخلال تلك المرحلة بشكل خاص عرفت الاستقرار الأمني وسياسي، وحالة من الفوضى واللامبالاة.

✓ هل صمت الخلافة العثمانية في شأن ما كان يحدث في الجزائر كان نتيجة لظروف خاصة كانت تمر بها السلطنة، أو لأن من مصلحتها أن تبقى الجزائر تتبخط في دوامة من العنف السياسي والتعفن الإداري حتى تبقى دوما في حاجة إلى دعمها ومساندتها لها، وبالتالي تبقى في تبعية مستمرة لها.

¹ أبو القاسم سعد الله - من أخبار الداوي شعبان - مجلة التاريخ - ع: 48 - الجزائر - 1980م - ص: 117.

هـ)- تسليم زمام الحكم إلى من ليس أهلا له: حكم الجزائر خلال هذه الحقبة بعض الدايات الذين انعدمت فيهم كل شروط الحكم والقيادة، ولا ندري لما سلمت لهم تسيير أمور البلاد والعباد؟ هل كان ذلك عمدا أم أن الظروف العامة للبلاد خلال تلك المرحلة هي التي جعلت من الجزائر لا تهتم بذلك؟ مهما يكن من الأسباب فالنتيجة واحدة أن أكبر متضرر من هذا الأمر هو الجزائر، ولنا أن نعرض بعض النماذج، من بينها الداوي أحمد الذي حكم خلال الفترة الممتدة من 1210هـ/1695م إلى غاية سنة 1213هـ/1689م؛ فقد كان هذا الداوي رجلا مسنا مريضا مهنته الأولى اسكافي⁽¹⁾. أما الثاني فهو الداوي علي باشا الذي امتهن غسل الأموات بالإضافة إلى كبر سنه⁽²⁾.

ضف إلى ذلك أن الكثير من الدايات وصلوا إلى الحكم وهم بعيدين كل البعد عن العلم وأهل العلم، هذا ما يفسر الانحطاط والتراجع العلمي الذي عرفته الجزائر خلال العهد العثماني، مقارنة بدول الجوار مثل المغرب الأقصى وتونس، هذا ما جعل الهوة تتسع شيئا فشيئا بين السلطة والرعية.

و)- استمرار الصراع بين رياس البحر والجيش الانكشاري: سعت بعض الشخصيات السياسية في الجزائر العثمانية من وراء تغيير النظام إلى وضع حد لنفوذ وطغيان ضباط الجيش الانكشاري، ولكنه استمر الصراع بين الجهازين. ومن بين النماذج الدالة على ذلك هو الانقلاب الذي قاده الأغا شعبان سنة 1108هـ/1688م، وتمكن خلاله من الاستحواذ على الحكم، ولكنه تم اغتياله سنة 1115هـ/1695م إثر تمرد الجند عليه⁽³⁾، فعين الحاج أحمد باشا (1115-1118هـ/1695-1698م) أحد قادة الجيش الانكشاري حاكم عام على البلاد⁽⁴⁾، وبذلك استرجعت المؤسسة الانكشارية نفوذها.

¹ محمد المهدي شعيب - المرجع السابق - ص: 392.

² محمد بن ميمون الجزائري - المصدر السابق - ص: 25.

3-M. Kaddache, Op. Cit. P : 94.

⁴ يحي بوعزيز - الموجز في تاريخ الجزائر - (المرجع السابق) - ص: 50.

على أنه لا يجب أن يفهم بأن كل فترات الحقبة كانت كلها سواد وفتن وتعفن، وكل الذين حكموا البلاد كانوا مرتشين وجهلة وغير قادرين على تسيير شؤون البلاد؛ فهناك مراحل عرفت خلالها البلاد استقرارا سياسيا واقتصاديا، وإنجازات عمرانية وأخرى عسكرية. ولنا وقفة مع أهم هذه الإنجازات التي كان لها رجالها. ومن بين هذه الإنجازات نذكر تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792م إذ تمكنت السلطات الجزائرية من استرجاعهما نهائيا وتحرير المنطقة من الأسباب بعد مواجهات عسكرية عنيفة بين الطرفين⁽¹⁾.

خاتمة المحور الخامس:

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج نجملها فيما يلي:

- ✓ أصبحت مسألة تأمين المتوسط بالغة الأهمية بالنسبة للخلافة العثمانية، هذا ليس فقط لأنه شكل على مر العصور جبهة انكشاف استراتيجية، ولكن أيضا لأن أمنها مرهون باستقرار هذه المنطقة، ذلك لأن المتوسط يعتبر من بين أهم الطرق الذي تتم عبره المبادلات التجارية.
- ✓ التواجد العثماني الممثل في الاخوة بربروس في جزيرة جربة ومن بعدها حلق الوادي كان الهدف منه تنفيذ عمليات للمراقبة الدائمة لحوض البحر المتوسط.
- ✓ عززت الخلافة العثمانية قدراتها الاستطلاعية والهجومية من خلال إقامة شبكة قواعد عسكرية (جربة- حلق الوادي- جيجل) تمهيدا للهيمنة على مياه البحر الأبيض المتوسط.
- ✓ إن النظرة العثمانية للمنطقة المتوسطية لم يفرضها الواقع بل جاءت من خلال الواقع الجديد الذي عملت كل من اسبانيا والبرتغال على بنائه وتطويره من خلال مختلف الوسائل والآليات وذلك بربط جملة الأفكار والمبادئ بمجموع الوسائل المادية التي تحول لها بناء واقع خاص تستطيع التعامل معه، لذلك فالخلافة العثمانية وفي ظل إستراتيجيتها والتي أصبحت ترتبط فيما

¹-للاطلاع على تفاصيل أكثر حول مجريات الحرب بين الجيش الجزائري والاسباني، ينظر: أحمد توفيق المدني - حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا- (المرجع السابق).

يعرف بعثمة العالم الإسلامي، كانت ترى بأنها مؤهلة أكثر من غيرها لتقود هذا العالم وذلك لأنها تمتلك كل مقومات القوة لجعلها الفاعل المهيمن في العلاقات الدولية.

✓ تدخل العثمانيون في الشرق الجزائري ثم في المناطق الأخرى بناء على طلب من سكانها، وكان هذا التدخل عسكري، حاول خلالها الاخوة بربوس فرض وجودهم وبسط نفوذهم بمختلف الوسائل والسبل.

✓ نظرا للمخاطر التي حاصرت خير الدين وأتباعه من كل جهة عد استشهد أخويه في موقعة راشد، لم يجد حلا سوى تخير الجزائريين بين رحيله أو تعيينه حاكما عاما على الجزائر بطريقة رسمية وشرعية. وبهذا وضع خير الدين الجزائريين أمام خيارين أحدهما أمر من الآخر:

- إما الرحيل وبالتالي جعلهم فريسة سهلة للأسباب الذين كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة للانتقام، خاصة أنه لم تكن هناك قوة سياسية وعسكرية تحمي البلاد من هذا العدو المترص بهم.
- البقاء في الجزائر ولكن في المقابل الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وتعيين خير الدين حاكما عليها بطريقة رسمية وشرعية؛ وهذا الخيار أيضا لم يكن ليفرح الجزائريين، ولكن لا مفر منه نظرا لتشابك المصالح بين الطرفين.

✓ نستنتج أن الجزائر استكملت بناء مؤسساتها السياسية والاقتصادية مع نهاية القرن 16م، حيث كان لتبعيتها للخلافة العثمانية دورا بارزا في تحقيق وحدتها السياسية والاقليمية ورسم معالمها الجغرافية، إذ تم تقسيمها إلى أربع مناطق متباينة: دار السلطان وبايلك تيطري وبايلك الشرق وبايلك الغرب.

✓ مرت الجزائر بأربع حقب، تميزت كل واحدة منها بمجموعة من الخصائص، وتفاوتت فيما بينها من حيث الانجازات الحضارية والقوة العسكرية.

المحور السادس

تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة

السعديين والعلويين.

(1)- المغرب الأقصى على عهد السعديين

(2)- الحكم العلوي للمغرب الأقصى

مقدمة

اعتبر المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي، إقليمًا تابعًا للخلافة الإسلامية في بلاد المشرق، إلى أن تحرر من التبعية واستقل استقلالًا تامًا بقيام دولة مغربية مؤسسها الإمام إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت سيدنا ونبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ببيع الإمام إدريس الأول رئيس المملكة الجديدة يوم الجمعة 4 من شهر رمضان عام 172هـ، الموافق لشهر فبراير من سنة 789م. وهكذا يعتبر هذا التاريخ بداية لعدد من أنظمة حكم تداولت على حكم المغرب مرورًا بالعصور التاريخية بعد الأدارسة الدولة المرابطية ثم الموحدية فالدولة المرينية وصولًا بالدولة الوطاسية ومن المؤرخين من يعتبر هذه الأخيرة امتدادًا لدولة بني مرين، وعلى أثر تقلص نفوذ السعديين قامت الدولة العلوية لتواصل المسيرة.

تأسست الدولة المرينية على شرعية مدنية وتاريخية. وقد جاءت هذه الشرعية استجابة لأوضاع أمنية وسياسية متدهورة، وحتى إن لم تكن الدولة المرينية، بالنسبة إلى مجتمع المغربي، مطلبًا أخلاقيًا ودينيًا، بل كانت مطلبًا سياسيًا تاريخيًا له موجباته المدنية المعقولة. وأهم ما يفرض ذاته في السجل

التاريخي للدولة المرينية، هو ضعف "مؤسسة المخزن" وتراجعها. ومن ثم "غلبة الوطاسيين" نتيجة المآل السياسي الذي آل إليه نظام الحكم المريني، خاصة بعد استبداد الوزراء وتغلبهم على السلاطين. وبذلك سيكون المرينيون في أساس انتقال تاريخي بموجبه سيتحول المغرب الأقصى من العصر الوسيط نحو العصر الحديث (1553/961 - 1331 هـ / 1912م) .

قد يلاحظ المتتبع للأحداث فترات انتقالية طالت أم قصرت بين انحلال دولة وقيام أخرى ليس في بلاد المغرب الأقصى إنما هي سنة في كل الأقطار الإسلامية، فبماذا يمكن تفسير الفراغ الملحوظ من الزاوية السياسية؟ وكيف استطاعت هذه الأنظمة الحفاظ على سيادة المنطقة في ظل المتغيرات المتسارعة التي عرفتها خلال الفترة الحديثة؟

1-المغرب الأقصى على عهد السعديين: شهد المغرب الأقصى مثله مثل باقي دول المغرب الإسلامي مع نهاية القرن الخامس عشر ضعفا سياسيا وتدهورا اقتصاديا وتراجعا فكريا، فقد أضحي الوطاسيون غير قادرين على تسيير شؤون البلاد والعباد والدفاع على السيادة الترابية لدولتهم. وبهذا أصبح المغرب الأقصى مجزأ إلى وحدات سياسية تحكمها العصبية القبلية نخرت جسدها التناحر والنزاعات، وبهذا كانت تعيش المنطقة خلال الحقبة المذكورة أعلاه أزمة حادة ما أجبر الشخصيات الفاعلة والحكيمة للبحث عن بديل يخرج البلاد من الوضع المهين الذي آلت إليه.

اجتمع الأمر بعد الحل والربط على بيعة الأمير عبد الله القائم⁽¹⁾، هذا الأخير وحد الصفوف لمجابهة العدوان الصليبي⁽²⁾، ولنجاح معركته مع العدو ألف مجلسا في منطقة السوس لتكوين جيش منظم ومنضبط، هذا الأخير خاض حربا مع البرتغاليين، أحرزوا خلالها نصرا عظيما⁽³⁾، وانطلاقا من هذا العهد تبدأ مرحلة حكم الدولة السعدية⁽⁴⁾.

¹ - الناصري أو العباس أحمد بن خالد- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية- ج:5- تح:جعفر الناصري ومحمد الناصري- د ط- دار الكاب- دار البيضاء- د س ط- 1997م- ص:12.

² - تعرضت السواحل المغربية مثلها مثل باقي سواحل المغرب العربي للعدوان الاسباني والبرتغالي، ولضعف الدولة الوطاسية عجزت على صد الهجمات المتتالية. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: شوقي عطا الله حمل- المغرب العربي الكبير في العصر الحديث- ليبيا - تونس- الجزائر- المغرب- ط:1- القاهرة- 1977م- ص:167.

³ - الناصري- المصدر السابق- ص:3.

⁴ -السعديون: ينتسبون لآل البيت النبوي، أصل نسبهم من ينبع النخل من أرض الحجاز. ينظر: المصدر نفسه- ص:3.

بعد وفاة الأمير عبد الله القائم تولى أمر بلاد أبو العباس أحمد الذي عرف بالأعرج، بعدما جددت له البيعة، ذلك أنه بويغ بالحكم على حياة والده. وقد سار أبو العباس على نهج والده، فجاهد على مستوى جبهتين الاسبانية والبرتغالية، وحقق خلالها انتصارات كبيرة⁽¹⁾. وما ساعد الأمير أبو العباس أحمد على احراز تقدم كبير في ما يخص قضية الجهاد هو دعم أخيه أبي عبد الله محمد الشيخ⁽²⁾ له، إذ كان يستشيره في كل أمور المملكة نظرا لما تميز به من حنكة سياسية وذكاء كبير. لذلك عينه واليا على منطقة السوس. إلا أن الأمور أخذت منحرجا خطيرا في العلاقة بين الأخوين انتهت بمقتل أبي عبد الله

محمد الشيخ على يد أخيه سنة 964هـ⁽³⁾.

بويغ محمد عبد الله الغالب بعد مقتل والده في فاس⁽⁴⁾، وبقي على عرش المغرب إلى غاية وفاته التي صادفت سنة 1574م. فبايع المغاربة ابنه أبو عبد الله المتوكل على الله، لكن مدة حكمه لم تطل كثيرا، فلقد تمكن عمه أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله من انتزاع الحكم منه بدعم من العثمانيين سنة 1576م⁽⁵⁾.

على عهد هذا الأمير وقعت المعركة التاريخية التي عرفت في المصادر والمراجع بمعركة وادي المخازن، التي كانت ارهاصاتها عندما طلب الأمير المتوكل المخلوع المساعدة من دون سباستيان (1557-1578) ملك البرتغال مقابل التنازل له عن بعض الشواطئ المغربية. ومن ثم استغل دون سباستيان الفرصة وقاد قوة عسكرية كبيرة لاحتلال المغرب رفقة حليفه المتوكل، ولما وصل إلى علم السعديين خبر الحملة قاموا بتعبئة الجيش والمتطوعين من المجاهدين، كما وفروا الأسلحة

¹ - فؤاد دياب- المغرب الأقصى بين الماضي والحاضر- د ط- الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة- د س ط- ص: 31.

² - أبو عبد الله محمد الشيخ: ولد سنة 866هـ، ولع منذ صغره بالسياسة، لعب دورا بارزا في انهاء الحكم الوطاسي. ينظر: الناصري- المصدر السابق- ج: 5- ص ص: 19-37 (بتصرف).

³ - شوقي عطا الله جمل- المرجع السابق- ص ص: 169-171.

⁴ - مدينة فاس: مكونة من مدينتين بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة؛ والمدينة الشمالية منها تسمى عدوة القرويين. ينظر: الحموي شهاب الدين- معجم البلدان- ج: 4- د ط- دار الصادر- بيروت- 2002م- ص: 230.

⁵ - المرجع نفسه- ص ص: 173، 174.

المتطورة خصوصا النارية⁽¹⁾، وما زاد من فعالية القوة السعدية عملية التخطيط للمعركة واختيار موقعها وتوقيتها، حيث تم استدراج جيوش العدو قرب وادي المخازن في 4 أوت من سنة 1578م، أين التقى الجيشان وحقق خلالها الجيش السعودي انتصارا واضحا أعطاها أبعادا تاريخية عميقة⁽²⁾.

بعد وفاة الملك السعودي برزت شخصية مميزة عرف باسم أحمد المنصور الذهبي ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ والحرة مسعودة بنت الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الوردزياتي. ولد بمدينة فاس سنة 1549م.⁽³⁾ توفي عام 1603م.⁽⁴⁾ سمي عصره بالذهبي، ذلك أن المغرب الأقصى عرف أوج ازدهاره وتطوره، وقوته العسكرية على عهده⁽⁵⁾.

أخذ المنصور العلم على يد العديد من الشيوخ، إلى أن تمت له البيعة بفاس، وبقي على عرش إلى غاية تاريخ وفاته الذي صادف 16 من ربيع الأول سنة 1012هـ/1603م⁽⁶⁾. وجه جل اهتمامه لتنظيم الجيش، متأثرا في ذلك بالجيش العثماني. فزود قواته بالمعدات الحربية الحديثة⁽⁷⁾. اشتهر بصرامته وحزمه، كما ساهم في استحداث بعض التغييرات في المؤسسات الإدارية⁽⁸⁾. فأسس مجلسا للشورى كان يجتمع كل يوم الأربعاء وكان يسميه يوم الديوان⁽⁹⁾، وهو أول من استعمل المنصورية في لباسه، وكان مولعا بالعمران على غرار والدته⁽¹⁰⁾.

(2) - المغرب الأقصى على عهد العلويين: ترجح الروايات التاريخية نسب الأسرة العلوية

إلى جدها الأول أمير المومنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، وجدتها السيدة فاطمة

1- أقام السعديون مصانع للأسلحة والذخيرة في كل من تارودانت ومراكش وفاس، وكان يتم استغلال معادن النحاس والحديد وملح البارود لصناعتها.
2- عمار خروف - المرجع السابق - ص: 96.
3- الناصري - المصدر السابق - ص: 89.
4- أبو القاسم الزياني - تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب - تق: رشيد الزاوية - ط: 1 - منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - 2008م - ص: 89.
5- للاطلاع على تفاصيل أكثر ينظر: الناصري - المصدر السابق.
6- أبو القاسم الزياني - المصدر السابق - ص: 89.
7- عيد الكرم - المغرب في عهد الدولة السعدية - ط: 3 - جمعية المؤرخين المغاربة - الرباط - د س ط - ص: 238.
8- شوقي عطا الله جمل - واد المخازن - معركة الملوك الثلاثة القصر الكبير - ط: 1 - دار الفكر - دمشق - د س ط - ص: 40.
9- عيد الكرم - المرجع السابق - ص: 232.
10- الناصري - المصدر السابق - ص: 190.

الزهراء رضي الله عنها، في سلسلة ذهبية من النسب الشريف النبيل⁽¹⁾؛ وكان أول من ادعى الأحقية بتولى زمام الأمور في المغرب⁽²⁾، المسمى محمد بن الشريف⁽³⁾ السجلماسي⁽⁴⁾، وعلى أساسه عرفوا بـ: "الشرفاء السجلماسيين"، استوطنوا منطقة تافيلالت⁽⁵⁾ وظل الأمر على ما هو عليه إلى غاية عصر الفوضى بعد

وفاة أحمد المنصور⁽⁶⁾.

عرفت هذه الأسرة في القرن الثالث عشر وما بعده بأسر الشرفاء السجلماسيين نسبة إلى مدينة

سجلماسة⁽⁷⁾ قاعدة إقليم تافيلالت الصحراوي قبل أن تتحول قاعدة الإقليم إلى مدينة الريصاني⁽⁸⁾.

تكمن قصة قدوم هذه الشخصية إلى المغرب اعتمادا على المصادر التاريخية إلى أنه وفد من الحجاج السجلماسيين كان يرغب في وجود شخصية من آل البيت النبوي بينهم حيث لم يكن بها أجد من آل البيت، فاتصل بشريف المولى قاسم بن محمد، وكان من أكبر شرفاء الحجاز في وقته فقها ووجهة، فطلبوا منه أن يرسل معهم أحد أولاده الثمانية إلى بلادهم تكريما وتشريفا لهم، فاستجاب الشيخ

¹ - سيار الجميل - تكوين العرب الحديث - ط1 - دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان، الأردن - 1997 - ص: 78.

² - كان المغرب آنذاك مقسما بين الدلايين في الأطلس المتوسط، الذين احتلوا فاس والوسط وأبي حسون الذي كان يحكم منطقة السوس، والأطلس الكبير، والخضر غيلان الذي كان في الشمال والسعديين والشبانان في مراكش وضواحيها. ينظر: محمد الفاسي - تاريخ إفريقي عام - ج3 - بحث نشر ضمن المؤلف الجماعي - ط2 - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - 1990 - ص: 241.

³ - الناصري - المصدر السابق - ص: 139.

⁴ - نسبة إلى سجلماسة التي تقع في صحراء المغرب بينهما وبين البحر خمس عشر مرحلة، وهي على نحر يقال له زيز؛ تعتبر من بين أعظم مدن المغرب على طرف الصحراء. ينظر: الحميري - الروض المعطار في خبر الأقطار - تح: احسان عباس - ط: 2 - مطابع هيدر لبرغ - بيروت - 1984م - ص: 305.

¹⁰ - كان جده الحسن بن القاسم بن محمد وهو المعروف بالحسن الداخل قد نزل بها واستقر فيها عند قدومه إلى المغرب على عهد الدولة المرينية سنة

1265م وبها توفي سنة 1277م. للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموضوع ينظر: الناصري - المصدر السابق - ج: 7.

¹¹ - صالح العقاد - المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر " الجزائر، تونس والمغرب" - ط6 - مكتبة الأنجلو المصرية - 1993م - ص: 63.

⁷ - سجلماسة: موقعها في صحراء المغرب بينهما وبين البحر خمس عشر مرحلة، وهي على نحر يقال له زيز؛ تعتبر من بين أعظم مدن المغرب على طرف طرف الصحراء. ينظر: الحميري - الروض المعطار في خبر الأقطار - تح: احسان عباس - ط: 2 - مطابع هيدر لبرغ - بيروت - 1984م - ص: 305.

⁸ - كان جده الحسن بن القاسم بن محمد وهو المعروف بالحسن الداخل قد نزل بها واستقر فيها عند قدومه إلى المغرب على عهد الدولة المرينية سنة 1265م وبها توفي سنة 1277م. للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموضوع ينظر: الناصري - المصدر السابق - ج: 7.

الشريف لطلب الوفد، واختار من أولاده من يليق بتمثيلهم، في بلد إسلامي عرف بحب أهله وتمجيدهم لآل البيت رضي الله عنهم⁽¹⁾، وكان الإبن المختار هو الحسن الداخل⁽²⁾.

برزت من سلالة الحسن الداخل شخصيات لعبت أدورا محورية ومهمة في تاريخ المغرب الأقصى الحديث من أهمها المولى علي الشريف، برز هذا الأخير في ميدان الجهاد وفي مجالات البر والإحسان، وعلينا أن نقول بأن الأول الذي عرف بعلي الشريف، تميزا له عن علي الشريف الابن، وهو الثاني، وعلي الشريف بن محمد - الحفيد - وهو الثالث. وعرف بعلي الشريف المراكشي⁽³⁾، ولكن كان نجم الأسرة العلوية المالكة قد تألق ولمع سياسيا واجتماعيا على عهد مولاي علي الشريف الأول. فإن صيتها قد ذاع

على أيام مولاي الشريف الذي تزعم انتفاضة سجلماسة⁽⁴⁾.

كان المغرب الأقصى خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخه مقسما بين قوى متعددة كان التنافس والتنافس السمة البارزة والمشاركة بينهم، ومن بين أوجه الصراع الذي أدى إلى ظهور الدولة العلوية في مسرح الأحداث نذكر ازدياد نفوذ المولى علي الذي أوغر صدر أبا حسون السملالي، هذا الأخير استولى على القصر السوسي ودرعة أولا ثم سجلماسة ثانيا، فأوجس خيفة من المولى علي الشريف فألقى القبض عليه واعتقله بمنطقة سوس؛ بعدها قام ابنه مولاي محمد بانتفاضة تنازل له على أثرها بالامارة، وكان أصحاب أبي حسون قد أساءوا السيرة بسجلماسة، وضيقوا على الرعية⁽⁵⁾، كل هذه المستجدات الخطيرة دفعت بسكان سجلماسة على التمرد ومبايعة المولى محمد بن الشريف سنة 1640م، بعدما استشاروا أهل الحل والعقد، فكان هذا الحدث مبدأ تأسيس الدولة العلوية.

¹ - للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموضوع ينظر: الناصري- المصدر نفسه- ج:7- ص ص: 9-11.

² - كان الحسن الداخل رجلا صالحا ناسكا زاده العلم جلاله ومهابة، أحبه الناس وأكبروه واجتمعوا حوله للاستفادة من علمه، وقد تزوج وهو في الستين من عمره بابنة أبي إبراهيم أحد وجهاء سجلماسة رئيس الوفد الذي كان له شرف القدوم له. وأنجب الشريف ولدا واحدا هو محمد بن الحسن؛ ثم أنجب هذا الأخير ولدا واحدا كذلك، هو الحسن الذي أنجب ولدين اثنين هما: عبد الرحمان المعروف بأبي البركات، وعلي المعروف بالشريف السجلماسي. للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموضوع ينظر: الناصري- المصدر السابق.

³ - يتواجد ضريحه في مراكش، تلقاء ضريح القاضي عياض، بنى عليه قبة بديعة.

⁴ - شوقي عطا الله الجمل- المغرب الكبير في العصر الحديث "ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب"- ط:1- مكتبة أنجلو مصرية- القاهرة- 1977م- ص:

209.

⁵ - الناصري- المصدر السابق- ص:12.

مهدت انتفاضة المولى الشريف لقيام الدولة العلوية بصفة شرعية سنة 1640م. بمبايعة أهل الحل والعقد لولده محمد بن الشريف بن علي الشريف الثالث وهو المعروف في تاريخ الدولة العلوية بمحمد الأول. وقد جددت له البيعة إثر وفاة والده الشريف سنة 1658م⁽¹⁾. وعلينا أن نقول بأن الفترة التي قضاها محمد الأول في الحكم إلى وفاته سنة 1644 كانت فترة انتقالية بين عهدين، عهد الحركات الطائفية المتصارعة على النفوذ والحكم، نتيجة ضعف الدولة السعدية وانحلالها، وعهد انبعاث النظام وانتصار المشروع الممثلة في اختيار الساكنة المغربية للأسرة العلوية التي أعادت للبلاد وحدتها وسيادتها⁽²⁾.

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وقعت حروب بينه وبين أبي حسون انتهت بانتصار المولى محمد وفرار أبي حسون نحو مسقط رأسه من أرض السوس، مما مكن المولى محمد من الاستيلاء على درعة وأعمالها⁽³⁾، كما أثمرت هذه الانتصارات إلى ازدياد التفاف الرعية حوله، فذاع صيته في بلاد المغرب كله⁽⁴⁾. مما شجعه على بسط نفوذه على باقي أجزاء المغرب الأقصى لتوحيد السلطة كلها في يد حاكم واحد⁽⁵⁾. فراودته فكرة مشروع الاستيلاء على المغرب، ولن يتأتى له ذلك إلا بالاصطدام عسكريا مع أبي

عبد الله محمد الحاج الدلائي الذي امتد نفوذه إلى غاية فاس ومكناسة وأعمالها وسلا⁽⁶⁾.

انتهت المواجهة العسكرية بين الجيشين الواقعة سنة 1646م بانتهزام محمد الشريف، مكنت الدلائي من الزحف نحو سجلماسة فتمكن منها⁽⁷⁾ لكن رفض السكان لحكمه أجبرته على عقد صلح مع محمد الشريف نص على اقتسام مناطق النفوذ فجعلوا ما دون جبل بني عياش للمولى محمد

¹ - محمد الأمين محمد وآخرون- المفيد في تاريخ المغرب - د ط - دار الكتاب للنشر - الدار البيضاء - د س ن - ص: 214.

² - الناصري-المصدر السابق- ص: 16.

³ - الناصري-المصدر السابق- ص: 12.

⁴ - اليفرنيني - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي - تق: هوداس - مطبعة أرنست لورو - باريس - 1989م - ص: 293.

⁶ - شوقي الله الجمل - المرجع السابق - ص: 210.

⁶ - سلا: مدينة أزلية بناها الرومان وتغلب عليها القوط ولما دخلت الجيوش الإسلامية إلى المنطقة سلمها القوط إلى طارق بن زياد، وقد بنيت هذه المدينة على الشاطئ المحيط في موقع جميل غير بعيد عن الرباط أكثر من ميل ونصف ويفصل نهر أبي رقراق بين المدينتين. ينظر: حسن الوزان - المصدر السابق - ج: 2 - ص: 207.

⁷ - الناصري- المصدر السابق- ص: 16.

الشريف⁽¹⁾ عدا خمس أماكن لا يحرك له فيها ساكننا: الشيخ مغفر في أولاد عيسى من بلد الرتب، والسيد الطيب في قصر السوق من بلد مضفرة، والشيخ أحمد بن علي العثماني من بلد الخنق وقصر قلميمة في وطن غريس، وقصر غريس في بلد فركلة، فكلهم من ناحية محمد الحاج الدلائي وما فوق ذلك من البلاد فهو خاص بهم⁽²⁾.

لكن لم يلبث أن تطورت العلاقات بين الطرفين تطورا سيئا، فتنازعا فيما بينهم وإنتهى بالقضاء على الزاوية الدلائية⁽³⁾ وعندما كانت فاس تحت سيطرة محمد الحاج الدلائي كان أهلها غير مستقمين في طاعتهم له فولى عليهم قائده أبا بكر الثاملي على فاس الجديدة فوقعت الحرب بينهم وحاصرهم وهذا ما جعلهم يكتبون إلى المولى الرشيد ويستغثون به فسارع إليهم حتى إقتحم دار الإمارة بفاس الجديدة وذلك في جمادى الثانية 1060هـ/1649م وقبض على أبي بكر الثاملي فسجنه وبايعه أهل فاس القديمة والجديدة معا، وعندما إتصل الخبر بمحمد الحاج جهاز إليه جيشا كثيفا لمواجهة المولى محمد بحيث انهزم هذا الأخير بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء 10 شعبان سنة 1064هـ/1653م وولى الحاج الدلائي ابنه على فاس إلى أن توفي في 20 ربيع الأول سنة 1064هـ وخلفه أخوه محمد وتوفي سنة 1070هـ/1659م ثم تولى أمر فاس أبو عبد الله الدردي⁽⁴⁾.

اتجهت أنظار المولى محمد الشريف نحو الأقاليم الشرقية من المغرب للإستيلاء على وجدة التي

كان

بها حزين بعضهم ولاءهم للعثمانيين وبعضهم الآخر خارج عنها، فإبجاز الخارجون إلى المولى محمد فقاموا ضد العثمانيين، وكانت النتيجة تشريدهم عن البلد ونهبهم وبهذا صفت وجدة له فاستولى عليها وكان ذلك في 1060هـ/1649م كما أنه شن غارات على القبائل المجاورة لها حتى دخلوا تحت

¹ - شوقي الله الحمل - المرجع السابق - ص: 211.

² - الضعيف الرباطي - تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) - تح: أحمد العامري - ط: 1 - دار المؤثرات - الرباط أكادال - 1406هـ/1986م - ص: 13.

³ - شوقي الله الحمل - المرجع السابق - ص: 211.

⁴ - الناصري - المصدر السابق - ص: 29.

طاعته⁽¹⁾. وفي 13 من رمضان سنة 1069هـ/1658م توفي علي الشريف، فجدد الناس بيعتهم لإبنه محمد، وأنداك فر منه أخوه الرشيد متحصنا في الجبال⁽²⁾.

وفيما يلي نلخص أهم الأحداث التاريخية التي وقعت خلال الفترة قيد الدراسة

جدول يوضح أهم المستجدات على الصعيد السياسي والجغرافي والاجتماعي

الحدث	تطورات	نتائجه
القضاء على الزاوية الدلائية	نظرا للمكانة العلمية والدينية والاجتماعية قرر المولى محمد الشريف ازالة الزاوية من على الوجود حتى تؤثر على معنويات وقوة الدلائي	كانت لها انعكسات وخيمة على المسويين الاجتماعيين والسياسيين
سقوط مدينة فاس في يد المولى الرشيد سنة 1649م وانعكاساتها على سير الأحداث	1- بعد هذه الهزيمة توجهت أنظار المولى الرشيد نحو منطقة وجدة 2- خروج أهل فاس عن طاعة الدلائي وتولية قائده أبا بكر الثاملي عليهم. 3- رفض السكان للقائد وخروجهم عليه 4- الاستعانة بالمولى الرشيد الذي اقتحم دار الامارة بفاس والقبض على أبي بكر الثاملي 5- نتيجة لهذه المستجدات وقوع مواجهة عسكرية عنيفة بين جيش المولى الرشيد وجيش ابن الدلائي سنة	1- استيلاء المولى الرشيد على وجدة خلال سنة 1649م. 2- شن غارات على القبائل المجاورة لوجدة واخضاعهم له. 3- انهزام المولى الرشيد في المعركة 4- تولية الدلائي ابنه أحمد على فاس وبقي كذلك إلى غاية وفاته. 5- خلف أخوه محمد حكم المنطقة واستمر في ذلك إلى غاية ساعة وفاته سنة 1659م 6- بعد وفاته تولى أمر فاس أبو عبد الله الدريدي

¹ - الضعيف الرباطي - المصدر السابق - ص: 30.

² - محمد الأمين محمد وآخرون - المرجع السابق - ص: 214.

	1653م.	
ظهور صراع خطير بين علي الرشيد والمولى الرشيد انتهى باغتيال هذا الأخير وتولية المولى الرشيد على الحكم وكان ذلك في سنة 1664م واستمر في الحكم إلى غاية سنة 1672م.	1- تجديد البيعة لابن علي الشريف محمد 2- فرار المولى الرشيد إلى الجبال. 3- الخروج على بيعة أخيه المولى محمد، ومحاربتة له.	وفاة علي الشريف سنة 1658م

عقب تولية المولى الرشيد الحكم كان عليه أن يواجه عدة تحديات على شتى المستويات حتى يتمكن من بسط نفوذه وحكمه على كل المناطق فعرفت فترة حكمه العديد من المستجدات مكنته من فرض سيطرته على المغرب الشرقي وسجلماسة، وفاس فأحواز مكناسة ثم سهل بطن الرمان، فمراكش. توفي المولى الرشيد سنة 1672م وتولى الحكم بعده المولى اسماعيل بن الشريف ثالث مؤسسي الدولة العلوية في المغرب وثاني سلاطينها وأبرز ملوكها، فقد عمل وسعى على تثبيت عرشه وملكه وفرض سلطانه في الداخل قبل الخارج⁽¹⁾. ومن خلال هذا الجدول لنا وقفة مع أهم الانجازات التي تم اتخاذها في سبيل احداث تغييرات تهدف إلى احداث نهضة تنموية تعيد للمغرب الأقصى مكانته التي نالها خاصة على عهد أبو منصور الذهبي.

جدول يوضح أهم التعديلات والاجراءات التي تم اتخاذها على عهد الدولة العلوية

طبيعة الميدان	في سابق عهدها	التغييرات التي تم استحداثها
الميدان العسكري	الأمن غير مضمون على النفس والمال إذ لا توجد شرطة وطنية ولا جيش وطني نظامي ولا شعبي على النطاق الوطني لمقاومة	1- أوكل الاشراف على الأمن لأعوان المخازنية وتقوم الحامية بقيادة قائد الرحي بمساعدة سلطات البلد على اقرار الإمن. 2- بناء جيش قوي تركز مهمته في الدفاع على السيادة الترابية ومواجهة الأخطار الداخلية

¹ - الناصري- المصدر السابق- ص ص: 41- 42.

والخارجية من اضطرابات وحروب.	الاحتلال الأجنبي	
3-استحداث فرق من الجيش ضمت بعض القبائل التي عرفت بقوتها وشراستها.		

خاتمة المحور السادس من المقياس:

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج لعل من أهمها

نذكر:

✓ كان المبرر الرئيس لاستبدال نظام الحكم الوطاسي بالسعدي ومبايعة المغاربة للامام عبد الله كان بالدرجة الأولى صد العدوان الصليبي على البلاد، ثم تغيير الأوضاع المزرية في شتى المجالات.

✓ أدى الانتصار الذي حققه الجيش السعدي إلى انهيار القوة العسكرية والمعنوية للبرتغال والدول الحليفة، وهو ما وضع حدا للأطماع الاستعمارية بشأن المغرب، كما عمل على تقوية المغرب وتعزيز مكانته. إذ شكلت المعركة نقطة تحول كبيرة في تاريخ المغرب، فقد ترتب عليها العديد من النتائج مست الكثير من الجوانب.

✓ حكم السعديون المغرب الأقصى قرابة قرن من الزمان. ومن أهم خصوصيات هذا النظام السياسي الجديد أنه غاير الدول التي سبقته على مستوى عصبيته التي لم تستند إلى عصبيات قبلية كبرى ونافذة بالمغرب مثل صنهاجة ومصمودة وزناتة، أو الأصول الأمازيغية. بل استندت إلى عنصر معنوي مغاير هو عنصر "الشرف". وقد عاشت هذه أطوار الدولة ثلاثة، متقاربة فيما بينها من حيث المدة، غير أن الغالب عليها كان هو الاضطراب والصراع مع قوى الداخل والخارج.

✓ اعتبر تأسيس الدولة العلوية بمثابة انتقال قوية وفعالة مست كل الميادين سواء الجانب المالي أو السياسي وحتى الإداري، كما غيرت توجهاتها على الجبهة الخارجية إذ سعت

لتكوين شخصية دولية تحاول أن تبقى على وجودها وسط صراعات دولية خاصة
على

مستوى البحر الأبيض المتوسط.

✓ تعتبر الدولة العلوية، التي ما زالت مستمرة إلى اليوم، من أبرز الدول التي تعاقبت على
حكم المغرب الأقصى. وقد استطاعت الحفاظ على استقراره ووحدته بالرغم من
الظروف الصعبة التي ظهرت في سياقها داخليا وخارجيا، حيث الفتن والانقسام
الداخلي الحاد والمد الصليبي على السواحل المغربية.

✓ من بين أهم العوامل التي ساعدت العلويين على تحقيق أهدافهم السياسية، دون
غيرهم من القوى التي كانت تنافسهم على حكم المغرب، جملة من الأسباب، من
أبرزها وانتسابهم للسلالة النبوية الطاهرة، إضافة إلى كفاءة قادتها الأوائل.

المحور السابع

تطور نظام الحكم في تونس

(1) - التدخل العثماني في تونس ظروفه ومجرياته (1531-
1574م)

(2) - تونس ولاية عثمانية مباشرة من الجزائر (1574 -
1590م)

3)- التطور السياسي لتونس من حكم البشوات وإلى غاية

حكم الأسرة الحسنية

1)- التدخل العثماني في تونس ظروفه ومجرباته (1531-1574م): لعب السلطان

أبو الحسن الحفصي دورا مهما في التمهد لمشروع عثمانة الفضاءات العثمانية، فقد سمح للأسطول البحري الذي كان يقوده الاخوة بربروس "عروج، خير الدين واسحاق" هؤلاء أخذوا على عاتقهم مهمة حماية الإسلام والمسلمين خاصة الأندلسيين⁽¹⁾، اتخذ من جزيرة جربة قاعدة لتحركاتهم العسكرية⁽²⁾. ولكن الأمور أخذت تسير باتجاه معاكس خاصة بعد محاولة الاخوة بربروس تحرير بجاية سنة 1512م⁽³⁾.

فقد احتلت مدينة بجاية مكانة مرموقة ليس على مستوى المغرب الأوسط فقط وإنما على

مستوى

المغرب الاسلامي عموما⁽⁴⁾، فقد اعتبرت من بين أهم مراكز الاشعاع العلمي والحضاري، وذلك بفضل مدارسها المتخصصة في علوم الطب والفلسفة وعلم الكلام؛ كما احتلت موقعا استراتيجيا

¹ - Sylvie Martorell- Op. Cit- P : 58.

² - بن بلة خيرة، المرجع السابق. ص: 6.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: أحمد توفيق المدني- المرجع السابق.

⁴ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: ابن خلدون بن محمد بن عبد الرحمن- تاريخ ابن خلدون - المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- ج: 6- د ط- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- 1391هـ/1871م- ص: 353 وما يليها.

أكسبها رقيا اقتصاديا⁽¹⁾؛ وظلت كذلك طيلة الحقبة الوسيطة ولكن مع سقوط الحماديين الذين اتخذوا منها عاصمة لحكمهم⁽²⁾ تعرضت المدينة لتحرشات عسكرية من الحفصيين، هؤلاء تمكنوا من السيطرة عليها والحاقها اداريا بالمملكة الحفصية في تونس، مستفيذين من الضعف السياسي والعسكري الذي آلت إليه المملكة الزيانية.

بظهور هذه المستجدات دخلت بجاية عهدا جديدا من تاريخها، عهد كله فتن وصراعات⁽³⁾ انتهى بزج حاكم بجاية عبد الله في السجن بعد أن أفقده عبد الرحمن الحفصي بصره⁽⁴⁾؛ أمام هذا التمزق السياسي قررت السلطات الاسبانية شن حملة عسكرية لاحتلال المدينة، خاصة وأنه وصلتها تقارير أكدت على ثراء سكانها والبالغ عددهم حوالي ثمانية آلاف أسرة. مكنتها هذه الحملة من احتلال المدينة سنة 1510م وطرد الحفصيين منها بل من كل الشرق الجزائري⁽⁵⁾.

على إثر هذه المستجدات الخطيرة قرر الاخوة بربروس نقل قاعدتهم العسكرية المتواجدة في جزيرة جربة إلى حلق الوادي الذي كان أكثر أمانا من الأول. بعدما ايقن سكان بجاية أن الاسبان تمكنوا من المنطقة ومن مناطق كثيرة، وأصبحت قوتهم تزداد يوما بعد يوم في ظل غياب أية قوة ترد هذا الخطر الصليبي؛ لهذا أخذوا يبحثون فوجدوا في قوة العثمانيين المنفذ والمنقذ الوحيد من بطش وظلم الاسبان، لذلك قرروا ربط اتصالات بهم بغية تحصيل تدخل عسكري في بجاية.

لم يطل رد الاخوة بربروس على نداء البجاويين، إذ قرروا في السنة نفسها مواجهة الاسبان، لهذا الغرض أقلع عروج بعمارة بحرية من حلق الوادي، واشتبكت قواته مع القوات الاسبانية إلا أنه لم

¹- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: محمد الطمار- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج- د ط- الشركة الوطنية لنشر والتوزيع- الجزائر- 1983- ص: 178 وما يليها.

²- استقر المنصور بن ناصر بن علناس بمدينة بجاية منذ سنة 461هـ/1068م بعد أن نقل إليها ذخائر وودائع القلعة سنة 483هـ/1091م ينظر:

Charles Féraud- Histoire des villes de la province de Constantine- R,C- Volume :3- 1869- P P :130,131.

و لقيت بالناصرية، نسبة إلى مؤسسها الناصر بن علناس ابن حماد بن زيري ينظر: أحمد بن عبد الوهاب النويري- المغرب الإسلامي في العصر الوسيط- من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب- تح وتع: مصطفى أبو ضيف أحمد- د ط- د النشر المغربية- الدار البيضاء- د س ن- ص: 349.

⁷ Charles Féraud, Conquête de Bougie par les espagnols d'après un manuscrit arabe- R. A- T: 12-1868- P: 248.

⁴- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: مرمول كرخال- المصدر السابق- ص: 271.

2- Charles Féraud_ Histoire des villes de la province de Constantine_ R,C, 1871_1872_254.

يحقق الانتصار المرجو، ذلك أن عروج أصيب إصابة خطيرة في يده أجبرت القوات على الانسحاب عائداً إلى حلق الوادي بهدف معالجة إصابة عروج، ولكن الأطباء عجزوا على انقاذها فقرروا في نهاية المطاف بثرتها حفاظاً على حياته⁽¹⁾.

(2) - تونس ولاية عثمانية مباشرة من الجزائر (1574-1590م): من خلال التدخل

العسكري العثماني تأكد الملك الحفصي أن الاخوة بربوس كانوا يحملون طموحات كبيرة تهدف إلى التوسع باسم الاستنجد وتقديم الدعم العسكري، وهذا المشروع الطموح يقتضي بطبيعته أن تقف وراءه دولة قوية تسنده وتحتضنه وتعمل على تجسيده، وفي واقع الأمر كان السلطان يزعجه هذا الطموح، ومما زاد من مخاوفه محتوى الرسالة التي بعثها السلطان العثماني لشخصه نصت بضرورة تقديم الدعم المادي والمعنوي للاخوة بربوس⁽²⁾، حينها أدرك أبو الحسن الحفصي أن الاخوة بربوس لم يعودوا مجرد بحارين ممثلين للسلطان العثماني وما ضاعف تخوفاته اعلان الجزائر ولاية عثمانية منذ سنة 1520م⁽³⁾. وبهذا أصبح غير قادر على تحمل وجود دولة قوية مجاورة لمملكته يمكنها أن تهدد سلطانه ووجوده.

أمام هذه المستجدات الخطيرة حاول الملك الحفصي أن يبحث له عن حلول تخرجه من هذا المأزق، فقرر التآمر مع السلطان الزياني لاجهاض المشروع العثماني في الجزائر تطبيقاً للقاعدة السياسية التي تقول "عدو عدوي صديقي"، وهكذا بدأت رحلة التآمر على الوجود العثماني انطلاقاً من المملكتين الحفصية والزيانية، فاتفقا على أن يقوم الملك الحفصي باقناع ابن القاضي⁽⁴⁾ بالتمرد على

¹ - أحمد توفيق المدني - المرجع السابق - ص: 150، 151.

² - خير الدين بربوس - مذكرات خير الدين بربوس - تر: محمد الدراج - ط: 1 - الامالة للنشر والتوزيع - الجزائر - 2010م - ص: 68، 69.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: خير الدين بربوس - المصدر السابق.

⁴ - أحمد بن القاضي: ينحدر ابن القاضي من أسرة أبو العباس الغبريني، هذا الأخير كان عالماً بعلوم الشريعة والفقه، عمل قاضياً لدى حاكم بجاية عندما كانت تحت سلطة الحفصيين. ينظر: كورين شغالييه - المرجع السابق - ص: 25. استغل أبو العباس نفوذه الديني المرابطي لعائلته وماضيه الإداري، ليفرض سلطته على قبائل المنطقة فوافقت هذه الأخيرة ولكن اشترطت عليه أن يكون تحت حمايتهم، مقابل التحالف معه والاقامة في أراضيهم بعدما كان يقيم في قرية أوبر. ينظر: علي بن شيخ - نشأة مملكة كوكو وتطورها السياسي والعسكري والاقتصادي ما بين القرنين 16-18م - مجلة الحوار المتوسطي - سيدي

خير الدين⁽¹⁾ بينما يقوم السلطان الزياني أبو حمو الثالث بتأليب القبائل ضده وتقديم كل وسائل الدعم.

عندما علم خير الدين بالدسائس التي كانت تحاك ضده أرسل رسالة إلى الملك الحفصي يلومه من خلالها على موقفه العدائي هذا وينصحه بالعودة والتراجع عنه، لكن الملك الحفصي لم يلتفت له، بل بالعكس ترجم موقفه العدائي بتجهيز جيش لاحتلال مدينة الجزائر، حينما علم خير الدين بالخبر توجه نحو الشرق الجزائري وعسكر هناك.

التقى الجيشان ووقع اشتباك بين الطرفين، ولكن المفاجأة في الأمر أن ابن القاضي التحق بالجيش الحفصي رفقة أتباعه بهدف دعمه، هذا ما تسبب في قتل الكثير من جنود خير الدين ما اضطره إلى الانسحاب نحو جيجل بصعوبة كبيرة⁽²⁾. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أرسل السلطان الحفصي إلى أتباعه بقسنطينة خلال الفترة الممتدة من سنة 1525 و1527م يحرضهم على التمرد عليه، ولكن خير الدين استطاع أن يخمد لهيب العصيان وأعاد السيطرة على المدينة، وفقد بذلك الحفصيون نفوذهم على جميع المقاطعات الغربية والصحراوية لبايلك الشرق نهائيا بعدما أعلنت هذه المناطق خضوعها للعثمانيين.

لم يستسلم السلطان الحفصي لمصيره بل حاول مرة أخرى أن يبحث له عن حليف يقدم له الدعم في معركته ضد خير الدين ومن ورائه مشروع عثمانة الولايات المغاربية، فوجد في الاسبان الحليف الأمثل لذلك، أيضا تطبيقا للقاعدة السياسية "عدو عدوي صديقي"، فقد وجد فيها الملك الحفصي أحسن وسيلة لبلوغ هدفه. لذلك بعث للاسبان المتواجدين في بجاية يعرض عليهم خدماته، فقبلوا بذلك خدمة لمصالحهم في المنطقة، ومنذ ذلك الوقت أخذ الصراع الحفصي العثماني يأخذ شكلا رسميا وعدوانيا، إلى أن ألحقت تونس رسميا بالخلافة العثمانية سنة 1574م.

عرفت المرحلة الأولى من الحكم العثماني في تونس بمرحلة البشاوات، كانت بدايتها كانت من سنة 1574م وانتهت خلال سنة 1590م، كان يتم تعيين الباشا مباشرة من السلطان العثماني الذي

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: مارمول كريخال - المصدر السابق.

² - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: خير الدين بربروس - المصدر السابق.

حددت مدة حكمه بثلاث سنوات فقط مثلما كان الأمر ساري به في الجزائر خلال حكم البشاوات، وقد أسندت إليه مهمة دفع رواتب الجنود الإنكشارية وإدارة شؤون البلاد بمساعدة مستشارين⁽¹⁾.

أول شخصية حكمت هذه الفترة هو سنان باشا، هذا الأخير كان تابعا بصورة مباشرة لحاكم الجزائر⁽²⁾، على أن يسيرها باسمه حاكم مدني يحمل لقب الباشا بمساعدة الديوان العام، هذا الأخير ضم كبار الضباط والأعيان، بالإضافة إلى الباي الذي كان بمثابة وزير الشؤون المالية. كما نجد أيضا الآغا قائد الفرقة الإنكشارية، ثم مجموعة الدايات وهم ضباط تابعين للآغا، فالقابودان وهو قائد البحرية.

وقد عرفت تونس منذ التحاقها بالخلافة العثمانية، إعادة تشكل لمعظم مؤسساتها وبالدرجة الأولى المؤسسة العسكرية مؤلفة في ذلك بين مثال القوة العثمانية المنتصرة وإرثها الحفصي الذي لم يضمحل. ويرجع تكوين الجيش الإنكشاري في المنطقة إلى سنة 1574م بعد انتصار سنان باشا على الجيوش الإسبانية. بلغ عدده ما بين 3000 و4000 جندي منظمين على منوال الوحدات العثمانية. فكان الجند مقسما إلى بيوت كان عددها في البداية حوالي 150 بيت ضمت كل واحدة منهم حوالي 20 جنديا، وعرف جند الإيالة نموا متواصلا حتى بداية القرن التاسع عشر وذلك حسب الحاجة العسكرية أو الظروف السياسية. وقد بعدة خصائص جعلته يتفوق على غيره من القوات الأمنية والدفاعية المتواجدة في الإيالة.

كما امتلكت الإيالة أسطولا بحريا كانت قاعدته بنزرت، ساهم بشكل كبير في ازدهار البلاد، وسيبقى هذا القطاع حيا- مرورا بفترات ركود- حتى حملة أكسماوث سنة 1816م، وطوال هذه الفترة مثل العمل البحري نشاطا حريا واقتصاديا كانت تمارسه الإيالة. وغالبا ما كان يتكون الطاقم العام للأسطول من رؤساء السفن الذي هم أصلا مجموعة من كبار ضباط الجيش كان لهم وزهم الخاص وغالبا ما يكونون في البداية من الأعالج المنتمين إلى وجق تونس، أما بالنسبة للبحارة الذين

¹ - عثمان الكعاك- العلاقات بين تونس وايران عبر التاريخ- د ط- الشركة التونسية للتوزيع- تونس- 1972- ص: 58.

² - عبد الجليل التميمي- المرجع السابق- ص: 107.

كانوا يشاركون في الحملات فهم من عسكر تونس، يتطوعون للقيام بهذه المهام وغيرها من المهام العسكرية.

3)- التطور السياسي لتونس من حكم الدايات وإلى غاية حكم الأسرة الحسنية: استمر حكم الباشاوات إلى غاية سنة 1591م، ليصبح الحكم بعد ذلك عن طريق الدايات الإنكشاريين، هؤلاء نفذوا انقلابا عسكريا ضد الباشا وأعضاء الديوان وافتكوا منهم الحكم، وكان أول من استلم الحكم هو ابراهيم رودسلي الذي أعلن تبعيته مباشرة للخليفة العثماني⁽¹⁾.

ومن بين أشهر الدايات الذين حكموا البلاد خلال هذه الفترة نذكر عثمان داي للفترة الفاصلة بين 996-1019هـ/1593-1610م⁽²⁾، حيث نجح في السيطرة على البلاد ونشر الأمن والازدهار، كما شجع النشاط البحري ضد الأوروبيين وجمع منها أموالا طائلة. وشجع أيضا توافد واستقرار الأندلسيين بالمنطقة، لما كان لهم من تأثير مباشر على ازدهار الكثير من الميادين الاقتصادية والعلمية.

فقد منح العديد من الامتيازات لهؤلاء المهجرين الأندلسيين⁽³⁾ إذ ذكرت إحدى الروايات التاريخية أنه: "... أعفى الداى المورسكيين من دفع الضرائب خلال السنوات الأولى لنزولهم بتونس وترك لهم أيضا من ناحية أخرى حق اختيار مكان إقامتهم بوطنهم الجديد الإسلامي..." فكان التونسيون الجدد، حسب الرواية نفسها "جنودا دون رواتب خاضعة للسلطة التركية."⁽⁴⁾

وفي مقام آخر نلاحظ وصفا دقيقا للاحتفاظ بحق اللجوء الذي قرره كل من عثمان داي و"سيدي بلغاز" للمطرودين فورد فيه ما نصه "... في أرض الإسلام تلك استقبلنا كل من عثمان داي ملك تونس الذي كان شديد التواضع إلى حد أننا اعتبرناه لقمة سائغة واستقبلنا سيدي

¹ - عبد الوهاب حسني - خلاصة تاريخ تونس - د ط - الدار التونسية للنشر - تونس - 1983م - ص ص: 160، 161.

² - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول هذه الشخصية ينظر: عبد الرحمن المؤذن وعبد الرحيم بنجاده - العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة - ط: 2 - منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية - الرباط - 2005م - ص ص: 160، 161.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: مكيال دي إيليزا - وثائق جديدة حول الأندلسيين - تع: نور الدين الحلاوي - المحلية التاريخية المغربية - تونس - ع: 15 - 16 - جويلية 1979م - ص ص: 137، 138.

⁴ - نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم 9653 - لوت لويات بالرات - غم المنفي الخفي (شهادة مورسكي من تونس) - بحث قدم ضمن أعمال المائدة المستديرة الموسومة ب: الأدب الأحميادو - المورسكي، تزواج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي - تونس - ص: 25.

بلغايز بروحه الطيبة وقد حاولوا جميعا حسن معاملتنا مقدمين لنا الهدايا بكل حب وصدقة(*) .
وتراجع عثمان داي عن عادة دفع مائه إسكودو لكل مركب يرسى بالميناء جعلها بغية خلق
روح المنافسة بين أصحاب المراكب...⁽¹⁾

وأضاف مؤكدا بأنه في هذه المدينة تركت لهم حرية اختيار مكان استقرارهم مرغما البعض
منهم على اختيار المهديّة، كما تم تمويلهم بالقمح والشعير والأسلحة. ولم يكن ذلك ليدهشهم نظرا
لما عرف به الداى عثمان من كرم وشجاعة، فقد ذكر أحد الأندلسيين المقيمين في تونس تحت
حكمه بأنه أعفاهم من دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات، وهذا دليل آخر على توفير الظروف
الملائمة والحياة الكريمة لهؤلاء المهجرين⁽²⁾.

أيضا من بين النماذج المشرفة التي حكمت خلال هذه الحقبة نذكر يوسف داي الذي اهتم
بالجانب العمراني فشيّد الجوامع والمدارس والأسواق والحمامات، كما ترتب على حكمه للبلاد تحولات
عميقة مست بالخصوص المستويين الاقتصادي والاجتماعي، أيضا أفضت الاصلاحات التي حققها
هذا الحاكم إلى إكساب مشروع الدولة المراقبة لمجالها الجغرافي، وأعطت مدلولاً تريبيا للسيادة من حيث
الالتزامات الضريبية التي وقع تقنينها وذلك عكس ما كان معمول به على عهد الدولة الحفصية
المخزنية القائمة على "تجميع الجموع"، كما غيرت النسيج الاجتماعي التونسي في العمق ونقلته
من "جموع" مشتتة لا رابط بينها إلى مفهوم الشعب الكتلة الموحدة تحت مظلة الدولة، ما يعني أن
تونس في تلك الفترة كانت تشهد حراكا فكريا وإصلاحيا⁽³⁾.

لم يدم الأمر على ما كان عليه بل عرفت هذه الفترة تراجعاً وضعفاً مما أدى إلى زوالها سنة
1648م، وعقبها مرحلة جديدة من تاريخ تونس الحديث أطلقت عليها الدراسات التاريخية فترة

*- المعلومات نفسها أكدها أحمد بن قاسم الحجري، إذ كتب حول الموضوع يقول: "... أكثرهم خرجوا بتونس، وكان عثمان داي أميرا فيها، وتكفل
أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها في القرى، وأحسن اليهم غاية الاحسان . أحسن الله اليه" .. ينظر: الحجري أحمد بن قاسم- ناصر الدين

على القوم الكافرين- تح: رزوق محمد- ط: 1- كلية الآداب والعلوم الانسانية- دار البيضاء- 1407هـ/1987م- ص: 55.

¹- نقلا من مخطوط: غم المنفي الخفي، رقم: 9653، (المرجع السابق). ص: 25.

²- المرجع نفسه- ص: 25.

³- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: أحمد بن عامر- تونس عبر التاريخ- ط: 1- مكتبة النجاح- تونس- 1379هـ/1960م.

البايات أو العهد المرادي التي تأسست على يد مراد بك⁽¹⁾، واستمرت هذه المرحلة إلى غاية سنة 1705م، تولى حمودة باشا منصب الباي مدة 35 عاما استطاع خلالها تدعيم سلطته على حساب الدايات⁽²⁾. فعلى عكس الدايات الذين كانت سلطتهم محدودة في العاصمة استطاع الباي فرض نفوذه في باقي البلاد بفضل عائدات الجباية وانفتاحه على أعيان التجمعات الداخلية وتحالفه مع القبائل.

شهدت البلاد خلال فترة حكم حمودة باشا، نهضة عمرانية بإنشاء عدة أسواق وبنيات كجامع حمودة باشا ودار حمودة باشا ودار الباي. وبعد وفاته عام 1666 خلفه ابنه مراد باي الثاني الذي استطاع التغلب على الدايات حاج علي لوز الذي حاول إزاحته من منصب الباي⁽³⁾. ولكن بعد وفاته دخل أولاده الثلاثة في سلسلة من الصراعات على الحكم أضعفت البلاد. وآل الحكم على التوالي ابتداء من 1675 إلى 1698، إلى علي الأول (1688 - 1675)، فمحمد الثاني (1688 - 1695)، ثم رمضان باي المرادي (1698 - 1695) وخلال سنة 1698م تمكن مراد الثالث من الإطاحة بعمه رمضان إلا أن حكمه لم يستمر طويلا إذ تم اغتياله على يد آغا الصبايحية إبراهيم الشريف بأمر من العثمانيين لينتهي بذلك حكم البايات المراديين. كافأ الباب العالي الشريف بتعيينه بايا ودايا في الوقت نفسه وبقي محافظا على الحكم⁽⁴⁾ إلى أن تم أسره من طرف داي الجزائر لتدخل البلاد في فراغ سياسي⁽⁵⁾، الذي استغله أحسن استغلال المدعو حسين بن علي ليعين نفسه بايا على البلاد سنة 1705م⁽⁶⁾، وبذلك يكون أول البايات الحسينيين.

¹ - محمد العربي الزبيدي - المرجع السابق - ص: 50.

² - اسماعيل أحمد ياغي - العالم العربي في التاريخ الحديث - ط: 1 - مكتبة العبيكان - الرياض، المملكة العربية السعودية - 1997م - ص: 138.

³ - المرجع نفسه - ص: 138.

⁴ - محمد حسن العيدروس - تاريخ العرب الحديث - ط: دار الكتاب الحديث - القاهرة - 2001 - ص: 182.

⁵ - المبارك الميلي - المرجع السابق - ص: 200.

⁶ - المرجع السابق - ص: 182.

يمثل ظهور الأسرة الحسينية بتونس بداية النهاية للحكم العثماني المباشر الذي دام من (1574-1705م)، مع بقاء فرمانات التولية، لأنها ظلت تابعة للدولة العثمانية اسمياً. وسبق تأسيس الأسرة ظروفًا وأحداثًا أدت لوصولها لكرسي الحكم وإنهاء الحكم العثماني وتأسيس دولة مستقلة ذاتياً عن الباب العالي تابعة له اسمياً فقط، فقد عاشت تونس خلال هذه الحقبة من تاريخها فترة انتقالية من سنة 1702م وإلى غاية سنة 1705م كانت خلالها تحت حكم إبراهيم الشريف، وقد سعى الحسين بن علي للحد من نفوذ الانكشاريين وإبعادهم عن الحكم بمختلف الوسائل والسبل، فمرات كان بالترهيب وذلك عن طريق الاغتيال ومرات أخرى بالترغيب وذلك بمنحهم مناصب. كان لحسين بن علي إهتمامات بشتى المجالات سياسية واقتصادية وعمرانية. بقيت إنجازاته بمثابة شواهد على جهوده للقيام بالبلاد في أحسن صورة⁽¹⁾.

¹ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه

المحور الثامن تطور نظام الحكم في طرابلس

1- التدخل العثماني في طرابلس

2) - التطور السياسي لطرابلس

خلال العهد العثمان

مقدمة

تعرضت منطقة غربي البحر الأبيض المتوسط لموجة من الهجوم النصراني تمثل في البرتغاليين والأسبان والإيطاليين وجماعة فرسان القديس يوحنا. وقد احتل الأسبان في الفترة الممتدة من سنة 1505م وإلى غاية سنة 1511م مرسى الكبير، ووهران، وبجاية، وطرابلس الغرب، وجربة. وظل الأسبان يركزون احتلالهم على الساحل دون التوغل في الداخل بسبب الصعوبات وعنق المقاومة المحلية التي كانت تواجههم، ولانشغالهم في حروب أخرى في الجبهة الأوروبية.

وفي مراحل لاحقة صعد الضغط النصراني على المسلمين في مناطق النفوذ مما جعلهم يطلبون العون من العثمانيين الممثلين آنذاك في الأسطول العثماني الذي كان يقوده الاخوة بربروس، لإنقاذهم. وتمكن هؤلاء بمساعدة القوى المسلمة المحلية من طرد الأسبان، وأخذ العثمانيون يشكلون حكومات محلية صغيرة اعترفت بها السلطنة العثمانية بشكل تدريجي. ولكن هذه الحكومات لم تكن حكومات مستقرة، فقد واجهت اضطرابات محلية، كما أنها لم تكن حكومات منظمة خاصة في المجالات الإدارية، وإنما ظلت تستند على القوة العسكرية والجهاد البحري ضد سفن النصارى وبجارتهم الذين واصلوا هجومهم على المناطق الإسلامية في غربي البحر الأبيض المتوسط.

1-التدخل العثماني في طرابلس: بعدما ايقن سكان طرابلس أن فرسان القديس يوحنا

تمكنوا من المنطقة ومن مناطق كثيرة، وأصبحت قوتهم تزداد يوماً بعد يوم في ظل غياب أية قوة ترد عنهم هذا الخطر الصليبي؛ أخذوا يبحثون فوجدوا في قوة العثمانيين المنفذ والمنقذ الوحيد من بطش وظلم فرسان القديس يوحنا، لذلك قرروا ربط اتصالات بهم بغية تحصيل تدخل عسكري. لذلك عينوا وفداً من تاجوراء يمثلهم فقصد اسطنبول حاملاً معه رسالة باسم سكان كل المناطق. عندها قرر السلطان العثماني التدخل عسكرياً في المنطقة.

بعد دراسة معمقة لطريقة التدخل أمر الخليفة مراد آغا⁽¹⁾ الذي كان بمثابة ممثل السلطان

العثماني

في المنطقة وقائد للقوات العثمانية المأمورة بمحاربة الصليبيين بالتدخل عسكرياً في طرابلس وقد كان دخوله موضع خلاف بين المؤرخين، حيث يرى ابن غلبون أن دخوله كان سنة 1520م ويوافقه في ذلك صاحب كتاب المنهل العذب، وحثتهم في ذلك أن قدومه لهذه الديار كان بطلب من السلطان الذي أمره بمرافقة وفد تاجوراء سنة 1520م. في حين يرى عمر الباروني أن اسم مراد آغا لم يظهر في طرابلس إلا خلال سنة 1538م وذلك بعد انضمامه لقوات خير الدين⁽²⁾.

ومن هنا نحن أمام تاريخين وإن حاولنا ترجيح أحدهما على الآخر فسيقع اختيارنا على التاريخ

الثاني بناء على الحجج التاريخية التالية:

✓ حسب التتبع التاريخي للأحداث فإن تنازل الاسبان على طرابلس كان بموجب

معاهدة تسليم تمت بين الطرفين بتاريخ 1530م وعليه فطرابلس وقعت تحت سيطرة

منظمة فرسان القديس يوحنا خلال هذه السنة.

¹- مراد آغا: أصله من إيطاليا، ولد في راقوسا حيث أسره القراصنة وباعوه، وجد نفسه في خدمة السلطان سليم الأول، هو أول والي على طرابلس، أظهر شجاعة فائقة في حربه ضد فرسان القديس يوحنا، عينه سنان باشا والي على مدينة طرابلس خلال سنة 1551م، وبعد أن طرد منها فرسان القديس يوحنا، اهتم باصلاح الفوضى التي خلفها الاسبان بعد جلائهم النهائي منها. ينظر: الطاهر أحمد الزاوي- المرجع السابق- ص: 153-154.

²- ابن غليون- المصدر السابق- ص: 153.

✓ الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها اسبانيا خلال سنة 1530م هي التي

ساهمت بشكل مباشر في تنازل الاسبان على طرابلس لفرسان القديس يوحنا.

وبالتالي التدخل العثماني في المنطقة لطرد هؤلاء لم يتم إلا في السنة المذكورة أعلاه.

وبهذا شجع النجاح الذي حققه العثمانيون في حوض البحر الأبيض المتوسط ضد القوى

الصليبية وعلى رأسها الاسبان الطرابلسيون للاستنجاد بهم فبعثوا وفدا إلى السلطان العثماني سليمان

القانوني بهذا النداء فأوفد ثلاث جيوش بقيادة مراد آغا وسان باشا ودرغوث باشا تمكنت من تحرير

طرابلس في شهر أوت 1551م ومن تم بسطت السيطرة العثمانية على كافة أرجاء طرابلس، إذن

كيف اتحدت الجيوش الثلاثة التي كانت وراء تحرير طرابلس؟

بعدها أفلت درغوث باشا من حصار جزيرة جربة عام 1551م اتجه نحو المياة الاقليمية

لليونان في شهر جوان من السنة نفسها وهناك التقى سنان باشا ينتظره والتف حولهما عدد كبير من

رياس البحر المهرة أمثال غازي مصطفى، محمد ريس، دالي جعفر، حسن قورصو، وحسن ريس؛

فأعدوا أسطولا قويا وجهازه تجهيزا كافيا وجمعوا له المزيد من البحارة والجنود والمؤونة والدخيرة، بعدها

وضعت خطة محكمة قصد مواجهة فرسان القديس يوحنا. احتل درغوث باشا المقدمة، وصالح ريس

المؤخرة، واتجها بالأسطول نحو صقلية فأخذوا هناك الغنائم من قرية أفوستا، ثم توجهوا نحو مالطا

وحققوا انتصارات كبيرة هناك، فأسروا نحو خمسة آلاف رجل، اتجهوا بهم إلى طرابلس وحاصروها لمدة

تسعة أيام، خلالها هاجمت قوات سنان باشا قلعة طرابلس حيث تمكن من تدمير سورها⁽¹⁾.

خلال هذه المرحلة هدد درغوث باشا فرسان القديس يوحنا، إلا أن هؤلاء أصروا على عدم

الاستسلام، في اعتقادهم بأنهم سوف يحصلون على دعم من ممالك أوروبا، ولكم ما حصل خيب

كل ظنهم⁽²⁾، عندها تيقنوا بأن لا مفر لهم من القتل سوى الاستسلام، لذلك بعثوا إلى سنان باشا

¹ - خليفة محمد التيلسي - المرجع السابق - ص: 76.

² - ايتوري روسي - المصدر السابق - ص: 186.

يطلبون منه الصلح والسماح لهم بالسفر باتجاه مالطة¹، لكن سنان باشا اشترط عليهم مقابل قبول طلبهم تسديد كل نفقات الحملة التي قادها في سبيل تحرير طرابلس، لكنهم رفضوا ذلك محتجين بعدم امتلاكهم للأموال⁽²⁾.

عندها استدعى سنان باشا حاكم طرابلس فالير ليعرض عليه أمرين على أن يختار واحدا

منهما:

✓ تسديد نفقات الحملة العسكرية

✓ أسر فرسان قديس يوحنا ويبيعهم في الأسواق لتعويض النفقات

استاء الحاكم فالير من اقتراحات سنان باشا، وأقدم على شتمه، عندها أمر سنان باشا بسجنه⁽³⁾، تخوف فرسان القديس يوحنا من انتقام العثمانيين فقاموا بفتح أبواب المدينة لتسليحها لهم، وبهذا تمكن العثمانيون من تحرير طرابلس نهائيا من احتلال فرسان القديس يوحنا وكان ذلك في يوم 14 أوت من سنة 1551م.

(2)- التطور السياسي لطرابلس خلال العهد العثماني: لم يدم احتلال فرسان القديس

يوحنا لطرابلس طويلا، رغم كل الجهود التي بذلها في سبيل ابقاء سيطرتهم على المنطقة، إذ استطاع العثمانيون قيادة البحر الأبيض المتوسط والسيطرة عليه بفضل بحارتهم، أبرزهم الاخوة بربروس الذين دخلوا في مواجهات عديدة وعنيفة مع الدول والممالك النصرانية التي أعلنتها حربا صليبية، فالبرغم من طول مدة المواجهات التي كلفت كل منهما خسائر مادية وبشرية، إلا إنهم تمكنوا من طرد المحتل الاسباني من مواقع عديدة في كل من الجزائر وتونس، كما ساهموا بشكل مباشر وفعال في طرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس.

¹ - ناصر الدين سعيدوني- تاريخ الجزائر في العهد العثماني وبلية ولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس طرابلس، المغرب)- ط:2- البصائر للنشر

والتوزيع- الجزائر- د س ن- ص:304.

² - الطاهر أحمد الزاوي- المرجع السابق- ص:304.

³ - المرجع نفسه- ص:304.

2-1) العهد العثماني الأول (1551-1711): دخلت طرابلس منذ سنة 1551 م عهدا

جديدا اتفق المؤرخون على تسميته بالعهد العثماني الأول والذي ينتهي مع سنة 1711م عندما استقل أحمد باشا القرمانلي بزمام ولاية طرابلس؛ وقد شمل الحكم العثماني كافة الأقاليم: طرابلس الغرب وبرقة وفزان، وكان يدير شؤونها وال (باشا) يعينه السلطان، ولكن لم يمض قرن من الزمان حتى بدأ الضعف يدب في أوصال السلطنة العثمانية نتيجة تكالب الدول الأوروبية على الولايات العثمانية، ودخول العثمانيين في عدة حروب في آن واحد، مع روسيا واليونان والآنجليز وغيرها من دول وممالك أوروبا، فأصبحت حكومة الخلافة عاجزة عن حماية ولاياتها وفرض النظام والتحكم في الولاية الذين صاروا ينصبون ويعزلون حسب نزوات الجند في جو مشحون بالمؤامرات والعنف. وفي كثير من الأحيان لم يبق الوالي في منصبه أكثر من عام واحد حتى أنه في الفترة ما بين سنة (1672 م- 1711 م) تولى الحكم أربعة وعشرون واليا، وعليه مرت طرابلس بأوقات عصيبة عانى خلالها المجتمع الطرابلسي الويلات نتيجة لاضطراب الأمن وعدم الاستقرار.

وبالرغم من اختلاف الروايات التاريخية حول البدايات الحقيقية للحكم العثماني في طرابلس إلا أن هناك بعض المصادر أشارت إلى حكم درعوث باشا، ولكن بالرجوع إلى المعطيات التاريخية حول الموضوع تؤكد للباحث أن البدايات كانت مع مراد آغا قائد الحملة التي بفضلها تحررت طرابلس نهائيا من استبداد وطغيان فرسان القديس يوحنا. ولنا وقفة مع أبرز حكام المنطقة خلال الفترة الأولى من تبعية طرابلس للحكم العثماني ومن أبرز ولاية هذا العهد نذكر:

(أ)-مراد آغا: كان قائد الحملة العثمانية التي تمكنت من تحرير طرابلس من الاحتلال، لهذا كافأه السلطان العثماني بمنحه الولاية على المنطقة باسم الخلافة العثمانية، استمر حكمه من سنة 1551م وإلى غاية سنة 1556م، وقد انصبت جهوده في بداية عهده على تحصين البلاد عسكريا، فتمكن بفضل ذلك من احباط محاولة إعادة احتلال طرابلس مرة أخرى من طرف منظمة فرسان

القديس يوحنا وذلك خلال سنة 1552م. كما أرسى قواعد الأمن، ونظم الادارة، وشيد جامع تاجوراء الذي ضم رفاتة بعد مماته⁽¹⁾.

ب)- درغوت باشا: ولد درغوت باشا، أو من يسميه عامة الطرابلسيين والأتراك طورغوث راييس، من أبوين فقيرين في قرية صغيرة بأناضوليا. ركب البحار شابا بدافع حب المغامرة، واشتغل في بادئ الأمر على سلاح المجاديف، ثم سلاح المدفعية في السفن؛ قبل أن يقتحم ميدان القرصنة مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي، رفقة الأسطول العثماني هؤلاء بسطوا سيطرتهم على البحار الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط، وبثوا الرعب في السفن الإيطالية القادمة من أرخبيل البندقية؛ حتى وصل إلى مسامع القائد العثماني خير الدين بربروس انتصار درغوت باشا على السفن الأوروبية، فضمه إلى أسطوله، وجعله ساعده الأيمن في غزواته البحرية.

ساهم درغوت باشا بشكل كبير في تحرير طرابلس سنة 1555م، ولنظرا لتفانيه في العمل وخبرته عين واليا على طرابلس ليدير شؤونها نيابة عن الخليفة العثماني. دام حكمه من سنة 1556م وإلى غاية سنة 1565م تاريخ استشهاده أثناء الحصار العثماني لجزيرة مالطا؛ له مآثر عمرانية منها سور طرابلس، حماماتها العديدة، المسجد الذي يحمل اسمه، وكذا اقامته لبرج التراب، وتأسيسه لقصر وسط المدينة؛ هذا بالاضافة إلى عنايته الكبيرة بالتحصينات العسكرية واسهاماته العديدة في تنشيط الاقتصاد، وعند وفاته انتقل حكم البلاد إلى الفرقة الانكشارية التي أغرقت البلاد في بحر من الفوضى والفتن، فقد اختلفت الروايات التاريخية حول الشخصية التي تقلدت الحكم بعده، فهناك فريق من المؤرخين ذكر أن يحي باشا هو من فعل ذلك، فيما أكدت روايات تاريخية أخرى أن الحكم انتقل مباشرة إلى علق علي، هذا الأخير الذي تشهد له بعض المآثر العمرانية بذلك، مثل البرج المربع للدفاع، والمسجد الجميل على ضفاف سيفور.

مكنت القوة العسكرية التي حظيت بها الخلافة العثمانية من أن تكون سيدة الموقف الدولي آنذاك، وقد كانت المواجهات البحرية بينها وبين الغزاة الأسبان فاتحة الطريق أمام وجود عثماني مركز

¹ - راسم راشدي - طرابلس الغرب في الماضي والحاضر - ط: 1 - د د ن - طرابلس، ليبيا - 1953م - ص: 92.

في غربي البحر الأبيض المتوسط. وبالفعل فإن خير الدين بربوس الذي خلف أخاه عروج اتصل بالسلطان العثماني سليم الأول وأعلن تبعيته له، فوافق السلطان العثماني على ذلك وعينه برتبة باي لارباي على الجزائر سنة 1520م⁽¹⁾؛ ولما وطد العثمانيون وجودهم في الجزائر ضموا إلى حكمهم مدينة طرابلس الغرب بعد أن كان سكانها قد تخلصوا من الحكم الحفصي⁽²⁾ وشكلوا حكومة خاصة بهم، لكنهم تعرضوا لهجوم فرسان القديس يوحنا الذين احتلوا بلادهم⁽³⁾.

لم تسكت الخلافة العثمانية على هذا الأمر إذ أمرت القائد درغوت باشا بالتدخل عسكرياً هناك، فتمكن من استعادتها، وعينه العثمانيون على ولاية طرابلس الغرب، ثم أخذ درغوت يمد النفوذ العثماني تدريجياً إلى مناطق الداخل. وخلف علي طرغوت في حكم طرابلس والداخل، وتمكن من فرض الأمن والهدوء في المنطقة.

ثم خلفه جعفر على حكم طرابلس، واستطاع جعفر أن يسيطر على منطقة فزان عام 1577م. وكانت برقة وفزان تحت تأثير التبعية الاسمية للعثمانيين في مصر، ولكنهما ضمتا أخيراً إلى الحكم العثماني في طرابلس الغرب، وهكذا بدأت تظهر خريطة طرابلس الموحدة في العهد العثماني، المؤلفة من: ولاية طرابلس، وبرقة، وفزان. واستطاع الحكم العثماني في ليبيا أن يثبت السيادة على الأرض الطرابلسية المتحدة، وظل الوجود العثماني يتحدى القوى الأوروبية القائمة على الساحل الآخر من البحر الأبيض المتوسط ردحا من الزمن.

2-2- العهد القرمانلي الأول (1711-1835م): خلال سنة 1711م قاد أحمد القرمانلي

ثورة شعبية أطاحت بالوالي العثماني، وكان أحمد هذا قائداً في الجيش العثماني فقرر تخليص البلاد من الحكم الفاسدين ووضع حد للفوضى، ولما كانت الرعية قد ضاقت ذرعاً بالحكم المستبد فقد رحبت بأحمد القرمانلي الذي تعهد بحكم أفضل، وقد وافق السلطان على تعيينه باشا على طرابلس ومنحه قدراً كبيراً من الحكم الذاتي، ولكن القرمانليين كانوا يعتبرون حتى الشؤون الخارجية من اختصاصتهم،

¹ - محمد صالح بن العنتري - المصدر السابق - ص: 77.

² - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: خير الدين بربوس - المصدر السابق.

³ - للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المحور السادس من المقياس.

وامتلكت طرابلس خلال هذه المرحلة من تاريخها أسطولا بحريا قويا مكنها من أن تتمتع بمكانة دولية مهيبة وأصبحت تنعم بنوع من الاستقلال⁽¹⁾.

هناك شبه اجماع على أن بداية حكم الأسرة القرمانيية لطرابلس تم خلال سنة 1711م الذي تزامن مع قيام الأسرة الحسينية في تونس، والحكم الانكشاري في الجزائر، فقد ساعدت الأوضاع الفاسدة التي عاشتها طرابلس طوال تسلط الجيش الانكشاري على الحكم أحمد القرماني أحد قادة الجيش إلى الوصول إلى الحكم بمبايعة الرعية له عام 1711م، وبمباركة السلطان العثماني بعد تردد. فقد أهله شخصيته القوية للوصول إلى هذه المكانة، فقد عرف بأنه شخص يحمل النقيضين معا فهو قاس ودون رحمة وفي الجانب الآخر نجده كريم ومتصدق، فهو ذلك الحاكم الذي ارتكب مجزرة راح ضحيتها حوالي 300 جندي انكشاري، كما هو أيضا ذلك الحاكم الذي عرف بحبه للفقراء وتقديمه مساعدات للمعوزين. لم يكن أحمد باشا بالشخصية المتعلمة والمتقفة، لكنه ساهم في تنشيط الحركة العلمية في البلاد، كما شجع المتعلمين والمدرسين. أما عن إنجازاته فقد قام بإيقاف أوقاف كثيرة على سور المدينة، كما أجرى المياها على حنايا لم يسبق لأحد من قبله أن فعلها وخصص لها أوقافا لصيانتها، ليقوم في أواخر حياته بانهاؤها بعدما أصيب بالعمى، توفي سنة 1745م عن عمر ناهز 60 سنة.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية نستنتج أن أحمد القرمانيي يعتبر المؤسس الفعلي للأسرة الحاكمة القرمانيية استمرت في حكم طرابلس إلى غاية سنة 1835م؛ كما عرف الحكم العثماني لطرابلس عددا كبيرا من الولاة العثمانيين. وقد تقلص نفوذ هؤلاء في البلاد عندما تسلمت أسرة أحمد باشا القرمانيي الحكم عام 1711م، وظلت تحكم المنطقة مدة قرن وربع القرن من الزمن، ولم يبق للعثمانيين في طرابلس غير الولاة الاسمي.

3-2) العهد العثماني الثاني (1835-1911م): ظلت السيادة الفعلية في يد الأسرة القرمانيية حتى ضعفت، فزادت الضائقة الاقتصادية في البلاد، مما جعلها عرضة للأطماع الأوروبية من

¹ - الطاهر أحمد الزاوي - ولاية طرابلس من بداية الفتح إلى نهاية الهد التركي - ط: 1- دار الفتح - بيروت - 1970م - ص: 22 وما يليها.

فرنسيين وإنجليز. كما كثرت حركات التمرد والعصيان أواخر عهد أسرة القرماني، مما أدى بالعثمانيين إلى إرسال حملة عسكرية تحت قيادة نجيب باشا توجهت إلى طرابلس خلال سنة 1835م، وألقت القبض على آخر حكام الأسرة القرمانية علي باشا، وبذلك أنهى العثمانيون حكم هذه الأسرة. وأعادوا سيادتهم الفعلية عليها، ولم يكن الحكم العثماني المباشر بحال من الأحوال أفضل من حكم أسرة القرماني. بل كان حكما غير مستقر تعاقب عليه الكثير من الولاة بحيث كان معدل ولاية الواحد منهم في حدود العام الواحد أو أكثر في بعض الأحيان، وهذه أهم الخصائص التي عرفت بها هذه المرحلة من الحكم العثماني لطرابلس:

✓ كثرة الولاة وسرعة استبدالهم فقد اتبعت الخلافة العثمانية هذا الأسلوب للحيلولة دون

قيام الولاة بأي حركة استقلالية، وقد قدرت الروايات التاريخية عدد ولاة هذا العهد بـ:

33 واليا كانت مدة حكم كل واحد منهم لا تقل عن سنة واحدة

✓ تولد عن عدم الاستقرار في طرابلس ابان العهد العثماني عن قصر عهود الولاة، بحيث

لم يكن يتوفر للوالي الوقت الكافي لتحقيق إنجازات تمس جوانب مختلفة في البلاد.

✓ أدى تدبب السياسة العثمانية في تباعد الأقسام الليبية ومثال على ذلك تدبب تبعية برقة الادارية لمرات عديدة.

✓ على هذا الأساس شكلت الادارة العثمانية المضطربة ثغرة سهلت مرور الاحتلال

الايطالي على طرابلس عام 1911م.

ومع الرغم من أن العثمانيين طبقوا في طرابلس نظام الولايات: ولاية طرابلس الغرب وولاية

برقة، وولاية فزان، إلا أن وجودهم في المنطقة كان اسميا فقط. وأخذت المنطقة كغيرها من الولايات

العثمانية تهدد من قبل الفرنسيين، خاصة بعد احتلالهم للجزائر عام 1830م، وفرض حمايتهم

الاستعمارية على تونس عام 1881م. وبناء عليه رأت الخلافة العثمانية أن تعزز وجودها في طرابلس،

فزادت من قوتها العسكرية في المنطقة. وتمسك الليبيون بتبعيتهم لها على الرغم من ضعفها، لأنهم

شعروا أنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي يمكن لها أن تدافع عنهم وتحميهم ضد التوسعات الفرنسية التي وصلت إلى غاية تشاد.

خاتمة المحور الثامن من المقياس:

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات لعل من أهمها نذكر:

✓ مع إطلالة القرن السادس عشر ميلادي، شهد حوض البحر الأبيض المتوسط عموما وغربه على وجه الخصوص صراعا بين النصارى الصليبيين والمسلمين للسيطرة على المنافذ البحرية والبحر المتوسط، لأهمية ذلك في السيطرة على طرق التجارة البحرية؛ فشهدت تلك المرحلة بعض أهم الملاحم في تاريخ طرابلس، حين اتجهت إسبانيا بأسطولها البحري الكبير إلى مهاجمة السواحل المغاربية عموما والطرابلسية بوجه خاص، فاستولت على بضع المدن المهمة، مثل سبتة وطنجة وتلمسان ووهران وبجاية وطرابلس في الفترة الممتدة من سنة 1497م وإلى غاية سنة 1511م. ودافع سكان طرابلس عن مدينتهم باستماتة، وهذا ما ذكره الكونت بتر ودي فارو، قائد الحملة الإسبانية على طرابلس، في رسالته إلى نائب صقلية. إذ كتب "لقد كان الطرابلسيون يقاومون مقاومة عنيفة".

✓ نتيجة اشتداد المقاومة الشعبية، وتزايد خطر العثمانيين في البحر، تنازل الإسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا خلال سنة 1530. لكن هذا القرار لم يرض سكان المدينة، الذين استعانوا بالخلافة العثمانية القوية، وقتذاك، لطردهم. وهو ما حصل بقيادة القائد العثماني درغوت باشا، الذي تزعم الحملة المكونة من العثمانيين والمقاومة الطرابلسية. وبعد النصر على قوات القديس يوحنا اتخذ درغوت باشا من تاجوراء مقرا للقيادة مؤقتا، وأصبحت طرابلس رسميا ولاية تابعة للدولة العثمانية، تحت اسم "ولاية طرابلس".

✓ شهدت طرابلس إزدهارا كبيرا في بداية العهد العثماني، فأنشئت الأسواق، التي تركزت في الناحية الشرقية من المدينة القديمة، ولا تزال معالمها حتى اليوم. وترجع أسباب تركز هذه الأسواق في هذه الناحية من طرابلس إلى قربها من البحر. إذ إنه منفذ تصريف الإنتاج واستقبال البضائع الآتية من الشمال الأوروبي. كما أن طرابلس كانت قريبة من مصدر السلطة، بعد بناء قلعة السرايا، التي لا تزال حتى اليوم في عداد أهم معالم طرابلس التاريخية، التي صارت مقر الإدارة العثمانية.

✓ سيطرت الأسرة القرمانية على مقاليد الأمور في طرابلس مع مطلع القرن السابع عشر ميلادي. إذ قاد القائد التركي أحمد باشا القرماني ثورة على الوالي العثماني بمساندة شعبيته بسبب الفساد الذي استشرى في ولاية طرابلس الغرب. فاستولى على الحكم ووضع حداً للفوضى والفساد، ومنح السلطان العثماني مكرها ولاية طرابلس حكماً شبه ذاتي لإدارتها. فازدهرت ولاية طرابلس في العهد القرماني، وصارت طرابلس تملك أسطولا قويا مكنها من أن تتمتع بشخصية دولية وأصبحت تنعم بنوع من الاستقلال. وصارت قوة مهابة في البحر الأبيض المتوسط، حتى أنها خاضت معارك بحرية مع كبريات الدول الأوروبية، انتهت بتوقيع معاهدة سلام تلتزم فيها دفع ضرائب سنوية لباشا طرابلس، مقابل عدم التعرض لسفنها في البحر المتوسط. وللدلالة على الازدهار الذي عاشته طرابلس في ذلك العهد، يكفي أن نعرف أنها كانت تضم 36 مسجدا و3 حمامات عامة ومدرستين ومستشفى كبير وكنيسة وعددا كبيرا من المباني التاريخية، مثل قصر القرماني وقنصليات أوروبية عديدة، كالقنصلية الفرنسية والهولندية والبريطانية وقنصلية جنوى.

✓ وهنت الدولة القرمانية، وعاد العثمانيون إلى السيطرة على المدينة وإعادة تبعيتها إلى السلطان في إسطنبول، في ما يعرف بالعهد العثماني الثاني.

المحور التاسع

علاقات الأقطار المغاربية الخارجية
(المشرق العربي، إفريقيا، أوروبا)

1- العلاقات الجزائرية الخارجية
(1520-1830م)

(2)- علاقات المغرب الخارجية

ملاحظة: نظرا لطول الفترة الزمنية واتساع الاطار الجغرافي لموضوع قيد الدراسة (الجزائر ،

المغرب الأقصى، تونس، طرابلس فإنه تم اختيار بعض النماذج للتعريف بمسار العلاقات

المغربية مع أوروبا وافريقيا وحددناها في كل من الجزائر والمغرب الأقصى

مقدمة

بعدها أصبحت الجزائر ايالة عثمانية سنة 1520م، أسست لها أسطولا قويا تمكنت بفضلها من فرض هيمنتها وسيطرتها ليس على غربي البحر الأبيض المتوسط فقط بل كله؛ وعلى هذا الأساس سارعت الكثير من دول وممالك أوروبا وكذا دول الجوار من ربط علاقات دبلوماسية مع الجزائر قصد اجتناب غضبها وربحا لرضاها الذي سيمكنها من تحصيل الكثير من الامتيازات، على أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هذه العلاقات لم تكن تسيير دوما على الوثيرة نفسها، بل عرفت في بعض المراحل من تاريخ الجزائر العثماني توترا.

1-العلاقات الجزائرية الخارجية (1520-1830): من خلال هذه الجزئية لن نتعرض

إلى كل العلاقات التي ربطت الجزائر بمختلف الدول والممالك سواء منها الأوروبية أو العربية، وإنما سنعالج نماذج منها فقط قد تمكننا من تتبع المسار التاريخي لهذه العلاقات ومدى تأثيرها على الصعيدين السياسي والاقتصادي. وقبل أن نباشر في عرض تفاصيل هذه العلاقات يجب التنويه إلى أن هذه العلاقات سيرت بمنطق القوة بمعنى أنه لم تكن تتحكم فيها المصالح الاقتصادية والسياسية

وإنما قوة الأسطول الجزائري، فعندما عرف هذا الأخير فترات قوة وازدهار كانت العلاقات على أحسنها، ولكن عندما تتراجع قوته تنتهز هذه الدول الفرصة لتشن حربا شرسة على الجزائر. ويجدر بنا الإشارة أنه سيم التطرق إلى عرض بعض النماذج من هذه العلاقات، ذلك أن موضوع بهذا الحجم والأهمية لا يمكنه أن يتأتى إلا إذا خصصنا له بحثا منفردا. ومن بين النماذج التي سيتم عرضها كل من علاقات الجزائر مع فرنسا وإنجلترا وحوصلة مختصرة لبعض العلاقات مع دول أخرى.

1-1- العلاقات الجزائرية الفرنسية (1670-1830م): تعود بدايات العلاقات الجزائرية

الفرنسية إلى عهد الملك فرانسوا الأول (1515-1547م)⁽¹⁾، الذي عقد حلفا مع الخلافة العثمانية⁽²⁾ سنة 1535م⁽³⁾ لضرب اسبانيا وإنجلترا معا تطبيقا للقاعدة السياسية التي تقول "عو عدوي صديقي". هذا الظاهر من هذا الحلف أما الحقيقة الخفية هو محاولة فرنسا تحصيل مجموعة من الامتيازات⁽⁴⁾ خاصة في الجزائر التي كانت آنذاك سيدة البحر الأبيض المتوسط بدون منازع. ولنا أن نتتبع مسار العلاقات الجزائرية الفرنسية أيام السلم وتسليط الضوء على خصوصياتها، فعلى الصعيد الاقتصادي تميزت هذه العلاقات بما يلي:

¹ فرانسوا الأول: ولد سنة 1495م؛ وتوفي سنة 1547م، ينظر: يلماز أوزلتون- موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسية والعسكرية والحضارية- مع: 1- تر: عدنان محمود سلمان- ط: 1- الدار العربية للموسوعات- د ب ن- 2002م- ص: 215

² بدأت المحاولات الأولى لعقد حلف يجمع فرنسا بالخلافة العثمانية خلال الفترة الممتدة بين سنة 1521هـ/932م وسنة 1531هـ/938م، لكنها لم تثمر بأي نتائج. على أنه يجب التنويه إلى أنه سبق هذا التاريخ إبرام أول معاهدة بين الطرفين في المجال التجاري وذلك في عام 936هـ/1529م. ينظر: جمال قنان- المرجع السابق- ص: 43.

³ بدأت العلاقات بين الجزائر وفرنسا في عهد خير الدين وفرانسوا الأول بعد التوقيع على المعاهدة الثلاثية (le Traité tripartite) بين مبعوث خير الدين الذي حل بفرنسا بدعوة من ملكها ومبعوث السلطان العثماني وفرانسوا الأول عام 942هـ/1535، حيث كانت فرنسا حريصة على اكتساب ود الجزائر و ذلك ابتداء من سنة 941هـ/1534م. ينظر: مولود قاسم نايت بلقاسم- شخصية الجزائر وهيمتها الدولية قبل 1830م- ج: 2- د ط- دار الهومة- الجزائر- 2007م- ص: 9.

⁴ الامتيازات: هي مجموع الضمانات والحقوق التي منحتها الخلافة العثمانية لدول وممالك أوروبا، وأول امتياز أجنبي منحه السلطان سليم الأول في سنة 923هـ/1517م لرعايا البندقية في المجال التجاري والقضائي. ينظر: سهيل صبان- المرجع السابق- ص: 36.

⁵ المعاهدات: مفردتها معاهدة؛ تأتي بعد مجموعة من المفاوضات يقوم بها السفراء، قصد تسوية الأمور العالقة بين بلدين. ينظر: صالح أحمد هريدي- تاريخ العلاقات الدولية والحضارة الحديثة- ط: 1- دار الوفاء- الإسكندرية- 2007م- ص: 59.

✓ عقد مجموعة من المعاهدات⁽¹⁾ والاتفاقيات⁽²⁾ التي نصت على التبادل التجاري بين البلدين⁽³⁾.

✓ منحت الجزائر لفرنسا امتيازات اقتصادية مهمة تمثلت في حق احتكار صيد المرجان في مدينة القالة⁽⁴⁾، أثمر بتأسيس شركة تجارية التي عرفت بـ "الباستيون"⁽⁵⁾ Bastion de

✓ France⁽⁶⁾؛ ومع مرور الزمن توسع نشاطها⁽⁷⁾، وأصبحت تشكل تهديدا مستمرا على منطقة الشرق خصوصا، والجزائر عموما.

✓ مساندة الجزائر لفرنسا أثناء تعرضها لأزمة اقتصادية خانقة⁽⁸⁾، سمحت لها بتجاوزها وتخطي آثارها وانعكاساتها التي كانت ستكون وخيمة لولا دعم الجزائر لها.

أما على الصعيد الدبلوماسي فلم تتجسد العلاقات بين البلدين فعليا على أرض الواقع إلا في سنة 1619/هـ/1028 التي مثلت بداية التمثيل الدبلوماسي بين البلدين، أبرم خلالها الطرفين ما يقارب مائة وثمانية وخمسين اتفاقية ومعاهدة، تحصلت بموجبها فرنسا على مجموعة من الامتيازات

⁶-الاتفاقيات: مفردتها اتفاقية؛ هي عبارة عن اتفاق يتم بين طرفين، ينظم الشؤون الاقتصادية والثقافية وغيرها من المسائل العالقة. ينظر: المرجع نفسه- ص: 59.

⁷-للاطلاع على قائمة بأهم المعاهدات المبرمة بين الطرفين ينظر: يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر-(المرجع السابق)- ص ص: 115-118.

⁸-أجبرت السلطة العثمانية مقابل السماح للفرنسيين ببناء هذه الشركة مجموعة من الشروط، من أهمها ممنوع تحصين الشركة تحت أي ظرف من الظروف.

ينظر: ملف الوثائق العثمانية، رقم: 1641- المصدر السابق.

⁹- الملف رقم: 1641 و1642،- المصدر نفسه.

¹-الباستيون: كلمة تستعمل للدلالة على المكان الذي ضم بعض المساكن لايواء الصيادين وكذا بعض المخازن لحفظ البضائع. ينظر: جمال قنان- المرجع السابق- ص: 69. ويقع هذا البناء شرقي مدينة عنابة، على بعد حوالي 42 كلم. وللإطلاع على صورة تقريبية لهذا البناء ينظر الملحق رقم: 10.

²- للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: جمال قنان- المرجع السابق.

³- بعد الثورة الفرنسية التي اندلعت عام 1789 استطاعت فرنسا أن تضمن ما تحتاجه المقاطعات الجنوبية من قمح وحبوب من الجزائر، وقد تمت لها هذه المساعدات بواسطة تاجر يهوديين هما بكري وبوشناق. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع ينظر: أبو القاسم سعد الله-محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال- ج: 2- ط: 3- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1982م.

⁴-قيس العراوي- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط- ط: 2- دار العربية للعلوم- بيروت- د س ن- ص: 19.

الاقتصادية والديبلوماسية⁽¹⁾، حرص على حمايتها ومتابعتها ستون قنصلا⁽²⁾ وستة وتسعون محافظا ومبعوثا⁽³⁾. وما يلاحظ على محتوى هذه المعاهدات والاتفاقيات أنها خدمت مصالح فرنسا بالدرجة الأولى، وساهمت في ضمان حقوق رعاياها وحماية ملاحتها البحرية.

أما فيما يخص على الجانب العسكري فقد استغلت فرنسا العلاقات الودية التي جمعتها مع كل من الجزائر والخلافة العثمانية، لتستنجد بها مرتين، الأولى كانت سنة 943هـ/1536م لتحرير مرسيليا⁽⁴⁾؛ أما الثانية فكانت في عام 950هـ/1543م ليرد الأسطول الجزائري اعتداءات اسبانيا على مدينة نيس ويتمكن في نهاية المطاف من استرجاعها⁽⁵⁾. فبالرغم من كل الخصوصيات التي ميزت العلاقات بين الجزائر وفرنسا إلا أنها لم تكن تسير على الوثيرة نفسها، إذ لم تشفع كل الامتيازات والمساعدات التي قدمتها الجزائر لفرنسا في جعل هذه الأخيرة تتوقف عن تنفيذ مشروعها القاضي باحتلال الجزائر رغبة منها في استغلال خيراتها وثرواتها. ولنا وقفة مع بعض المحطات التاريخية التي تعرفنا على نماذج من التحرشات الفرنسية على مدينة الجزائر وكذا على بعض المدن الساحلية في بايلك الشرق.

✓ وقعت مواجهة عسكرية بين فرنسا والجزائر في عهد لويس الرابع عشر " Louis XIV"⁽⁶⁾، حيث قام بتجهيز حملة عسكرية بهدف احتلال مدينة الجزائر وكان ذلك في سنة 1037هـ/1663م، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق أية نتائج إيجابية⁽⁷⁾.

⁵ أول القناصل الفرنسيين المعتمدين في الجزائر هو بارتول "Bartholle" وآخرهم بيار دوفال "Pierre Duval". ينظر: يحي بوعزيز- مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1999م-ص:55. وكان يتم تغيير القناصل الفرنسيين بالجزائر كل أربع سنوات، بصاحبه تقدم الهدايا والاتاوات. ينظر:

Venture De Paradis-Op. Cit- P : 142.

⁶ وليام سبنسر - الجزائر في عهد رياس البحر- تر: عبد لقادر زيايدة- د ط- دار القصة للنشر- الجزائر- د س ط- ص:166.

⁷ صالح فركوس- المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين- د ط- دار العلوم للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م. ص: 138.

8-Ursu (J)- La politique orientale (1545-1547)- Imprimerie- F. Paillart- Parie- 1908- P : 143.2

¹ لويس الرابع عشر: تولى الحكم سنة 1650م، وتوفي سنة 1720م بعد ما دام حكمه قرابة 72 سنة. ينظر: ابن عودة المزارى- طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا أواخر القرن 19م- ج:2- تح: يحي بوعزيز- ط:1- دار الغرب الإسلامي- 1990م- ص:69.

² يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)-ص:44.

✓ الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر عام 1056هـ/1682م بقيادة الأميرال دو كيسم "Dcuquesme" إلا أنها منيت بالفشل⁽¹⁾. ثم أعادت الكرة في السنة الموالية أي عام 1057هـ/1683م، لكنها أيضا خرجت منها تجر ذبول الخيبة والهزيمة⁽²⁾.

✓ تؤثر العلاقات بين الطرفين سنة 1212هـ/1798م، بسبب الحملة النابولينية على مصر.⁽³⁾

✓ تأزم الوضع بين الطرفين وحصول القطيعة سنة 1243هـ/1827م⁽⁴⁾، ثم الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على السواحل الجزائرية.

يتعبر المسار التاريخي للعلاقات الجزائرية الفرنسية حافل بالأحداث والوقائع، وإذا أردنا تتبعها بكل تفاصيلها الدقيقة فلا بد أن نخصص لها بحثا منفصلا من مصادره الأولية ونقصد بذلك الأرشيف العثماني الذي يشكل مصدرا مهما ولاغنى عنه لبناء مدرسة تاريخية جزائرية حديثة.

1-2- العلاقات الجزائرية الإنجليزية (1665-1824م): سعت إنجلترا مثلها مثل باقي

دول

وممالك أوروبا إلى ربط علاقات مع الجزائر، خاصة وأنها كانت في حرب مستمرة مع عدوتها التقليدية فرنسا. وبالفعل تمكنت إنجلترا من إبرام الكثير من المعاهدات والاتفاقيات مع نظيرتها الجزائر، كما استفادت في مرحلة تاريخية معينة من نفس الامتيازات التي منحت لفرنسا. على أن المسار التاريخي للعلاقات بين البلدين لم يكن يسير على وثيرة واحدة فقد تخلله محطات تاريخية دخلت فيها إنجلترا في اصطدام عسكري وديبلوماسي مع الجزائر، كلف هذه الأخيرة خسائر كبيرة، كما انعكس سلبا على مكانتها الدولية.

3-Berteuil- L'Algérie française- Histoire, Mœurs, Industrie, Agriculture- T :2 -Dentu libraire- Paris-1856- P : 75.

⁴ ابن زرقة- الرحلة القمرية من كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن 18 ميلادي- تع: مختار حساني- د ط- جامعة الجزائر- الجزائر- 2003م- ص: 227.

⁵ بيار دوفال- الرئيس حميدو- تع: محمد العربي الزييري- د ط- المؤسسة الوطنية الجزائرية للطباعة- الجزائر- 1972م- ص: 31.

⁶ ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642- المصدر السابق.

استطاعت إنجلترا أن تقيم علاقات دبلوماسية وتجارية مع الجزائر وهذه أهم المعطيات التي تخص هذا الجانب:

✓ أبرمت إنجلترا مع الجزائر قرابة ثمانية عشر معاهدة واتفاقية خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1655م⁽¹⁾ وإلى غاية عام 1824م⁽²⁾.

✓ تحصلت إنجلترا بفضل ابرامها لهذه الاتفاقيات والمعاهدات على مجموعة من الامتيازات⁽³⁾، كما مكنتها من ربط علاقات سلم وتجارة مع الجزائر⁽⁴⁾.

✓ تمت العديد من المبادلات التجارية بين البلدين بمقتضى الاتفاقيات المبرمة بينهما، فكانت الجزائر تستورد منها ما كانت تحتاجه من مواد وأسلحة⁽⁵⁾.

✓ بموجب المعاهدات المبرمة بين الطرفين استطاعت إنجلترا أن تفتدي الكثير من أسراها الذين وقعوا في أيدي البحارة الجزائريين في البحر الأبيض المتوسط⁽⁶⁾.

هذه بعض النماذج التي خصت العلاقات بين البلدين أيام السلم، على أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار أن الأمور بين الطرفين لم تكن دوما على ما يرام، فهناك الكثير من المحطات التاريخية عرفت خلالها العلاقات توترا وتأزما وصل إلى حد شن حملات عسكرية كبدت الطرفين خسائر كبيرة، ولعل من

أهمها نذكر:

✓ الحملة العسكرية بقيادة اللورد اكسماوت سنة 1815م، حيث انطلقت هذه الحملة من ميناء

بلايموث في يوم 28 جويلية من السنة نفسها، وعند وصولها إلى جبل طارق انضمت إليه

¹- مولود قاسم نايت بلقاسم- المرجع السابق-. ص: 187.

²- يعتبر هذا التاريخ بداية القطيعة بين البلدين، إذ تم خلالها طرد القنصل الإنجليزي ألبورت. ينظر: المرجع نفسه- ص: 196.

³- يحيى بوعزيز- مع تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 55.

⁴- المرجع نفسه- ص: 55.

⁵- جمال قنان- نصوص ووثائق- (المرجع السابق)- ص ص: 92، 94.

⁶- عزيز سامح تر- المرجع السابق- ص: 610.

القوات الهولندية مشكلة حلفا ثنائيا⁽¹⁾. درات معركة بين الطرفين انهزم خلالها الأسطول الجزائري؛ فاضطرت السلطات الجزائرية على قبول توقيع معاهدة الصلح⁽²⁾.

✓ شنت إنجلترا حملة عسكرية ضخمة مستهدفة مدينة الجزائر سنة 1824م، لكنها فوجئت بمقاومة عنيفة جمعت القوات الجزائرية والمتطوعين من الجزائريين، الذين تمكنوا من صد الحملة⁽³⁾، وأجبروا الانجليز على الاستسلام الذي انتهى بالامضاء على معاهدة صلح بين الطرفين⁽⁴⁾.

1-3) العلاقات الجزائرية الجنوبية: عرفت ايالة الجزائر خلال العهد العثماني تنوعا في

العلاقات السياسية والتجارية، فتحت لها مجالا لدخول السلع الأجنبية للأسواق المحلية هذا من جهة، وتسويق السلع المحلية في الأسواق الأوربية من جهة أخرى، فكان يتم ذلك عن طريق المبادلات تجارية التي أسهمت في انعاش الاقتصاد الجزائري، ونشطت حركة التجارة خاصة مع الجنوة، وساعدتها في ذلك مجموعة من الهياكل والأنظمة التجارية.

كانت الامارات الايطالية تتنافس فيما بينها لإقامة علاقات مع ايالة الجزائر وكان من ثماره هو اقامة علاقات تجارية بين الجزائر والامارات الايطالية⁽⁵⁾، انتظمت بين الطرفين عمليات تجارية كانت على نوعين: تجارة التوزيع وتجارة النقل وإن غلب النوع الثاني على الأول⁽⁶⁾ وكمثال على تلك المعاهدات نذكر المعاهدة الجزائرية مع امارة البندقية التي أبرمت بتاريخ 18 جويلية 1763م، تعد هذه المعاهدة فاتحة العلاقات بين الجزائر والبندقية في الفترة الحديثة اذ ضمنت النشاط الدبلوماسي لإمارة

¹- حنيفي هلايلي - المرجع السابق - ص: 30.

²- وليام شالر - المصدر السابق - ص: 150.

³- عزيز سامح التتر - المرجع السابق - ص: 606.

⁴- إسماعيل العربي - قصص الأسطول البريطاني للجزائر وأثاره في الأدب الإنجليزي - ع: 42 - الجزائر - 1978م - ص: 56.

⁵- للاطلاع أكثر على تفاصيل هذا الموضوع ينظر: العربي الزبيري - التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 - 1830م - د ط -

المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1984م - ص: 110 وما بعدها.

⁶- بشاري لطيفة - العلاقات التجارية للمغرب الاوسط في عهد امارة بني عبد الواد من القرن السابع الى القرن العاشر هجريين (13-16م) - ط: 1 -

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - الجزائر - 2011م - ص: 128

البندقية، الهدف منه حماية و رعاية مصالحها. بحيث ظلت هذه سارية المفعول الى غاية العشرينيات من القرن الثامن عشر⁽¹⁾.

كما يتضح جليا أن جمهوريه البندقية لم تستفيد من الملاحظات التي سجلها مفاوض البندقية سلفادور الذي حل بالجزائر عام 1925م، للتفاوض بشأن مفاداة أسرى البنادقة فكتب ما يلي: "ان السلطان في بلاد المغرب لا يغير من موقف الانكشارية في شيء مثل ما هو الحال في الولايات الاخرى..". فالفاوض البندقي، على الرغم من الاقامة القصيرة في مدينه الجزائر فقد تمكن من استيعاب واقع العلاقات بين الجزائر والباب العالي ومدى استقلاله القرار الجزائري⁽²⁾.

كما ربطت الجزائر علاقات مع دول وممالك أخرى من بينها الجنوة الولايات المتحدة الأمريكية إذ مباشرة بعد استقلالها من إنجلترا كانت الجزائر السبابة للاعتراف بسيادتها؛ وتوج ذلك بعقد مجموعة من الاتفاقيات نصت على حماية سفنها في المياه الإقليمية للبحر الأبيض المتوسط⁽³⁾. أيضا جمعت الجزائر بالمدن الإيطالية علاقات فرضت خلالها الجزائر عليها دفع اتاوات مقابل حرية التنقل وعدم التعرض لها⁽⁴⁾.

2- علاقات المغرب الخارجية: ربط المغرب الأقصى علاقات اقتصادية ودبلوماسية وحتى سياسية وعسكرية مع مجموعة من الدول والممالك سواء على مستوى أوروبا أو افريقيا، ولنا في هذه الجزئية وقفة مع نماذج منها.

2-1- العلاقات المغربية العثمانية: لم يستعد المغرب علاقاته الدبلوماسية مع الخلافة العثمانية إلا خلال سنة 1589م. ولا تعبر تلك العودة عن اعتراف بسيادة الباب العالي. على العكس من ذلك فإن السلطان الشريف كان يؤكد في كل رسائله على استقلالية المغرب وعلى الندية

¹ - معاهدة 1521م: ابرمت بين اماره البندقية و الباب العالي في عهد سليمان القانوني (1520-1566) تحصلت بموجبها اماره البندقية على

تجديد لامتيازاتها لاقتصادية التي اعطيت لها في اول معاهدة مبرمة في سنة 1455 م في عهد السلطان محمد الثاني تمثلت في مجموعة من الامتيازات

²- عائشة غطاس- الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها- د ط- منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث- د ب ن- 2007م- ص: 95

³- جون وولف- المرجع السابق- ص: 418.

⁴- ناصر الدين سعيدوني- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- 197.

بين السلطنتين التي يجب أن تساهم في مضاعفة جهودهما لصالح الإسلام في إطار "التضامن الإسلامي، كما تبدو إعادة العلاقات الدبلوماسية منخرطة في ديناميكية أخرى.

فقد كان يهدف المغرب من وراء حاكمه أحمد المنصور الذهبي من وراء إعادة العلاقات إلى مجراها الطبيعي هو الحصول على وسيلة ضغط إضافية على الإسبان للتخلص نهائيا من تهديداتهم. فيكسب بذلك المغرب دعم العثمانيين له في حالة نزاعه مع الإسبان الذين كانوا يبحثون هم بدورهم عن هدنة مع الباب العالي للتفرغ للبرتغال وهولاندا وفرنسا. وكانت انكلترا هي من شجعت على ذلك التقارب خاصة بهدف جمع تحالف واسع للقضاء على النفوذ والسيطرة الإسبانية.

تحسنت العلاقات المغربية العثمانية بشكل ملحوظ أثناء حكم محمد الثالث (1595-1603) لأسباب مرتبطة أساسا بالمتغيرات السياسية والعسكرية التي رافقت توليته الحكم. ففي الجبهة المغربية ازدادت حدة المعارك بين العثمانيين وقوات آل هابسبورك بداية من 1591م لتنتهي إلى حرب طويلة ومكلفة دامت ثلاثة عشر سنة. وفي نفس المنطقة ثارت مقاطعات فالاشيا وترانسلفانيا ومولدافيا ضد الخلافة العثمانية. أما في شرق السلطنة فقد استأنف الصفويون بقيادة الشاه عباس الأول الهجوم في أذربيجان مستعدين مدينة تبريز سنة 1600م. وقد طالت الاضطرابات في قلب السلطنة نفسها. ففي حين تمرد الانكشارية والصبايحية مرات عدة داخل العاصمة اندلعت انتفاضة دموية كبيرة في الأناضول بداية من سنة 1600م.

2-2- العلاقات المغربية مع بلاد السودان: ربطت الدولة العلوية علاقات تجارية مع السودان الغربي⁽¹⁾ إذ كان فرع منهم قد استقروا بتمبكتو، فتمكنوا من إكتساب ثروة مالية هامة، فقد ارتبط الاقتصاد الفيلاي بالتجارة البعيدة مع هذه البلاد "السودان" إذ كانت ممرا للتجارة السودانية عن طريق إقليم توات⁽²⁾ المجاور الذي تزايدت أهميته مع تدهور السلطة السعدية، وقد عرف هذا الخط

¹- للاطلاع على خريطة توضح المعالم الجغرافية لبلاد السودان الغربي ينظر الملحق رقم: 11.

²- إقليم توات: وهو إقليم منطقة صحراوية واسعة، تنزل جنوبا مع وادي سارورة الذي يسمى طريق النخيل حتى مصبه بسبحة المخرقن في قلب الصحراء، ويتسع شرقا في واحات متلاحقة وقصور كثيرة، من أشهرها تيمي وتمنيط أم القرى التي غلب عليها إسم توات، ينظر: أبو راس الناصري- المصدر السابق- ص. 399.

التجاري نشاطا هاما في النصف الأول من القرن 17م بسبب اضطرابات التجارة المحيطية الناتج عن التنافس الأوروبي على الساحل الإفريقي⁽¹⁾.

ولقد لعبت سجلماسة "عاصمة تافيلالت" دورا هاما في هذه التجارة إذ كانت ملتقى الطرق التجارية نحو فاس ومراكش شمالا ونحو فكيك وتلمسان شرقا وماسة وأكاير غربا، كما تنافست عدة قرى على حكم تافيلالت، فكانت قبيلة المعاقيل العربية منذ الموحدين تفرض ضغوطا متتالية على سكان الواحات بقصد الإشراف على التجارة الصحراوية لكن الخنق الاقتصادي على تافيلالت كان سبب الضغوط التي مارسها القبائل "آيت عطا" (الأطلس الكبير الشرقي) على الواحات الفيلاية منذ تدهور الحكم السعدي.

وعلى العموم فقد عرفت المبادلات التجارية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي رواجا كبيرا، ومن بين أهم السلع التي كانت محل تبادل بين الطرفين نذكر: الذهب⁽²⁾ والملح⁽³⁾. كما عرفت تجارة العبيد نشاطا مميزا⁽⁴⁾.

2-2) العلاقات المغربية الأروبية: شملت العلاقات الخارجية للمغرب مع الشق الأوربي

العديد من المجالات منها افتداء الأسرى والشؤون السياسية والتجارية. فمع فرنسا كانت العلاقات بينهما على عهد مولاي الرشيد متوترة، ثم فترت في نهاية عهد مولاي إسماعيل، فعلى الرغم من قبلة الأسطول الفرنسي لسلا سنة 1081هـ/1671م. إلا أن نشاط مجاهدي بحر حوض أبي رقرق لم يتوقف⁽⁵⁾ وبسبب غارات الأسطول الفرنسي عليه سنة 1091هـ/1680م عرض مولاي إسماعيل على لويس الرابع عشر عقد هدنة ومعاهدة صلح لست سنوات مع ضمان حرية الملاحة والتجارة بالمغرب الأقصى للطرف الفرنسي.

³- نجيب زينب- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس - ج:2- ط:1- دار الأمير للثقافة والعلوم- بيروت- 1999م- ص:232.

¹- بن موسى جميلة- تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن9م وإلى غاية القرن 11م- ط:1- منشورات بلوتو- الجزائر- 2011م- ص:184.

³- المرجع نفسه- ص:198.

⁴- محمد بن عبد الكريم المغيلي- أسئلة الأسقية أجوبة المغيلي- تح: زيادة عبد القادر- د ط- د د ن- الجزائر- 2011م- ص:41.

⁴- ابراهيم حركات- المرجع السابق- ج3- ص:54.

لم تمضي مدة على عقدها حتى تكدرت العلاقات مرة أخرى وذلك لعدم إحترام الطرف الفرنسي لإلتزاماته بتحطيمه لسفينة تجارية مغربية خاصة وأسرى بحارتها وركابها وكان لتأزم هذه الأوضاع بين الطرفين أن مولاي اسماعيل عرض إجراء مفاوضات مبدئية وفي سنة 1110هـ/1698م جدد مولاي اسماعيل معاهدة تشمل تبادل الأسرى وقضايا التجارة وغيرها ولكن المفاوضات لم تؤدي إلى نتيجة وبسبب تحالف معظم دول أوروبا ضد فرنسا لسياستها التوسعية في عهد لويس الرابع عشر، أخذ هذا العاهل خلال سنواته الأخيرة من الحكم في الأفول⁽¹⁾ فلم يعد للفرنسيين دور في التجارة مع المغرب يعد لهم ممثل قنصلي أو سياسي من سنة 1131هـ/1718م وأصبح الانجليز سادة في جبل طارق فطغى نفوذهم التجاري بالمغرب.

أما مع إنجلترا فتعود العلاقات إلى عهد قديم، أي إلى العهد الموحد، وتوطدت واتسع نطاقها منذ عهد إليزابيث الأولى المعاصرة لأحمد المنصور الذهبي ومن البديهي أن تبقى العلاقات المغربية، الإنجليزية متوترة بعد الاحتلال هذه الأخيرة لطنجة حتى نهاية 1059هـ⁽²⁾.

وحاولت إنجلترا التفاوض مع المولى إسماعيل سنة 1681م تبادل خلالها الطرفان السفارات فالسفير إنجليزي مولاي إسماعيل زار سفير مغربي "محمد بن حدو العطار" إنجلترا، لكن لم يتم التوصل إلى اتفاق نظرا لاحتلال إنجلترا المعمورة⁽³⁾ سلا.

وقد حاول شارل الثاني بيع طنجة للويس الرابع عشر ولكن المفاوضات لم تنجح وفي الأخير اضطرت إنجلترا إثر اشتداد الحصار، والخلاف الذي نشب بين البرلمان والملك إلى إخلاء طنجة سنة 1684م، واكتفى المولى إسماعيل بمراقبة عملية للجلاء دون أن يتعرض للإنجليز⁽⁴⁾.

أما مع إسبانيا فكانت العلاقات مع هذه المملكة أقل نشاطا مقارنة بتلك التي ربطتها مع فرنسا وإنجلترا، فمن جهة يوجد المغرب في حالة حرب مع إسبانيا بسبب ثغوره المحتلة، ومن جهة

¹ - ابراهيم حركات - المرجع السابق - ج3 - ص: 55، 56.

² - المرجع نفسه - ص: 57.

³ - المعمورة: أسست على مصب نهر سيّو، لكن على بعد ميل ونصف من المكان الذي يصب فيه النهر في البحر، وعلى بعد اثني عشر ميلا من سلا وليست ضواحي المعمورة إلا سهلا رمليا، أنظر: حسن الوزان المصدر السابق - ص 210.

⁴ - محمود علي عامر - المرجع السابق - ص: 93، 94.

أخرى فإن العلاقات التجارية التي كان يفترض أن تكون أوسع نطاقا، مع كل من إسبانيا والبرتغال ظلت خاضعة، للهيمنة التي فرضتها إنجلترا بمراقبتها للملاحة التجارية واستقرارها أخيرا بجبل طارق.

وأهم ميدان كان يقتضي تواصل البعثات والخطابات الدبلوماسية هو ميدان تبادل الأسرى الذي احتل حيزا هاما في تحديد علاقات المغرب مع إسبانيا⁽¹⁾، حيث أولى السلطان المغربي المولى إسماعيل أهمية للأسرى وأحاطهم بعناية خاصة، واهتمت بذلك إسبانيا، بوضعية أسراها، ولأجل ذلك سعت السفارات بينهم للوصول إلى ربط معاهدات، تأرجحت بين القبول والرفض، بسبب الإطار الإقتصادي لهذه المسألة، إذ كان الطرفان يستغلان الأسرى كيد عاملة لبناء الطرق وللتجديف في السفن كما كان المغرب يستعين بخبرتهم وبكفاءتهم من أجل تأطير الدولة وتسييرها⁽²⁾.

هكذا كانت العلاقات المغربية الأوربية يسودها الصراع والحملات المتتالية غير أن الحكام العلويين استطاعوا التصدي لها وتحرير ثغور الأراضي المحتلة كالعرائش⁽³⁾ وأصيلا⁽⁴⁾.

خاتمة المحور التاسع من المقياس

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج لعل من أهمها نذكر:

✓ من خلال عرضنا الموجز لمسار التاريخي للعلاقات الجزائرية مع بعض دول وممالك أوروبا نلاحظ بأن قوة الأسطول الجزائري هي التي مكنتها من فرض سيطرتها ليس على البحر الأبيض المتوسط فقط، بل على مستوى كل العالم. كما أن منطق المصالح هو الذي كان يحرك العلاقات بين مختلف الأطراف، ما أكدته السمة المشتركة بين كل تلك الدول والممالك،

¹ - إبراهيم حركات- المرجع السابق- ج 03- ص: 58.

¹ - إبراهيم حركات- المرجع نفسه- ج 03- ص: 59.

³ - العرائش: هي مدينة من مدن المغرب الأقصى أسسها الأفاقة القدامى على شاطئ المحيط، في المكان الذي يصب فيه نهر الكوس في البحر، وهي واقعة على الضفة النهر، ومن جهة أخرى على المحيط، ينظر: حسن الوزان- المصدر السابق- ج 02- ص: 302.

⁴ - أصيلا: كانت تسمى قديما أزيلا أسسها الرومان على شاطئ المحيط بعيدة عن مضيق أعمدة هرقل بنحو سبعين ميلا وعن فاس بنحو مائة وأربعين ميلا. ينظر: المصدر نفسه- ص ص: 311، 312.

أنه بمجرد ما كانت تتعرض فيها البلاد إلى نكسات، تشن عليها هذه الأطراف حملات شرسة قصد اضعافها ثم احتلالها.

✓ تبين لنا أن مسار العلاقات بين البلدين عرف اتجاهين، أحدهما سلمي والآخر عدواني، والسبب في ذلك أن المنطق الذي كان يسير العلاقات بين البلدين اعتمد على القوة، بمعنى أن كل الدول التي ربطت علاقات مع الجزائر كان من منطلق الخوف من قوة أسطولها البحري، ولكن عندما كان يعرف هذا الأخير نكسات تستغل معظم الأطراف الفرصة لتتعدى على السيادة الترابية للبلاد مستعملة في ذلك كل الوسائل والسبل.

✓ لعب الموقع الاستراتيجي الممتاز الذي كان تتمتع به المغرب الأقصى دورا بارزا ومهما في ربط علاقات مع مختلف الأطراف منه ما كان على مستوى أوروبا، ومنه ما كان على مستوى افريقيا.

واختلفت طبيعة العلاقات مع كل طرف على حسب المصالح المشتركة، والظروف المصاحبة لها.

المحور العاشر

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان

المغرب الحديث

1- بنية المجتمعات المغاربية خلال العهد

العثماني

2- المظاهر الاجتماعية لإيالات المغرب

1- بنية المجتمعات المغاربية خلال العهد العثماني: ضمت المجتمعات المغاربية

ضمن تركيبها الاجتماعية مجموعة من الفئات التي مثلت عناصر مشتركة بينها بحكم التاريخ والدين واللغة المشتركة وتوزع على نطاقين جغرافيين هما المدن والأوطان.

أما سكان المدن فينقسمون إلى قسمين: الأصليين والدخلاء، هؤلاء هم المجتمعات المغاربية

ويمكننا أن نحددها فيما يلي:

فئة الأتراك كان عددهم ضئيل استقروا أساسا في عواصم الإيالات والمدن الرئيسية وقد تحقق

ذلك في الجزائر منذ أن ألحقت بالسلطنة العثمانية سنة 1915م⁽¹⁾ فقد كان عدد الأتراك يقدر

ب15000 فرد، منهم 8000 بمدينة الجزائر سنة 1808م، أما عن تونس فقد وصل عددهم إلى

¹-وليام شارل- قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824- تع وثق وتح: إسماعيل العربي- د.ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر-

1982- ص: 82.

4000 فرد أغلبهم كان يقيم بمدينة تونس، وفي طرابلس الغرب وصل عددهم إلى عدة آلاف. على الرغم من قلة هذه الفئة إلا أن مقاليد الحكم كانت بيدها مما مكنها من تسخير موارد البلاد لصالحها وحسب حاجاتها⁽¹⁾.

الأعلاج: هم عناصر أوربية نصرانية أغلبهم من الرجال وبعضهم من النساء جلبوا عن طريق الأسر قبل أن يعتنقوا الإسلام والتحقوا بالعنصر التركي وتعود أصولهم إلى مختلف بلدان أوربا ولاسيما المطلة على البحر المتوسط⁽²⁾. هذا ما جعل منهم عنصرا دخيلا ارتبط وجوده أساسا بنشاط البحرية فقد تكاثر عددهم في فترة القوة البحرية في القرنين السادس عشر والسابع عشر إذ قدر عددهم بمدينة الجزائر حوالي 25000 شخص أي ربع سكان المدينة، وفي تونس ناهز عددهم 4000 شخص، كما نشير إلى الأسرى النصارى العاديين الذين لم يندمجوا في الوسط المحلي مع بقية الأعلاج، إذ فضلوا المحافظة على وضعهم الخاص متميزين في ذلك بلباسهم وطبيعة عملهم⁽³⁾.

وقد ذكر شارل أندري جوليان أن عدد هؤلاء الأسرى في الإيالات المغاربية، قد عرف تناقصا كبيرا مع تراجع النشاط البحري مع القرن 18م، إن هذا أمر منطقي فإن أساس تواجدهم بالفضاءات المغاربية اعتمد على البحرية⁽⁴⁾.

الكراغلة: احتلت هذه الفئة المرتبة الثانية وهم نتيجة التزاوج بين الجند الإنكشارية ورياس البحر بالنساء الجزائريات بإيالة الجزائر⁽⁵⁾، أما بالنسبة للإيالات المغاربية نقول أنهم المولودون من آباء أتراك وأمهات مغربيات عرفوا بأبناء العبيد "كول وأوغلو" وهي كلمة تركية مركبة من "كول" أي عبد أو غلام "وأغلو" أو ابن العبد على اعتبار أن آبائهم الإنكشارية عبيد السلطان العثماني⁽⁶⁾.

1- ناصر الدين سعيدوني - الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية- (المرجع السابق)- ص 55.

2- أرزقي شويتام- المجتمع وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830- رسالة دكتوراه- جامعة الجزائر- 2005-2006- ص: 60.

3- ناصر الدين سعيدوني - الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية- (المرجع السابق)- ص: 54.

4- شارل أندري جوليان- تاريخ إفريقيا الشمالية- تع: محمد العراقي والبشير ابن سلامة- ج2- الدار التونسية للنشر والتوزيع- تونس- 1985-

ص: 371.

5- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- (المرجع السابق)- ص: 149.

6- ناصر الدين سعيدوني - المرجع السابق- ص: 55.

كانت هذه الفئة تطمح بالميلاد واللغة والانتماء العائلي للإرتقاء إلى المرتبة الأولى في المجتمع⁽¹⁾، لكن الحكام العثمانيين منعوهم من ذلك واعتبروهم أبناء عبيد لأن وجودهم في مناصب الدولة أو الجيش يشكل خطرا على مصالحهم بحكم الانتماء إلى أهالي الجزائر⁽²⁾، وذلك أن العثمانيين سعو لإرساء نظام مغلق يمنع توريث السلطة والمناصب السياسية أو العسكرية ومحاربة كل من يحاول الخروج على هذه القاعدة مهما بلغ شأنه⁽³⁾ ولذلك عانى الكراغلة الجزائريين التهميش والاستبعاد من طرف الآباء الإنكشارية⁽⁴⁾.

إن هذه السياسة دفعت كراغلة الجزائر للقيام بما يمكن أن نصطلح عليه بالدور السلبي في تاريخ الإيالة الجزائرية متجسدا في شكل ثورات وتمردات ضد مواقف الانكشارية والحكام العثمانيين لتطال أثاره على المجتمع الجزائري وقد وصل الدكتور أبو قاسم سعد الله إلى نتيجة مفادها إذا ما قدر للكراغلة أن يتقلدوا مناصب الحكم بقوله: "... ولو نجح الكراغلة لتغيير وجه التاريخ الجزائري، ولوجدنا الحكم فيها أكثر التصاقا بالشعب وأكثر اهتماما بمصالحه وأكثر ارتباطا بقيمه الحضارية، بل لتوقعنا أن يتحول الحكم شيئا فشيئا إلى حكم مستقل وطني..."⁽⁵⁾.

أما في إيالتي تونس وطرابلس الغرب فنجد موقف العثمانيين أكثر مرونة مع فئة الكراغلة من خلال السماح لهم بالانخراط في الجندية ووراثة المناصب العامة ففي تونس تولى مقاليد الحكم فيها مراد باي كراغلي عام 1637م فكان ذلك قاعدة لتأسيس حكم الأسر الكراغلية⁽⁶⁾.

في حين على مستوى إيالة طرابلس الغرب لم يختلف الوضع، إذ استفاد الكراغلة من السماح لهم بالانخراط في صفوف الجيش ووراثة مناصب أبائهم الإنكشارية، وهو سلوك جرى التمهيد له من خلال الإقبال الكثيف للإنكشارية على مصاهرة سكان البلاد، الأمر الذي سمح بظهور أجيال من

1- حنفي هلايلي - المرجع السابق - ص: 166.

2- صالح عباد - الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م - د ط - دار هومة - الجزائر - 2007 - ص: 357.

3- جيون وولف - المرجع السابق - ص: 389.

4- حمدان بن عثمان خوجة - المصدر السابق - ص ص: 116-119.

5- أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - (المرجع السابق) - ص: 149.

6- محمد مقصودة - أوضاع الكراغلة في الجزائر وتونس وليبيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين دراسة سوسيو تاريخية مقارنة - رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه - جامعة وهران 1 أحمد بن بلة - 2018-2019 - ص: 126.

الكراغلة شكلت قاعدة اجتماعية قوية تحولت مع الزمن إلى جماعة ضغط مؤثرة في الحياة العامة مستفيدين من قربتهم للعنصرين المحلي والتركي مما سمح ب بروز شخصيات ارتقت إلى حكم الإيالة كما هو الحال مع " أحمد بك " القرمانلي الذي ينتهي نسبه إلى أحد الجنود الأنكشارية المتطوعين المستقرين بطرابلس، كما أن المجتمع الليبي كان ينظر إلى الكراغلة أنهم عرب أكثر منهم سلالة تركية (أعاجم) لأن معظمهم كان يعيش حسب طريقة العرب المستقرين⁽¹⁾.

أقام أغلب الكراغلة بالمدن، وقد ورد في إحدى الدراسات أن الكراغلة في بايلك الغرب كانوا يتوزعون على خمسمائة جندي في تلمسان، وخمسمائة وأربعة في مستغانم، خمس مائة في مازونة وكانت مدينة المدية تضم عددا كبيرا منهم بايلك التيطري، وهناك عدد من الكراغلة يقيمون في الحاميات العسكرية ببائلك قسنطينة مثل عنابة وتبسة⁽²⁾، ونجد نفس الحال في طرابلس فقد انظم الكراغلة إلى الحاميات العسكرية وإلى جماعات الفرسان (المخزن) بالمنشية⁽³⁾.

على أننا نجد الكراغلة في الأرياف وهم أولئك الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم على الحكام العثمانيين سنة 1629م فكانوا يمارسون العديد من الوظائف كالتجارة والمهام الإدارية المتوسطة والمتواضعة⁽⁴⁾.

ونحن نذهب إلى ما ذهب إليه الأستاذ حسن عبد الوهاب في تفسير موقف الأتراك في الإيالات مع الكراغلة وسبب تكاثرهم راجع إلى القلة العنصر التركي وتراجع نفوذ الأعلج وحاجة الإدارة إلى الموظفين هذا فتح الباب أمام الكراغلة للالتحاق بمختلف الوظائف المهمة سواء الإدارية أو العسكرية وذلك ابتداء منذ القرن 18م لذلك نجد أن بعضهم قد تولوا مناصب الحكم كما أسلفنا سابقا⁽⁵⁾.

1- محمد مقصودة- المرجع السابق- ص: 127.

2- أرزقي شويتام- المرجع السابق- ص: 16.

3- ناصر الدين سعيدوني- المرجع السابق- ص: 56.

4- صالح عباد- المرجع السابق- ص: 357.

5- حسن حسين عبد الوهاب- خلاصة تاريخ تونس- ط: 4- دار الجنوب للنشر- تونس 2001 ص ص: 134-135.

نستطيع القول إذن أن الأتراك اندمجوا مع العنصر المحلي يوم اقتضت المصلحة ذلك إذ أن المهندسين المتقدمين للإيالات المغاربية كانوا فرادى فلم نجد ذكرا أن هؤلاء يصطحبون معهم عائلاتهم وأسرههم فلم يكن هناك من حل غير الانصهار مع العنصر المحلي لضمان التوازن عن طريق فئة المولدين - الكراغلة - أمام الأغلبية الساحقة التي مثلها العنصر المحلي على مستوى الأوطان.

الحضر: يحتل الحضر المرتبة الثالثة في الهرم الاجتماعي، وقد ظهر في هذه الفئة الصناع المهرة والتجار النشيطون، البحارة المغامرون، الفقهاء، العلماء، أصحاب الحرف، الكتاب والإداريون، وهم غالبية سكان المدن الذين ظلوا مرتبطين بوسطهم المحلي ومحافظين على تقاليدهم العربية الإسلامية والذين تعود أصولهم إلى الفترة الإسلامية⁽¹⁾.

يلتحق بالحضر فئات عديدة وهي كالتالي: **جماعة الأشراف** التي تميزت بقلّة العدد والمكانة الرفيعة والحضوة لدى الحكام ذلك أن نسبهم وأصولهم العريقة تعود إلى أهل البيت، كما اشتهر معظم أفرادها بالاحترام والورع والتقوى هذا ما أكسبهم احتراماً وتقديراً لدى الحكام وباقي سكان المدينة، واقتصر نشاطها في المحافظة على امتيازاتهم، إضافة إلى أنهم لم يؤثروا في نظام الحكم⁽²⁾.

جماعة الأندلسيين وهم مهاجرو الأندلس الذين ظلوا يتميزون عن غيرهم بنشاطهم

الاقتصادي

ومعارفهم الثقافية ومهاراتهم الفنية، كما كان لهم نفوذ قوي وكلمة مسموعة اكتسبوا بفعل الخدمات التي كانوا يقدمونها والأعمال الفنية التي أوكلت إليهم ساعدتهم في ذلك ارتباطهم بالموظفين الأتراك عن طريق المصاهرة والاشتراك في الأعمال التجارية المرحة⁽³⁾.

تزايد عددهم في السنوات الأولى من مطلع القرن 17م بفعل قرارات التهجير الإجمالي (1609-1614)م فاستقرت أعداد كبيرة منهم بالمناطق الساحلية لبلاد المغرب أين وجدت المساعدة والتشجيع من الحكام مثل الداوي عثمان بتونس فانتشر ما لا يقل عن 50000 أندلسي بجهات

¹- أبو قاسم سعد الله- المرجع السابق- ص: 149.

²- عبد القادر حلبي- مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م- دار الفكر الإسلامي- الجزائر- 1972- ص: 268.

³- ناصر الدين سعيدوني- المرجع السابق- ص: 56.

الوطن القبلي، كما كان لهم حي خاص بهم يعرف بجومة الأندلس، ولم يختلف الوضع في الجزائر حيث قصدت جماعات أندلسية مدن تلمسان وتنس وعنابة وغيرها⁽¹⁾، كما توجهت بعض الجماعات الأندلسية إلى طرابلس خاصة، في وقت ظلت فيه درنة بإقليم برقة محافظة على طابعها الأندلسي منذ حوالي سنة 1630م حسب رواية العياشي⁽²⁾.

اليهود: بعد أن كان عدد اليهود قد تضاعف ببلاد المغرب خلال القرن 12م، قدمت أعداد كبيرة من يهود إسبانيا مع مسلمين الأندلس، وأصبحوا في القرن 16م يشكلون تجمعات مهمة بالمدن الرئيسية مثل تلمسان، الجزائر، قسنطينة، تونس، سوسة وطرابلس، قدرت في أوائل القرن 19م ما بين 20000 و 30000 بإيالة الجزائر منهم 10000 بمدينة الجزائر، وبأزيد من 30000 بالإيالة التونسية منهم 15000 بمدينة تونس، كما ناهز عددهم بمدينة طرابلس 2000 نسمة⁽³⁾.

ضمنت جماعات اليهود لنفسها مكانة مميزة في مدن الإيالات المغاربية بفضل الحرف والأعمال التجارية التي كانت تتقنها، هذا مكن اليهود من امتلاك أحياء خاصة بهم تعرف بجومة اليهود ومع نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م شهدت الإيالات المغاربية وفود يهود القرنة من إيطاليا وقد تمكنت من اكتساب الثروة عن طريق احتكار التجارة والأشغال كما تحكمت في المبادلات التجارية مع البلاد الأوربية، ففي الجزائر أصبحت الأعمال التجارية بإشراف الوكلاء اليهود على عهد الداوي بابا حسن والداوي مصطفى باشا وحظيت وكالة البكري وبوشناق بامتياز تصدير الموارد الأولية للجزائر، أما في تونس فقد سيطر هؤلاء على المعاملات المالية بالإضافة والمبادلات التجارية واحتكروا التجارة واعتبروا أغنى الفئات بطرابلس الغرب⁽⁴⁾.

إن فئة الحضر والتي تتكون أساسا من العرب والأمازيغ عرفت تزايدا ملحوظا بعد انضمام الأندلسيين إليها بفعل قرارات التهجير وهو ما أوضحناه سابقا، بالتالي هذا التنوع أدى بمدن

¹- ناصر الدين سعيدوني - دراسات أندلسية - مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 2003 - ص ص:

30-48.

²- ناصر الدين سعيدوني - الأوضاع الاقتصادية... - المرجع السابق - ص: 57.

³- المرجع نفسه - ص ص: 58-59.

⁴- ناصر الدين سعيدوني - الأوضاع الاقتصادية... - المرجع نفسه - ص ص: 59-60.

الإيالات الثلاث أن تشهد انتعاشا وازدهارا شمل كل الجوانب فأصبحت مناطق استطاب للسكان وهو الحال مع الجزائر، هذا الوضع أدى إلى انتشار ظاهرة النزوح الريفي نحو المدن بحثا عن العمل والارتزاق وترتب على ذلك ظهور فجة سكانية جديدة في المدن، قادمة من المناطق الريفية والصحراوية والتي اصطلحت المصادر على تسميتها بالبرانية⁽¹⁾.

ب- السكان الأصليون: ضمت هذه الفئة العناصر التالية:

البرانية أو الأعراب: هم الذين قصدوا المدن الداخلية للإقامة والعمل، وقد ظلوا يعتبرون دخلاء ينتسبون إلى مواطنهم الأصلية ويحافظون على أوضاعهم بالاشتغال بمهن وأعمال بسيطة، وقد عرفت مدينة الجزائر بتنظيم محكم ومراقبة مشددة لجماعات البرانية وقد فاق عددهم بمدينة الجزائر 6000 نسمة سنة 1830م مكونة من بني ميزاب، الجماعة الجيجلية، الأغواطيين والبساکرة، هذا وقد اشتهرت جماعة الجرابة بتونس وطرابلس وعرف أفرادها بمهارتهم في الأعمال التجارية البسيطة⁽²⁾.

أما بنية السكان في الريف فتكونت من مجموعة من القبائل نذكرها في هذا السياق:

قبائل المخزن: ظهرت في الفترة الإسلامية التي أعقبت حكم الموحدین، وحافظ عليها الحكام الأتراك وأعطوها صلاحيات واسعة منذ أواخر القرن 17م بهدف القيام بخدمات ومهام كانوا في حاجة إليها مثل ضمان الأمن، الاستقرار واستخلاص المطالب المخزنية من سكان الريف هذا ما جعل عشائر المخزن تقوم بدور الدرکي، فهي قوة عسكرية تتألف في الأساس من مجموعات من الفرسان المعروفين بالمزراقية أو الصبائية أو المكاحلية أو القوم توكل لها مهمة مراقبة السكان ويطلب منها المشاركة في الحملات العسكرية التي تقوم بها فرق الحامية المنظمة مقابل نيل الأراضي وحيارة المراعي، الإعفاء من الضرائب إذ لا يوظف عليها سوى العشر من الزكاة⁽³⁾.

ولهذا الغرض أقر حكام الجزائر، تونس، طرابلس، قبائل المخزن بالقرب من المدن المهمة في الأماكن المتحكمة بالمواصلات، التي تسهل منها مراقبة تحركات القبائل الجبلية والعشائر البدوية مثل

¹- أرزقي شويتام- المرجع السابق- ص ص: 55-56.

²- المرجع السابق- ص ص: 60-61.

³- ناصر الدين سعيدوني- الأوضاع الاقتصادية...- المرجع نفسه- ص: 62.

جهات طرابلس ونواحي برقة ودواخل تونس ومناطق الهضاب العليا القسنطينية وإقليم دار السلطان، التيطري، سهل شلف ووهران. من أهم هذه القبائل: مخزن المنشية بطرابلس، مخزن المراقية بتونس، مخزن عمراوة والزمول والدوائر بنواحي وهران، العبيد والدوائر بالتيطري⁽¹⁾.

جماعات الرعية: تؤلف غالبية سكان الريف الذين يقومون بممارسة الزراعة فأفراد جماعات الرعية يقومون بخدمة أراضي الحكام العثمانيين كأجراء أو خماسيين أو باستغلال الأراضي الخاصة بهم، أراضي عربي بتونس، أراضي عرش بالجزائر، هذا ونظرا لخضوع جماعات الرعية لموظفي الإيالة فهي مطالبة بتقديم أنواع عديدة من المطالب المخزنية والمساهمة بخدمات إلزامية لمصالح الإيالة، كما أنها ملزمة بتنفيذ تعليمات موظفي الجهاز الإداري المركزي من شيوخ القبائل وقادة العشائر، فالشرق الجزائري مثلا كانت قبائل الرعية به تخضع لـ 24 قائدا و 11 شيخا⁽²⁾.

القبائل البعيدة عن نفوذ الحكام: تقيم هذه القبائل في المناطق الجبلية والأقاليم الصحراوية سواء منها القبائل المتعاونة أو المعادية للإيالة وهي تشكل تجمعات قبلية كبيرة تعرف بالأحلاف أو المشيخات أو النجوع، تتصرف حسب مصالحها ومنطلق موقعها ومكانة زعمائها، هذا ما جعلها تحظى بعلاقة مميزة مع الحكام مما جعلها تتمتع بامتيازات واستقلال ذاتي⁽³⁾.

إن هذه القبائل لا تتردد في إعلان العصيان والتمرد في إقدام الحكام على محاولة الحد من نفوذها كما هو الحال بالنسبة للقبائل الجبلية بالأوراس، الحضنة، جرجرة، الونشريس، الطرارة بالجزائر والقبائل القاطنة بجمال خمير والظهر التونسي، أو التي توجد بالجبل الأخضر وبالجلب الغربي بطرابلس، أو بالنسبة للعشائر البدوية القوية بالهضاب الوهرانية وجنوب التيطري ومواطن النماشة بالجزائر أو بنواحي الجريد بتونس ودواخل طرابلس، برقة وفزان⁽⁴⁾.

1- المرجع نفسه - ص 62.

2- ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - المصدر السابق.

3- المصدر نفسه.

4- ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - المصدر السابق.

(2)- نماذج من الأنظمة الاقتصادية المغاربية خلال الفترة الحديثة: شملت التغييرات التي

عرفتها بلدان المغرب العربي المؤسسات الاقتصادية بكل أصنافها، ولأن المقام لا يسعنا أن نتطرق إلى كل المناطق المغربية فسوف نعرض النموذج الجزائري بما أنه جسد التبعية الفعلية للخلافة العثمانية، وطرأت عليه تغييرات جذرية في نظام الحكم ومؤسسات الدولة.

(1-2)- الفلاحة والرعي في الجزائر العثمانية: لم يتطور القطاع الفلاحي في الجزائر مند

أواسط القرن السابع عشر الميلادي، فاقصر الفلاحون على استعمال الآلات البسيطة ووسائل ري تقليدية. وبهذه الأساليب البسيطة ظلت أغلب الأراضي الخصبة تعاني الإهمال، إلا أنه بالرغم من هذه الظروف الإنتاجية التقليدية، فإن الفلاحة كانت مزدهرة ما عدا في سنوات القحط.

فقد كانت الجزائر في العهد العثماني تنتج جميع أنواع الفواكه والخضر والحبوب بكميات تزيد عن حاجيات السكان، وقد أكد شارل هذا الأمر حيث كتب بهذا الصدد يقول: "إن هذا القطاع كان مزدهرا فكانت هناك أجنة الكروم والأشجار المثمرة التي لم تعرف مثلها في أوروبا. وأن الأراضي كانت مغطاة بأجمل الغابات والبساتين⁽¹⁾."

وتميزت الجزائر بشساعة أراضيها، لهذا التجأت السلطة العثمانية إلى عملية تقسيم الأراضي بالشكل الذي رأته كفيلا بأن يقدم لهذا القطاع نوعا من التوازن، و تمثلت هذه التقسيمات فيما يلي:

✓ الملكية الخاصة: كانت قليلة، ولا تكاد تكون موجودة إلا بضواحي المدن⁽²⁾.

✓ الملكية المشاعة: ضمت أراضي العرش والتي كان يستغلها كامل أفراد القبيلة.

✓ أراضي الحبس والأوقاف: كانت تشرف على تسييرها المصالح الإدارية بمساعدة

قبائل المخزن، وفي بعض الأحيان كانت تعطى هذه الأراضي لبعض الأفراد أو حتى

لبعض

²-وليام شالر- المصدر السابق- ص: 108.

³- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق- ص: 58.

⁴- العربي الزبيري، المرجع السابق- ص: 59.

القبائل لتقوم باستغلالها مقابل أجر يتفق عليه⁽¹⁾. وقد أطلق عليها في الوثائق الأرشيفية⁽²⁾ بـ "أراضي قبائل المخزن"، إذ استفادت هذه القبائل من أراضي صالحة للزراعة تم إسقاط المطالب المخزنية عنها لتعتبر امتياز خاص تخضى به، وقد اشترطت السلطة عليها عدم بيعها أو تأجيرها.

-أراضي عزل البايك: أدرجت هذه الأراضي ضمن دائرة مركزها والتي لا تكاد تفصلها إلا بعض الملكيات الخاصة، التي كانت لا تتجاوز مساحتها آلاف الهكتارات⁽³⁾. وكانت هذه الأراضي على اختلاف ملكيتها تنتج كميات كبيرة من الحبوب بأنواعها والخضر والفواكه. وكانت هذه المحاصيل تسد حاجيات سكان البايك، كما كان يصدر البعض منها نحو المناطق الداخلية أو الخارجية؛ فالظروف الطبيعية الملائمة للزراعة في الجزائر بالإضافة إلى مساهمة الجالية الأندلسية في هذا المجال ساهم كثيرا في ازدهارها، هذا ما أكده العديد من الرحالة الذين زاروا البلاد؛ فهذا "هايدو" مثلا ذكر أن فحص دار السلطان⁽⁴⁾ كان يشتمل على 1000 بستان. أما الأب "دان" فسجل أن الجهات القريبة من دار السلطان كانت توفر على 18000 مزرعة⁽⁵⁾.

كما اشتهرت الجزائر العثمانية بوفرة إنتاج الحبوب وجودتها خاصة على مستوى باييك الشرق، إذ امتازت مدينة عنابة بخصوبة أراضيها، وتعتبر الحبوب أكثر المحاصيل الزراعية إنتاجا بها، نظرا للكميات الضخمة التي كانت تصدرها إلى الدول الأخرى، التي غالبا ما كانت تتجاوز أربعين حمولة، أي ما يعادل 16.000 صاع من الحبوب، وقد تبلغ في السنوات الخصبية حوالي 100.000 صاع، هذا ما أكده أحمد باي في مذكراته حين كتب بهذا الصدد يقول: "...إن كل ثروتنا تتمثل في القمح"⁽⁶⁾، ذلك أن تربة الأرض تصلح لهذا النوع من الإنتاج الزراعي. فقد كانت المدينة

¹- العربي الزبيري- المرجع السابق- ص: 59.

²-ينظر الرسالة رقم: 28 من ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642، المصدر السابق.

³- ناصر الدين سعيدوني (النظام المالي في الجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م- مكتبة أحمد زبانة- الجزائر- 1979م- ص: 91.

⁴- ناصر الدين سعيدوني - "فحص مدينة الجزائر"- مجلة الدراسات التاريخية- ع: 1- جامعة الجزائر- 1986م- ص: 11.

⁵- عبد الحميد بن أشنهو- "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن 16 بالبحر المتوسط"- "مجلة الأصالة- ع: 8- ماي- جوان 1972- ص: 301.

⁶-أحمد باي- مذكرات أحمد باي- تح محمد العربي الزبيري- ط: 2- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1981م- ص: 45.

بعدها أن تسد حاجيات السكان تمون دار السلطان بكميات معتبرة...⁽¹⁾. وبهذا أصبح ميناء

عنابة يحتل الرتبة الأولى مع ميناء دار

السلطان في تصدير الحبوب من قمح وشعير⁽²⁾.

كما لعبت الجالية الأندلسية التي استقرت في مختلف المدن الشمالية دورا كبيرا ومهما في ازدهار الزراعة، إذ أصبحت الكثير من المناطق بفضل مهارتهم تشتهر بزراعة الخضر باختلاف أنواعها والفواكه بتعدد أصنافها، ولعل من أهم أنواع الأشجار المثمرة التي نجح الأندلسيون في تطوير إنتاجها وتحسين أنواعها عن طريق التقليل والتطعيم بعد أن كانت تعاني من الإهمال نذكر: أشجار البرتقال، والمشمش، والتفاح والرمان، والإجاص، والكرز، واللوز، والزيتون، والكروم، بالإضافة إلى أنواع البطيخ⁽³⁾.

أما الأنواع التي أدخلوها إلى الجزائر والتي يرجح أنها لم تكن معروفة أو شائعة قبل مجيئهم فهي الليمون، ومختلف أنواع الخضر كالفلفل والبطاطس، والطماطم، والباذنجان، هذا الأخير استمد تسميته من مقاطعة أندلسية هي بتانجال. أيضا الزعفران، والسبانخ والقرنون، والكرات، والجلبان، والملفوف، أو الكرنب، والقرمز الذي كان يستعمل في صباغة المنسوجات بالبيدة ودلس بالإضافة إلى العديد من أنواع الزهور التي كانت تزرع بغرض تقطيرها مثال ذلك الورد⁽⁴⁾.

كما نجح الأندلسيون إلى حد بعيد في توسيع زراعة الليمون، والبرتقال بنواحي البليدة، والتوت بإقليم القليعة وشرشال، حيث كانت تربي دودة الحرير. كما اعتنوا بزراعة العنب بنواحي الجزائر، بعد أن انحط نوعيته وكاد يختفي، فاستخرجوا منه الخل الذي كان يلاقي إقبالا كبيرا من طرف البحارة والجند الإنكشاري⁽⁵⁾.

⁷- ينظر الرسالة رقم: 14، ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - المصدر السابق.

¹- ناصر الدين سعيدوني - "الحياة الاقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني" - مجلة الأصالة - ع: 34، 35 - مكتبة البعث - الجزائر - جوان - جويلية

1976 - ص ص: 96، 99.

²- المرجع نفسه - ص: 139.

³- ناصر الدين سعيدوني - دراسات أندلسية - (المرجع السابق) - ص: 50.

⁴- المرجع نفسه - ص: 50.

ومما ساعد الأندلسيون على تطوير الزراعة معرفتهم بطرق الري الملائمة والتي كانت تقوم على تنظيم محكم ودقيق للمصادر المائية المتوفرة ببعض المناطق، فأقاموا لهذا الغرض الأحواض والصحاريح والسواقي والقنوات⁽¹⁾. كما اشتهرت الصحراء الجزائرية بثمورها المشهورة بجودتها العالية، فهذه منطقة وادي ريبغ مثلاً كانت تملك سبع وأربعين واحة تنتج أجود أنواع التمور، التي كانت تسد حاجيات السكان، وتصدر إلى الخارج.

وما يتبع القطاع الفلاحي ويتصل به اتصالاً مباشراً حرفة الرعي، فلقد كانت الجزائر تمتلك الأعداد الكبيرة من أنواع الماشية والبقر والخيل والبغال، هذا ما أكدته مجموعة التقارير الواردة في مختلف الملفات العثمانية⁽²⁾.

(2)- الحرف في الجزائر العثمانية: عاشت أوروبا خلال القرن السادس والسابع عشر ميلاديين ثورة صناعية كبيرة، وكان على الجزائر بالمقابل مواكبة هذا التطور، لكن إهمال السلطات العثمانية لهذا الميدان ساهم بقسط كبير في ركودها مقارنة بما كان موجوداً في أوروبا. ففي مدينة الجزائر فقط وإذا أخذنا مدينة الجزائر على سبيل المثال انتشرت بها بعض الحرف مثل صناعة الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء والحمراء، إضافة إلى صناعة الروائح والعمور المستخرجة من الورد والياسمين⁽³⁾. ومن بين المهن التي ظهرت في الجزائر العثمانية نذكر صناعة القاقوجية "qâwâiğq"⁽⁴⁾ وهي حرفة بدت سيطرة الكراغلة فيها بارزة. كما انتشرت أيضاً حرفة الحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة

⁵- المرجع نفسه - ص: 50.

¹- مثلاً على ذلك ينظر كل من الرسالة رقم: 15، 15، 18، 19، 26، 29، 30، ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - المصدر السابق.

²- الشويهد متولي السوق عبد الله - قانون أسواق مدينة الجزائر 1107-1117هـ/ 1695-1705م - البصائر للنشر والتوزيع - ص: 182.

³- القاقوجي: هو صانع الشاشية من القماش والصوف وتكون في شكل مخروط، وتلبسها أيضاً النساء في قسنطينة وتلمسان، وهذه الكلمة مركبة من شقين "قاوق" و"جي" وتعني "القبة الكبيرة المحشوة بالصوف" وهي مأخوذة عن كلمة "كاواك" التي تعني "التجويف". ينظر:

Mohammed Ben Cheneb, Op.Cit, p71.

الخزف والجلد والحزير⁽¹⁾. كما لعبت الجالية الأندلسية دورا بارزا في ازدهار بعض الحرف والصناعات في الجزائر العثمانية.

(3)-التجارة الداخلية والخارجية: كانت التجارة في الجزائر العثمانية شأنها في ذلك شأن الدول الأخرى على نوعين، داخلية وخارجية؛ والجزائر بحكم موقعها الممتاز وتعدد ثراوتها كانت على اتصال بالعديد من الدول، هذا فيما يخص التجارة الخارجية، أما الداخلية فقد وفرت السلطة العثمانية مجموعة من المقومات ساهمت في تطويرها وتنشيطها منها الأسواق وطرق المواصلات والأمن.

(أ)-التجارة الداخلية: كانت تتم المبادلات التجارية داخليا على مستويين: المدن والأوطان؛

أما

على المستوى الأول فكانت تتم في الحوانيت التي انتشرت عبر الأحياء، فكان السكان يشترون ما يشاءون من المنتوجات⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بالتجارة على مستوى الأوطان فقد كانت تتم بالأسواق أسبوعية التي مازال الكثير منها باقية إلى يومنا، مثل سوق الأحد، وسوق الأربعاء، وغيرهما من الأسواق، حيث كان لكل قبيلة أو عرش سوق محدد بيوم معين يجتمع فيه سكان المنطقة بتجار من المناطق المجاورة، يحضرون سلعهم لبيع فائض إنتاجهم من مختلف المحاصيل الزراعية سواء بالبيع أو بالمقايضة، وبيع المواد المصنعة ذات الجودة العالية للأهالي وللتجار الآخرين الذين يقومون بدورهم بنقلها إلى أسواق أخرى في مواطن مختلفة، وبهذا كثرت الأسواق بكل من متيجة والبليدة، التي كان مربوا الماشية يبيعون فيها حيواناتهم من البقر والحيل والخرفان والصوف وغيرها⁽³⁾.

⁴- إيف لاکوست وأندري برنيان وآخرون- المرجع السابق- ص: 31، 32..

¹- إيف لاکوست وأندري برنيان وآخرون- المرجع السابق-ص: 64.

²-المرجع نفسه- ص: 194.

ب- التجارة الخارجية: عرفت الجزائر خلال العهد العثماني نشاطا تجاريا كبيرا، حيث كانت تتعامل مع المشرق والمغرب أو حتى دول وممالك أوروبا معا وذلك ببيع ما حصل عليه الأسطول من غنائم، أو من فائض المنتوجات المحلية سواء في الأسواق العربية أو الأوروبية⁽¹⁾.

وكانت هذه التجارة تدر أموالا طائلة مما دفع الدول الأوروبية إلى التسابق للمتاجرة مع الجزائر⁽²⁾. ولقد لعب اليهود دورا مهما في الميدان التجاري، كما كانت الأسواق الجزائرية عامرة بمختلف السلع المستوردة والمحلية⁽³⁾. كما ساهمت المعاهدات المبرمة بين الجزائر ودول وممالك أوروبا في الميدان الاقتصادي للسلع الأوروبية بغزو الأسواق الجزائرية، فتدفقت البضائع، وازدهرت البلاد بشكل كبير حتى أصبحت الجزائر تعج بالتجار الأوربيين⁽⁴⁾.

بهذا احتلت التجارة الخارجية في الجزائر في العهد العثماني مقاما هاما، حيث اعتمدت في البداية على العمليات الجهادية، حيث فضل التجار المشاركة في تسليح المراكب لرياس البحر والقيام بعمليات المبادلات التجارية مع السفن الأجنبية في عرض البحر، وكانت السفن الأوروبية لا تملك من الموانئ الهامة إلا موانئ دار السلطان، التي كانت غالبا مشحونة بالمراكب الأوروبية التي يجلبها رياس البحر وما تحمله من أسرى وبضائع.

هذا فيما يخص أهم الأنشطة الاقتصادية التي اعتمدت عليها الجزائر خلال العهد العثماني، بالإضافة إلى ذلك فقد ارتكزت السلطة على نظام مالي الذي ارتبط ارتباطا وثيقا بكل الأنشطة التجارية؛ ولقد قام هذا النظام المالي على مصادر الدخل الذي اشتمل على نظام الجباية وموارد النشاط البحري والعملية.

³- إيف لاکوست وأندري برنيان وآخرون- المرجع السابق- ص: 123

⁴-عبد الحميد بن أشنهو- " الدور الذي لعبته الجزائر في القرن 16 بالبحر المتوسط" - (المرجع السابق)- ص: 301.

⁵-عبد القادر حلیمي- المرجع السابق- ص: 260.

⁶-لاکوست وبرنيان- المرجع السابق- ص ص: 155، 156.

النظام الجبائي: كان يتماشى وطبيعة البنية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت عليها البلاد أثناء العهد العثماني، لهذا كان تسديد المطالب المخزنية⁽¹⁾ مفروضا على جميع شرائح المجتمع الجزائري، وعلى كل النشاطات الاقتصادية؛ ولقد اختلفت نوعية هذه المطالب باختلاف المنطقة، لهذا انقسمت إلى مطالب كانت تحصل على مستوى المدن وأخرى تجمع على مستوى الأوطان.

*-النظام الجبائي على مستوى المدن: تمثلت في مختلف المطالب التي فرضتها السلطة العثمانية على مختلف الهيئات المهنية والدكاكين التجارية؛ إذ كلف أمناء الهيئات المهنية بجمع هذه المطالب وتقديمها للسلطة⁽²⁾.

وإذا وضعنا مقارنة بسيطة بين ما كان يقدمه كل أمين حرفة معينة، فإنه يلاحظ أنها لم تكن موحدة، فعند البعض كانت ملائمة، وعند البعض الآخر منخفضة، وذلك يعود إلى طبيعة الحرفة ومكانتها في النشاط الاقتصادي، وقيمة المداخيل التي كانت تحصل عليها. وهذا ما يؤكد أن النظام الجبائي كان قائما وفق معطيات اقتصادية واجتماعية.

كما فرض على كل الممارسين لأي نشاط اقتصادي توفير خدمات اقتصادية وتزويد موظفي السلطة بمواد مصنعة مجانا. كما كان يساهم كل دكان برسوم شهرية⁽³⁾. أيضا من أهم عوائد سكان المدن ما اصطاح عليه بضيعة دار الباي، والتي كان يفضلها يشتري الباي جل الهدايا المخصصة للدنوش الصغير، تراوحت قيمتها ما بين 800 و2000 ريال⁽⁴⁾، يضاف إليها أربعة عشر حصان⁽⁵⁾.

هذا فيما يخص المسلمين، أما ما فرض على اليهود من رسوم فترجع أصولها إلى الجزية المفروضة على أهل الذمة المقيمين في البلاد الإسلامية مقابل حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وحق ممارسة عقائدهم الدينية، وتكفل بجمع هذه الرسوم أمين جماعة اليهود نيابة عن أفراد طائفته بمعدل قرش

¹- في كل التقارير التي اشتملت عليها ملفات الوثائق العثمانية لم يتم استعمال مصطلح الضرائب أو الرسوم، وإنما استعمل مصطلح المطالب المخزنية. على سبيل المثال ينظر: ملف الوثائق العثمانية رقم: 3205- المكتبة الوطنية بالحامة، -قسم المخطوطات- الجزائر.

Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d'Abdel Kader, T : 6, Paris : Edition Larousse, 1951.P :260

³-ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي- (المرجع السابق)- ص: 106.

¹-ينظر الرسالة رقم: 4، ملف الوثائق العثمانية رقم:1642.

²- ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي- (المرجع السابق)- ص: 104.

واحد عن كل فرد⁽¹⁾. وبالإضافة إلى ذلك كان يتم تحصيل ما قيمته 500 فرنك، إذا وافق موسم عيد الفطر بيوم السبت⁽²⁾.

*-النظام الجبائي على مستوى الأوطان: إن كل ما كان يستخلصه البايات من سكان الأوطان لم يكن يتجاوز 2% من مداخيل البايك، وتلخصت هذه المطالب في مطالب شرعية وأخرى وضعية؛ أما القسم الأول منها فتكون مما يلي:

✓ **الزكاة:** عبارة عن مطالب شرعية بنص من القرآن الكريم تؤخذ على رؤوس المواشي سنويا، كما كانت تؤخذ على ما كانت يستخلص من الحيوانات من مواد مثل الأصواف والجلود وغيرها⁽³⁾.

✓ **العشور:** يعتبر العشور "قدر معين من لدن الشرع"، يؤخذ من نتاج الأرض، حيث كان يتعين على كل قبيلة دفع هذه القيمة؛ وخضع كل قطاع إلى قائد الجابري⁽⁴⁾، الذي كان يقوم بجولتين في قطاعه، إحداهما كانت أثناء فصل الخريف، أما الثانية فكانت تؤدي بعد عملية الحصاد لتقدير قيمة المحصولات⁽⁵⁾.

✓ **اللزمة:** هي عبارة عن قيمة نقدية وعينية كان يستفاد منها في تموين الجند، أسندت مهمة استخلاصها للشيوخ⁽⁶⁾، كما قامت السلطة بمعاينة كل من يتخلف عن دفعها⁽⁷⁾.

✓ **الغرامة:** كانت تستخلص من القبائل التي كانت ترفض دفع المطالب المخزنية، بصفة شخصية أو جماعية كتعويض على المخالفات والجرائم المرتكبة من طرف القبائل⁽⁸⁾.

³-المرجع نفسه- ص: 105.

⁴- ناصر الدين سعيدوني- ورقات جزائرية- (المرجع السابق)- ص: 159

⁵- ناصر الدين سعيدوني- الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني- البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- د س ط- ص: 154.

⁶-قائد الجابري: كذلك وردتسميتها في ملفات الوثائق العثمانية. ينظر: الرسالة رقم: 18، ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642.

⁷Endré Nouchi, Enquete sur le niveau de vie des populations rurales Constantinoises de la conquete jusqu' en 1919, (Essai d'histoire économique et sociale), 3^{eme} volume, Paris : Presses universitaires de France, 4^{eme} série, 1961. P P: 97, 98.

¹- ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي- (المرجع السابق)- ص: 188.

²- الرسالة رقم: 28- ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642- (المصدر السابق).

³-الرسالة رقم 7- المصدر نفسه.

✓ **الحكور:** هي مطالب عينية تجمع من المحاصيل الزراعية حددت بعشر قطع نقدية من فئة 2.5 فرنك على كل جابدة⁽¹⁾.

✓ **الخطية:** كانت تفرض على بعض القبائل المتمردة عند إقرارها بسلطة البايك وإعلانها الخضوع والطاعة، وتقدمها عادة مقابل حصولها على الأمان⁽²⁾.

✓ **البشارة:** كانت تقدم في المناسبات السارة تعبيراً على الفرح والابتهاج⁽³⁾.

✓ **حق البرنوس⁽⁴⁾:** هو عبارة عن هدية كانت تقدم للباي بمناسبة تسليم الشيوخ الخلعة كرمز لاسناد المنصب أو تجديده⁽⁵⁾.

✓ **المعونة:** هي قيمة نقدية وعينية غير منتظمة وجهت لتموين الجند؛ كانت تفرض في الحالات الاستثنائية كالحروب⁽⁶⁾.

بالإضافة إلى كل هذه المطالب هناك ما كان يسمى بالدنوش⁽⁷⁾ الذي كان اجباري على كل البايات تقديمه للسلطة المركزية على مستوى دار السلطان⁽⁸⁾، كما هناك مجموعة أخرى من المطالب كانت تستخلصها السلطة المركزية من سكان الأوطان، دعمت خزينة البايك بموارد مهمة، ولقد اختلفت قيمتها على حسب الظروف والوضعية الاجتماعية.

4- ناصر الدين سعيدوني - ورفقات جزائرية - (المرجع السابق) - ص ص: 548، 549.

5- الرسالة رقم 30 - ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642 - (المصدر السابق).

6Nouchi- O p. Cit- P P: 97, 98.

7- كذلك ورد تسميته في ملفات الوثائق العثمانية، ينظر على سبيل المثال الملف رقم 1642 - المصدر السابق.

8- حميدة عميراي - جوانب من السياسة الفرنسية - (المرجع السابق) - ص: 28.

9- ناصر الدين سعيدوني - ورفقات جزائرية - (المرجع السابق) - ص ص: 548، 549.

10- **الدينوش:** كذلك ورد تسميته في ملفات الوثائق العثمانية. ينظر: الرسالة رقم: 4- ملف رقم: 1642. وهو لفظ معناه المحاسبة. شاع استعماله في

نوع من الالتزامات المالية. ينظر: ناصر الدين سعيدوني - النظام المالي - (المرجع السابق) - ص: 100.

11- أحمد باي - المصدر السابق - ص: 11.

المحور الحادي عشر

العلاقات المغاربية الثقافية

(1)- لمحة موجزة عن سير العلاقات بين دول المغرب

العربي

(2)- تعريف الرحلة وأهميتها في التواصل الثقافي بين الفضاءات

المغاربية

(3)- الرحلة العلمية ودوافعها

(4)- نماذج من شخصيات علمية رحالة

(5)- الطرق الصوفية وأهميتها في نشر التواصل الثقافي بين

البلدان المغاربية

مقدمة

يتمحور نطاق العلاقات المغاربية الثقافية في تلك الرحلات التي كان يقوم بها طلبة العلم أو حتى أولئك الذين صنفوا ضمن علماء العصر ورواده سعيا منهم لتحصيل المزيد من العلم، أو لنيل اجازات علمية. كما تمحورت حول مجموعة من الطرق الصوفية التي لعبت دورا فعالا في التأسيس لتواصل ثقافي بين المجتمعات المغاربية. ولنا في هذه الجزئية وقفة مع أهمية الرحلة العلمية في توثيق العلاقات بين الدول المغاربية، كما سنتطرق إلى بعض الطرق الصوفية التي كانت بمثابة منابر علم وتبادل ثقافي. ولكن قبل التطرق لهذا الموضوع لا بد لنا من التعريف المختصر لمجال العلاقات بين الفضاءات المغاربية لما له من أهمية في فهم مجريات الأحداث خلال الفترة قيد الدراسة.

1- لمحة موجزة عن سير العلاقات بين دول المغرب العربي: عرف المغرب العربي

خلال الفترة الحديثة الكثير من التغييرات مست كل الميادين، كما عرفت العلاقات بين الفضاءات المغاربية تدبدا بين الصراع والتناحر أحيانا، وبين التكاثف وتبادل المصالح تارة أخرى.

1-1- العلاقة بين المغرب الأقصى وإيالة الجزائر: بالرغم من علاقة الجوار والدين واللغة

والتاريخ المشترك إلا أن العلاقة بين البلدين اتسمت بالجفاء والصراع بكل أشكاله، فمرات يظهر في شكل حملات عسكرية، ومرات أخرى في شكل صراع أيديولوجي وسياسي؛ ومن خلال تتبعنا لمسار العلاقات بين البلدين سوف نتمكن من معرفة تفاصيل هذا الصراع. وهناك الكثير من المعطيات التاريخية والجغرافية التي كان لها الدور الكبير في ظهور الصراع بين الطرفين بكل أشكاله ولعل من أهمها:

✓ التحرشات العسكرية المغربية المستمرة على الغرب الجزائري وبالخصوص تلمسان⁽¹⁾

قصد احتلالها وضمها إلى المغرب⁽¹⁾. بالمقابل ردت الجزائر بالمثل، فوجهت هي أخرى

أخرى

¹- تعتبر مدينة تلمسان عاصمة الزيانيي مركزا حضاريا هاما، ومنطقة عبور تجارية بين أوروبا وبلاد السودان، ووجهة ثقافية دينية مهمة في بلاد المغرب، لذلك كانت دوما مطمعا لحكام المغرب، الذين أشاعوا أن المنطقة جزء لا يتجزأ من المغرب. ينظر: عمار بن الخروف- العلاقات بين الجزائر والمغرب (963-1069هـ/1518-1659م)- رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ- دمشق - 1405هـ/1983م- ص ص: 150، 151.

- حملات عسكرية⁽²⁾ قصد الرد على العدوان المغربي على السيادة الترابية للبلاد.
- ✓ تخوف المغاربة من زوال حكمهم على يد الجزائر، خاصة وأن هذه الأخيرة أصبحت الممثل الشرعي للخلافة العثمانية ليس في بلاد المغرب العربي فقط، وإنما في حوض البحر الأبيض المتوسط كله؛ فقد اعتبر حكام المغرب من المال الذي آلت إليه أنظمة الحكم في كل من تونس وطرابلس، لذلك حاولت أن تترجم هذا الرفض والتخوف بعوائدها المستمر على الجزائر.
- ✓ سياسة الاستفزاز التي اتبعتها السلطة الجزائرية، فقد عملت هذه الأخيرة بصورة مستمرة في التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب، فكانت تزيج حاكما، وتضع من تراه ملائما لسياستها⁽³⁾.
- ✓ تحالف ملوك المغرب مع أعداء الجزائر خاصة الاسبان⁽⁴⁾.
- ✓ التنافس حول الزعامة الإقليمية لبلاد المغرب العربي، إذ حاول المغرب الأقصى أن يغتصب الزعامة من الجزائر التي كانت سيدة المنطقة بدون منافس لمدة زمنية طويلة.
- ✓ رفض المغرب الانضمام تحت لواء الخلافة العثمانية، إذ لا يخفى على كل باحث أن كل من الجزائر وتونس وطرابلس انضمت تحت لواء الخلافة العثمانية ما عدا المغرب الأقصى الذي رفض رفضا قطعيا ذلك محتجا بالقاعدة القائلة أن الخلافة لا تخرج عن البيت العربي، وبما أن العثمانيين هم أعاجم فلا تحقق فيهم الخلافة، هذا هو الظاهر، ولكن في حقيقة الأمر هم تخوف المغرب من زوال نظام الحكم الملكي بها، لذلك

² من بين الحملات العسكرية التي وجهها المغرب ضد تلمسان تلك التي حركها محمد الشيخ عام 956هـ/1549م قصد احتلالها، ولكنها منيت بالفشل. ينظر: يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر- (المرجع السابق)- ص: 50.

¹ حاولت الجزائر الرد على العدوان المغربي بالمثل فوجهت هي الأخرى حملات عسكرية، من بينها تلك التي شنتها القوات الجزائرية سنة 961هـ/1554م على مدينة فاس، وتمكنوا من السيطرة عليها. ينظر: إبراهيم حركات- المرجع الساب- ص: 341.

² مثال على ذلك ما حصل سنة 961هـ/1554م عندما نصبت السلطة الجزائرية أبا حسونة آخر أمراء بني وطاس حاكما على فاس. ينظر: المرجع نفسه، ص: 341.

³ للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه- ص: 270.

فضلت البقاء في خطر مستمر القادم من الاسبان والبرتغال والسماح لهم باغتصاب أراضيها مثل ما حدث مع سبتة ومليلة بدلا من الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية. من خلال ما تم عرضه من نماذج تاريخية حول نوعية العلاقات التي جمعت البلدين يمكننا القول بأنها عرفت جوا مشحونا من المنافسة الغير نزيهة، مما منع حدوث أي تكتل أو تعاون بين الطرفين يسمح بصد العدوان الصليبي على المنطقة.

1-2)-العلاقات التونسية الجزائرية: عانت تونس مثلها مثل بقية بلدان المغرب العربي من الاحتلال الاسباني الصليبي، ولم تستطع التخلص منه نهائيا إلا بعدما تدخلت الجزائر عسكريا بأمر من الخليفة العثماني الذي لب نداء الاستغاثة الذي تقدم به وفد كبار أعيان ووجهاء المنطقة. بعد تحريرها من قيود وظلم الاحتلال الاسباني التحقت تونس بالخلافة العثمانية كولاية تابعة لها تدير شؤونها الجزائر نيابة عنها؛ وبناء عليه ربطت بين البلدين علاقات كانت تتغير وفق الظروف. ومن خلال هذا العنصر سنتطرق إلى مميزات هذه العلاقة على أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن موضوع بهذا الحجم يحتاج إلى دراسة منفردة. ومن بين خصائص هذه العلاقات نذكر:

أ)-على الصعيد الدبلوماسي: قامت بين البلدين علاقات دبلوماسية تجرمتها مجموعة الرسائل التي ضمتها ملفات الوثائق العثمانية⁽¹⁾؛ وقد كلف بهذه المهمة شخص أطلق عليه وكيل الجزائر بتونس⁽²⁾. أوكل له مهمة السهر على رعاية مصالح الجزائر بتونس⁽³⁾؛ كما حمل مسؤولية نقل الرسائل التي كان يبعثها حكام تونس إلى دايات الجزائر والعكس أيضا⁽⁴⁾.

ب)-على الصعيد السياسي والعسكري: لم تستطع تونس أن تتنازل عن أطماعها في الشرق الجزائري، وبالمقابل ظلت السلطت الجزائرية تعيش على أحقاد الماضي، ذلك الماضي الذي

¹- مثلا على ذلك ينظر ملف الوثائق العثمانية رقم 3205- المصدر السابق.

²- ينظر الرسالة رقم: 11-17-22-23، ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642- المصدر السابق.

³- ينظر الرسالة رقم: 20 - المصدر نفسه.

⁴- المصدر نفسه.

كانت فيه البلاد إلى أمس الحاجة إلى من يؤازرها ويقف إلى جانبها من الدول الجوار، فإذا بهذه الأخيرة تستغل تلك الظروف وتتعدى على سيادتها ووحدها الترابية.

هذه المعطيات التاريخية هي التي حركت العلاقات بين البلدين وكانت تؤجج الصراع بينهما كلما تحسنت الأمور وحدث الوفاق والتعاون المتبادل بين الطرفين؛ فهذه الجزائر كات تتدخل باستمرار في شؤون تونس السياسية⁽¹⁾ محتجة بأنها هي من خلصتها من الاحتلال الإسباني⁽²⁾، فيما كانت ترد عليها تونس بشن حملات على مدينة قسنطينة⁽³⁾.

ج)- على الصعيد الاقتصادي والثقافي: ربطت الجزائر بتونس مبادلات تجارية ساهم في انجاحها ورواجها المجتمع المدني، فكانت القبائل الجزائرية بالشرق تتبادل السلع مع القبائل التونسية⁽⁴⁾.

1-3)- علاقة طرابلس الغرب مع محيطها المغربي: عرفت العلاقات بين طرابلس والجزائر اتفاقا وتقاربا مقارنة بتلك التي مست علاقات الجزائر مع كل من المغرب الأقصى وتونس، إذا لم يعرف تاريخ العلاقات بين البلدين أي اصطدام دبلوماسي أو عسكري، بل بالعكس كان هناك تواصل وتعاون بين البلدين. وبالرغم من شح المادة التاريخية حول مسار العلاقات بين البلدين إلا أننا سوف نحاول أن نؤطره في بعض النماذج لعل من أهمها نذكر:

✓ التحالف الجزائري الطرابلسي ضد المآمرات التي كانت تحاك ضد الجزائر، فقد رفضت

طرابلس الانضمام إلى الحلف الذي جمع كل من تونس والمغرب الأقصى لضرب

الجزائر⁽⁵⁾.

¹-تمكنت الجزائر في الكثير من المرات إزاحة حاكم وتولية حليف لها مكانه مثلا على ذلك ما تم مع علي باشا الذي ارتقى العرش التونسي بمساعدة حسين باي قسنطينة سنة 1148هـ/1735م. ينظر: صالح بن العنتري-المصدر السابق- ص: 55.

²-تمكن الأسطول الجزائري بقيادة كل من سنان باشا ودرغوث باشا من تحرير تونس نهائيا من الاحتلال الإسباني وتم لهم ذلك في سنة 982هـ/1574م. ينظر: الجمعي المنعم إبراهيم- الدولة العثمانية والمغرب العربي- د ط- دار الفكر العربي- القاهرة- 2002م- ص: 49.

³- من بين الحملات العسكرية التي شنتها تونس على قسنطينة نذكر تلك التي تمت سنة 1112هـ/1700م بقيادة مراد باي، هذا الأخير حاول احتلال مدينة قسنطينة لكنه مني بهزيمة ثقيلة. ينظر: صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص ص: 50، 51.

⁴-Charles Féraud- Les corporations des métiers a Constantine avant la conquete- R A- 1872- P: 452.

⁵-للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: جعفر عباس حميدي- تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر- ط: 1- دار فكر للطباعة والنشر والتوزيع- عمان- 2000م- ص: 150.

✓ التعاون العسكري بين البلدين، إذا اعتبر الأسطول الطرابلسي ثاني أقوى أسطول عربي على مستوى غربي البحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾.

✓ جمعت البلدين علاقات دبلوماسية ترجمتها وجود وكيل للجزائر بطرابلس، كما أكدتها بعض المراسلات التي كانت تتم بين حكام البلدين⁽²⁾.

✓ ربطت بين كل من الجزائر وطرابلس علاقات تجارية، إذ لا يخفى على أحد الموقع الجغرافي الممتاز لطرابلس، فقد كانت همزة وصل بين المشرق والمغرب.

✓ لم يشهد تاريخ العلاقات بين البلدين أي اصطدام عسكري، مما ساهم بشكل جلي في وجود تقارب كبير بين البلدين.

(2)- تعريف الرحلة وأهميتها في التواصل الثقافي بين الفضاءات المغاربية: حاول

الإنسان منذ بدايته اكتشاف أسرار الأرض والتعرف على رموزها. فوظف الحركة بهدف تحقيق هذه الغاية. لذلك اعتبرت الرحلة منبع ثري لمختلف العلوم. وهي بشكل عام سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور. فالرحالة يسجل خلال رحلته ملاحظته ويصف مظاهر مختلفة في الحياة لما يشاهدها. ولا شك أن الرحالين قد يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم حسب قدرتهم وذوقهم وثقافتهم الأدبية، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم وأمانتهم حسب فهمهم للأمور تحت الظروف المختلفة التي يخضعون لها.

(1-2)- تعريف الرحلة: تعتبر الرحلة جزءاً أصيلاً من حركة الحياة على سطح الأرض، لما لها

من أهمية في حياة المجتمعات والشعوب. وقد أطلق لفظ ترحال على الأقباط الذين تعودوا على الرحلة فسموا قوما رحلا ورغم تعدد اشتقاقات لفظة "رحل" إلا أنها تشترك في معنى واحد وهو الحركة. وقد عرف اللغويون ومن بينهم ابن منظور هذا المصطلح فقال: "رَحَلَ الرَّحْلُ" مركب البعير والناقة وجمعه أرحل⁽³⁾. فيما عرفها آخر بأن مادة رحل تتكون من ثلاث حروف، وهذا المركب يدل على مضي في

⁶- صالح فركس - المرجع السابق - ص: 138.

¹- عمار جحيدر - آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث - د ط - الدار العربية للكتاب - الإسكندرية - 1991م - ص: 177.

³- ابن منظور - لسان العرب - تح: عبد الله علي الكبير وآخرون - مج: 3 - د ط - دار المعارف - القاهرة - مادة رحل - 1608.

السفر⁽¹⁾.

واسم الرحلة مشتق من فعل رحل، يرحل، وترحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل إذا سار⁽²⁾. انطلاقاً من هذا التعريف نستنتج أن الرحلة تأتي بمعنى السير والضرب في الأرض، أي الانتقال من مكان لآخر لتحقيق هدف معين، مادياً كان أو معنوياً⁽³⁾.
والمقصود من الرحلة في بحثنا هذا ليس الرحلة كفعل وحركة وانتقال، وإنما الرحلة التي من خلالها يتم تليظ الفعل والحركة ونقلهما إلى كتابة، بشرط أن تكون الرحلة واقعية وفعلاً جرت أحداثها على أرض الواقع⁽⁴⁾.

2-2) أهمية الرحلة في تحصيل العلم: اتصلت الرحلة منذ أقدم العصور بتاريخ الإنسان، فنجد أن الإنسان كان رحالاً منذ ولادته إلى موته، وتعددت أشكالها بمرور الأيام وبتغير الظروف والأحوال، كما تطورت نيتها على هذا الأساس؛ فالرحلة سواء عند العرب أو عند غيرهم من الأمم، غلب على مادتها الواقعي من الأحداث والدقيق من الملاحظات، من منطلق أن الواقع يفرض على الرحالين أن يتصفوا ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم ونقلها بأمانة وصدق.

أ- الرحلة في القرآن الكريم: طبع العرب كغيرهم من البشر، من مختلف الأجناس على وجه هذه البسيطة على الحركة وتنقل، فاهتموا بالسفر، ومارسوا الارتحال براً وبحراً، مجبرين أو مختارين، سواء داخل الجزيرة العربية موطنهم الأصلي، أو منها إلى أوطان غيرهم ممن تواصلوا معهم عن طريق التجارة تارة، والحروب تارة أخرى، يشهد على ذلك رحلاتهم التي اشتهروا بها عبر مختلف فترات تاريخهم، سواء قبل بزوغ فجر الإسلام أو بعده، والتاريخ يشهد أنه كانت للعرب رحلات تجارية مزدهرة، خاصة مع بلاد الرافدين وبلاد الشام واليمن، وإن لم تدون أخبار هذه الرحلات في

³ - ابن فارس - مقاييس اللغة - ج: 2 - د ط - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - د س ن - ص ص: 497، 498.

¹ - عواطف محمد يوسف نواب - الرحلات المغربية والأندلسية: دراسة تحليلية مقارنة - مطبوعات الملك الفهد الملكية - الرياض - د س ن - ص: 31.

² - أحمد رمضان أحمد - الرحلة والرحالة المسلمون - د ط - دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع - مصر - د س ن - ص: 7.

⁴ - إنجيل بطرس - الرحلات في الأدب الإنجليزي - مجلة الهلال - ع: 7 - القاهرة - 1975 - ص: 52.

مدونات⁽¹⁾. ولكن مكنتنا بعض الآيات من الذكر الحكيم من معرفة البعض منها، فقد أشار الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله إلى بعضها، ومن أشهر ما أشار إليه القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾⁽²⁾.

إن هذه الرحلة التي خلدها القرآن الكريم، هي رحلة دأبت قريش على القيام بها وقد اقترنت باسمها بعد أن ألتها، واطمأنت إليها، وهي رحلة ذات محددات مكانية وزمانية، باعتبارها كانت رحلة موسمية في اتجاهين محددتين: اليمن جنوبا في الشتاء، وبلاد الشام شمالا في الصيف، وقد كانتا رحلتين تجاريتين بالدرجة الأولى، ولحكمة أرادها الله تعالى ربط بينهما وبين بيته الحرام، بما وفره لقريش من أمن ومال، استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾⁽³⁾.

لقد تحقق بذلك للقريشيين ما لم يتحقق لغيرهم، فقد تحققت لهم منة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين، ومنة الأمن من الخوف سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله، أو في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت⁽⁴⁾. ولعل هذا الربط بين الرحلة والبيت الحرام، يدل على أن الرحلة كانت من العوامل المساعدة على تثبيت العقيدة، وتقوية الإيمان، وهي من جهة أخرى، مشروع سعوا من خلاله لكسب الرزق، وفي ذلك حث ضمني، على السفر والضرب في الأرض مصداقا لقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُوجَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁽⁵⁾ وهو ما يفسر جزءا من اهتمام الإسلام فيما بعد، بالرحلة والسفر.

ولما بزغ فجر الإسلام، حدث انقلاب شامل في حياة العرب، مس جميع نواحي حياتهم،

1- فؤاد قنديل - الرحلة في التراث العربي - ط: 2- مكتبة دار العربية للكتاب - القاهرة - 2002 - ص: 25 - 26.

2- سورة قريش وهي سورة مكية.

3- سورة البقرة - الآية رقم: 126.

4- سيد قطب - في ظلال القرآن - ج 06 - دار الشروق - بيروت لبنان - 1982م - ص: 3982 - 3983.

5- سورة المزمل - الآية رقم: 20.

سواء الدينية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، أو السياسية، أو الأدبية، فقد انتقل العرب بفضل هذا الدين، من الكفر والشرك، إلى الإيمان والتوحيد، ومن ظلام الجهل، إلى نور العلم، ومن الفرقة والتشتت، إلى الوحدة والتآلف، ومن سلطان الشعر، إلى بداية الاهتمام بالنثر، ومن الشفوية إلى الكتابة والتوثيق. كما انتقلوا من حياة الانغلاق على الذات، إلى حياة الانفتاح على الآخر والسعي إليه، استجابة لأمر الله تعالى، الذي دعا إلى السفر والسعي والضرب في الأرض، في عديد من آيات الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾⁽¹⁾ وكذلك قوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾.

والملاحظ في الآيتين - كما في كثير من غيرها - أن الرحلة لم يسنها الله سبحانه وتعالى على الإنسان عبثاً، بل يجب أن يكون وراءها هدف، ومن أهم مميزاتها يمكن نذكر:

✓ هناك الكثير من السور في القرآن الكريم عرفت برحلات الأنبياء والصالحين، بالتفصيل تارة، وبالإشارة والتلميح تارة أخرى، سواء تعلق الأمر برحلات الحقيقة، أو رحلة المعجزة كرحلة الإسراء والمعراج.

✓ خص القرآن الكريم رحلات البحر بعدد من الآيات، وردت فيها خاصة لفظتا الفلك والبحر، ورحلة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر نموذج واضح لذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾⁽³⁾ إلى قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾⁽⁴⁾.

¹ - سورة الأنعام - الآية رقم: 11.

² - سورة يوسف - الآية رقم: 9.

³ - سورة الكهف - الآية رقم: 60 - 61.

⁴ - سورة الكهف - الآية رقم: 71.

✓ كان الغرض من ذكر الرحلات في القرآن الكريم أو الإشارة إليها، هو بالدرجة الأولى غرض ديني، قبل أن يكون غرضاً إخبارياً، إذ أن ذكر هذه الرحلات، والحديث عنها، يأتي في الأصل لتثبيت العقيدة، وتقوية الإيمان، وأخذ العبرة.

✓ أشار القرآن الكريم إلى الأهوال والمصاعب المصاحبة للرحلة، سواء كانت برا أو بحرا، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١﴾ .

(ب) الرحلة عند المسلمين: اعتبرت الرحلة وسيلة لنشر هذا الدين، وتبليغه للناس كافة، فقد جاب المسلمون أرجاء هذا الكون، مبلغين للدين تشرفوا بحمل رسالته، واتصلوا وتواصلوا، فأثروا وتأثروا، ضاربين أروع الأمثال في كرم الخلق، وحسن المعاملة، وصدق القول والعمل. وبذلك استطاع الدين الجديد أن يغير النظرة للرحلة، بل لأمس في التغيير مفهومها، فرحلات العرب كانت في كثير من الأحيان للغزو والحروب، وما يلازم ذلك من مظاهر القتل والنهب والسلب. أما بمجيء الإسلام، فقد جعل منها وسيلة للفتوحات، وتبليغ الدين وإعلاء كلمة الله، كما شرع لها شرائعها، ووضع لها قوانينها التي تضبطها، فحرم النهب والسلب والقتل، وكذلك الاعتداء، سواء على البشر أو الشجر والحجر⁽²⁾.

أما الرحلات التجارية، التي كان الغرض منها الربح وجمع الأموال، بجميع الطرق وكيفما كان الحال، فقد أصبح فيها التاجر بفضل الإسلام يتعامل ويتصرف وفق تشريعات مضبوطة، بل أكثر من ذلك فقد أصبح يحمل رسالة من خلالها يعرف بالدين، ويرغب فيه، من خلال تصرفاته، وكل ما يصدر منه في تعاملاته مع الآخر قولاً وفعلاً.

كما لعبت الرحلة دوراً بارزاً في حياة الدولة الإسلامية، وعلى جميع المستويات، فلما كانت

¹ - سورة هود- الآيات رقم: 41-42-43.

² - عباس محمود العقاد- عبقرية الصديق- د ط- منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت- د س ط- ص: 93.

هذه الأخيرة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة المسالك في البر لتنظيم البريد، والاتصال بالأقاليم المختلفة، فقد عني الجغرافيون بهذا الجانب، وزاد في عنايتهم به، حاجة الحجاج إلى معرفة محطات القوافل في اتجاههم إلى مكة لأداء مناسك الحج كركن خامس من أركان الدين⁽¹⁾، ذلك أن الحجاج من ذوي الزاد الثقافي والعلمي، كانوا يحرصون دائما في هذه الرحلة على وصف الأماكن، والطرق والشعاب، والغرض من ذلك البحث عن الأجر والثواب أولا، وثانيا أن يضعوا بين أيدي الآتين من بعدهم، ما يهون عليهم مشاق السفر، ومخاطر التيه في الجزيرة العربية وشعابها، أو إبراز الطرق المؤدية إليها من مختلف أصقاع المعمورة.

يعتبر أدب الرحلة من أقدم أنواع الأدب المعروفة عند المسلمين⁽²⁾، هؤلاء قاموا بالعديد من الرحلات الاستكشافية للتعرف على المناطق المحيطة بهم، والذين اهتموا بتوثيق رحلاتهم، ومنهم من اهتم بجغرافية تلك الأماكن فعمل على رسم الخرائط التي تقدم وصفا للتضاريس الجغرافية التي تعرفوا عليها. ومنهم من دون عادات وتقاليد الشعوب التي استقرت في تلك المناطق.

ويعد القرن 6هـ/11م من أكثر القرون التي شهدت نهوضا ملحوظا بأدب الرحلة، والذي احتوى على العديد من مدونات الرحالة المسلمين أمثال الإدريسي⁽³⁾ في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، والمسعودي (ت346هـ) في مؤلفه الموسوم بـ: "مروج الذهب"⁽⁴⁾، وتأتي رحلة البيروني (ت440هـ)، المسماة تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، نموذجاً فذا مخالفا لكل ما

¹ - شوقي الضيف - الرحلات - ط:4 - دار المعارف - القاهرة - د س ط - ص: 12.

² - لعل من أقدم النماذج الدالة على ذلك نذكر رحلة التاجر سليمان السيرافي بجرا إلى المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري، ورحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال القوقاز عام 227هـ، بتكليف من الخليفة العباسي الواثق، للبحث عن سد يأجوج ومأجوج، وقد روى الجغرافي ابن خردادبه (ت272هـ) أخبار هذه الرحلة.

³ - الإدريسي: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلي المشهور الشريف الإدريسي (493 هـ - 560 هـ) عرف بكثرة التنقل والترحال بين الحجاز ومصر وآسيا؛ أفاد من مؤلفاته وخرائطه كثيرا. اعتبره الكثيرون من مؤسسي علم الجغرافيا. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع: أغناطيوس كراتشكوفسكي - تاريخ الأدب الجغرافي - تر: صلاح الدين عثمان هاشم - مر: ايغوريليباف - د ط - 1957م - ص: 281 وما بعدها.

⁴ - المسعودي: هو أبو الحسن بن الحسين بن علي المسعودي (283 هـ - 346 هـ) يتصل نسبه بالصحابي عبد الله بن مسعود، عرف عنه كثرة الترحال واعتبر من أبرز مؤلفاته "أخبار الزمان" و"مروج الذهب". للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه - ص: 171 وما بعدها.

سلف، إذ تعد وثيقة تاريخية هامة تجاوزت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند قديماً، ممثلة في لغاتها وعقائدها، وعاداتها. كما نجد المقدسي⁽¹⁾ صاحب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، هذا إلى جانب ابن جبير⁽²⁾، أيضاً نذكر في السياق ذاته ابن بطوطة⁽³⁾ وغيرهم من الرحالة المسلمين الذين برعوا في أدب الرحلة.

ولقد ارتبط تدوين كتب الرحلة ارتباطاً وثيقاً بالتدوين التاريخي وقد لا نخطئ إذا قلنا أن التاريخ يسبق بكثير اهتمام الإنسان إلى الكتابة، إذ اجتهد الإنسان الأول على تصوير حياته في رسوم وأشكال على جدران الكهوف⁽⁴⁾، فالتدوين ظاهرة قديمة قدم الإنسان ذاته ومن المعروف أن فراعنة مصر سجلوا أسفارهم في آسيا على جدران المعابد وسار على نهجهم الفنيقيون والإغريق، ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر الملحمة اليونانية المعروفة بالأوديسة لهوميروس، إذ تعتبر مظهراً للرحلة في التراث الغربي، والذي يسوغ لنا ذلك، هو معنى كلمة أوديسة ذاتها فهي "في اللغة الأروبية الحديثة الآن، ترادف معنى سلسلة طويلة من الرحلات، أو رحلة يمتد بها الأمد، وتتخللها المخاطر والأهوال"⁽⁵⁾. وتناولت هذه الملحمة بالتفصيل، مجموعة من الوقائع والأحداث، امتزج فيها الواقع بالخيال، والحقيقة بالأسطورة، وهذه الأحداث تمثل رحلة لشخصيتين هما: تليماك الذي انطلق في مغامرة طويلة للبحث عن أبيه، والأب عوليس الذي سعا لاسترداد ملكه، والظفر بزوجه⁽⁶⁾.

ثم جاء الدور على الرومان، فدون أبناء الإمبراطورية رحلاتهم في الشرق الأقصى وإفريقيا وآسيا

¹ - المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر المقدسي (335 هـ - حوالي 390 هـ) عرف بالمقدسي نسبة إلى بيت المقدس، كان كثير الترحال عرف بجرصه الشديد على توثيق الصحيح والدقيق للأخبار كما عرف بدقة الأسلوب من أبرز مؤلفاته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه- ص: 208 وما بعدها.

² - ابن جبير: هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (468 هـ - 543 هـ) من مشاهير عصره عرف بكثرة تنقلاته بين إشبيلية موطنه الأصلي ومصر وبغداد وبلاد الشام أين تتلمذ على يد الطرطوشي صاحب كتاب "سراج الملوك" قرض الشعر وكتب النثر من أبرز مؤلفاته "ترتيب الرحلة" و"اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك". لتفاصيل أكثر: للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه- ص: 299 وما بعدها.

³ - ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (703 - 779 هـ) أمير الرحالة العرب والمسلمين وصاحب السفر الضخم "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: المرجع نفسه- ص: 421 وما بعدها.

³ - حسين فوزي النجار- التاريخ والسير- د ط- دار العلم- القاهرة- 1963م- ص: 17

⁵ - هوميروس - الأوديسة - تر: عبدة سلام الخالدي - د ط - دار العلم للملايين - بيروت - مارس 1983 - ص: 5.

⁶ - حسين محمد فهميم - أدب الرحلات - عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ع: 138 - شوال 1409 هـ / 1989م - ص: 16.

ومن النماذج الدالة على ذلك نذكر "يوليوس قيصر" في كتابه "التعليقات" أيضا "رحلاته وحروبه في بلاد الغال"، كما وجد العديد من مؤرخي روما الذين دونوا أسفارهم ورحلاتهم⁽¹⁾، وتعتبر سجلاتهم

من أهم المصادر التاريخية خلال تلك الحقبة من التاريخ.⁽²⁾

وبعد أن أفل نجم تلك الحضارات جاء دور المسلمين ففتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس ومن التركمان والقوقاز إلى السودان. وأصبح كل ذلك كيانا واحدا مشتركا في الدين والثقافة⁽³⁾، وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة والتقدم في العالم قاطبة، وتطورت حتى أن عدت المؤلفات الفلسفية والطبية والفلكية والجغرافية والتاريخية التي كتبت باللغة العربية في الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، أعظم مما كتب بأي لغة أخرى فقد كان العلماء المسلمون يترددون على خزائن الكتب في قرطبة التي احتوت إحدى خزائنها على أربع مئة ألف مجلد⁽⁴⁾، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحركة التأليفية العظيمة، التي بلغها العرب المسلمون.

وللإشارة فإن كتابات الرحالة المسلمين كانت عملا راقيا وعلى قدر كبير من الدقة في وصفهم لأحداث تجوالهم⁽⁵⁾، فالرحالة يكتب بمخيلة القصاص فيمزج الحقيقة بالأسطورة والواقع بالخيال⁽⁶⁾ ليرز الصورة في ثوب من التشويق ويعطي تجربته التي حصلها من الاختلاط بالشعوب المختلفة⁽⁷⁾. ومن هنا تتجلى وتبرز قيمة تدوين كتب الرحلات إلى عدة أسباب نذكر منها: حاجة الدول إلى معرفة الطرق والمسالك التي تصل إلى أقاليمها⁽⁸⁾، وتبين مواقع المياه والأسواق ومواطن

¹ شوقي ضيف - المرجع السابق - ص: 8

² مصطفى العبادي - الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري في مصر - د ط - دار المعرفة الجامعية - 1999م - ص: 17، 18

³ شوقي ضيف - المرجع السابق - ص: 8.

⁴ فيليب حتى - العرب تاريخ موجز - ط: 6 - دار العلم للملايين - بيروت، لبنان - 1991م - ص: 12، 13.

⁵ حسين محمد فهميم - المرجع السابق - ص: 13.

⁶ شوقي ضيف - المرجع السابق - ص: 6

⁷ حسين محمد فهميم - المرجع السابق - ص: 17.

⁸ شوقي ضيف - المرجع السابق - ص: 9.

الخطر والمشقة حتى لا يقع فيها الآخرون من مرتادي الطرق⁽¹⁾، فألف الرحالة الكثير من الكتب في وصف المسالك والممالك.

من خلال ما تم عرضه من نماذج حول التطور التاريخي للرحلة في العالم الإسلامي سواء في مشرقه أو مغربه يمكننا ادراك مدى أهميته، وكيف استطاع أن يقدم الكثير من المعلومات سواء في جانبها الجغرافي أو السياسي، الاجتماعي أو الصحي، الثقافي أو الاقتصادي، بحيث ساهم هذا الكم الهائل من المعلومات في رصد واقع المجتمعات المسلمة عبر مختلف العصور. وبما أن المغرب العربي مثلت جزء لا يتجزأ من هذا العالم فقد عرف بدوره بروز أسماء لامعة في هذا المجال، وذلك عبر عصور مختلفة بداية بالعهد الوسيط مروراً إلى الفترة الحديثة، هذه الأخيرة شهدت تغيرات كثيرة ومهمة ساهمت بشكل فعال في بروز رحلة ساهموا في التأسيس لتواصل علمي وثقافي بين الفضاءات المغاربية.

3- الرحلة العلمية ودوافعها: حقق الرحلة العلمية في بلاد المغرب وجودها بجهود ممثليها،

ممن وظفوا رحلاتهم عبر مختلف المناطق في إنتاج مدونات بمستوياتها الشعرية والنثرية، في فضاء ثقافي زاخر تتجاذبه الذات والآخر في آن واحد، فكانت الصورة معبرة لفكر إنساني في نسيج فني؛ ولما كانت الكتابة هي ذلك السجل الحافظ للتحركات الإنسانية المختلفة، فقد حفظت المدونات المغاربية أحداثاً وقضايا وانشغالات، سطرها الرحالة ضمن أجناس أدبية متفرقة على رأسها الكتابات الرحلية. وفي هذا السياق يعثر الباحث في التراث السردي المغاربي على عدد من النصوص المخدلة لأدب الرحلة، مع اختلاف في المقاصد بين رحلة وآخر، وتفاوت في أساليب التأليف وتباين في القدرات الاستعراضية للأحداث حسب الأهمية الزمانية والمكانية لها.

3-1- الرحلة الدينية: شكلت الرحلة عند المسلمين وسيلة لأداء ركن من أركان الدين،

الحج في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ

¹ سميرة الساعد - المرجع السابق - ص: 35

فَجَّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿١﴾.

وهناك دوافع كثيرة وأسباب متعددة تحمس وترغب الإنسان للرحلات، وقد تختلف من قوم إلى قوم ومن عهد إلى عهد ومن شخص إلى آخر حسب رغباتهم وحاجاتهم ومعظمها، فبالرغم من أن دعوة حج بيت الله الحرام قديمة منذ أيام سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام، وعرفت في الجاهلية، إلا أن ما كان يرغبهم إلى ذلك الأسواق التي كانت تقام فيه فلما جاء الإسلام ألزمهم به مرة في العمر للقادر على ذلك وأصبح الحج أحد قواعد الإسلام مقرونا بالاستطاعة وتعتبر من أهم المحفزات والعوامل التي دفعت بالمسلمين إلى الرحلة والسفر.

فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إليها كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها⁽²⁾، وقد اهتم الرحالة والمؤرخون بتدوين ملاحظاتهم ومشهاداتهم ومشاعرهم عن الحج ونوهوا بالاهتمام الذي أولاه السلاطين والحكام في سبيل خدمة الحجاج وتأمين المسالك والمنشآت في طرق الحج خدمة لهم ولحمايتهم⁽³⁾. كما اشتهرت بعض الرحلات على مستوى البلدان الإسلامية عموما والمغربية على وجه الخصوص خاصة في العهد العثماني كان الهدف منها زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء الصالحين⁽⁴⁾. كما كان الهدف منها أيضا تحصيل العلم وتحقيق تواصل ثقافي مع علماء بلاد الحجاز ومصر.

كما اقترنت هذه الحاجة السياسية بحاجة دينية، إذ كان الحج فريضة على كل مسلم مقرونا بالاستطاعة فدون العديد من الحجاج رحلاتهم إلى الأماكن المقدسة في كتب ورحلات مختلفة⁽⁵⁾، كابن جبير وابن بطوطة وغيرهم كثير. وتتباين دواعي تدوين الرحلة من رحلة إلى آخر، فمنهم من دون رحلته تلبية لطلب من الحكام أو الأصدقاء أو الأقرباء لإمتاعهم بما آثرت الإعجاب والدهشة في

¹ - سورة الحج- الآية رقم: 27- 28.

² سورة آل عمران- الآية: 97

³ حسين محمد فهميم- المرجع السابق- ص 80.

⁴ سميرة أنساعدة- المرجع السابق- ص 28.

⁵ شوقي ضيف- المرجع السابق- ص: 9

طريق الرحلة. وإما رغبة من الرحالة في إفادة القراء بتقديم معلومات عن المعارف والعلوم، والتعريف بالعلماء والفقهاء والأعلام وتأليفهم، وكذلك تثقيف الناس فيما يخص مناسك الحج.

وترتبط هذه الدوافع بالرحلات العلمية والحجازية ومما رغب الرحالة أيضا ذكر أخبار الأمم والأقوام ماضيها وحاضرها، ومحاسنها ومساوئها⁽¹⁾، وتقديم معلومات عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المجتازة كان أولوية لتدوين كتب الرحلات.

كما أن هناك من الرحالة الحجاج من أراد المشاركة برحلته هذه وتدوين أخبارها على غرار ما دونه السابقون من الرحلة والأعلام البارزين كالمقدسي والمسعودي وابن جبير وابن رشيد السبتي (657-721هـ / 1259-1321م)⁽²⁾ وغيرهم، هذا وناهيك عن الأسباب الذاتية والرغبة في نيل الثواب والأجر من من الله تعالى والحصول على البركة والخير بذكر الأماكن المقدسة؛ أرض الحجاز وأهله وما تعلق بالإسلام.⁽³⁾

3-2- الرحلة العلمية: ضرب القرآن مثلا عظيما وواضحا لطلب العلم وبيان وجوبه، وأول

من حقق هذا النوع من الرحلات نبي الله موسى عليه السلام، فبالرغم من وصوله إلى مرتبة عالية عند الله تعالى واختصاصه بكلامه رحل موسى عليه السلام للقاء العبد الصالح سيدنا خضر، بغض النظر عن المشقة والمسافة، وسائلا إياه بكل أدب وتواضع أن يعلمه مما علمه الله، مصداقا لقوله تعالى عز وجل: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾⁽⁴⁾ وفي تفسير ابن كثير للآية الكريمة يقول يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك العالم، وهو سيدنا الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى عليه السلام، كما أنه سبحانه وتعالى أعطى لموسى من العلم ما لم يعطه لسيدنا الخضر، (قال له موسى هل أتبعك) سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: (أتبعك) أي : أصحبك وأرافقك،)

¹ - سميرة أنساعدة- المرجع السابق- ص:36.

² - ابن رشيد السبتي: هو محمد بن عمر بن محمد أبو عبد الله محي الدين ابن رشيد الفهري السبتي رحالة وعالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ ولد بسبته ومات بفاس كانت رحلته سنة 683هـ ينظر: خير الدين الزركلي - المصدر السابق- ص:341

² - سميرة أنساعدة- المرجع السابق- ص:36.

⁴ سورة الكهف- الآية: 66.

على أن تعلمني مما علمت رشداً) أي : مما علمك الله شيئاً، أسترشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح.

نستنتج مما ذكر أعلاه أن كليماً الله تعالى موسى عليه السلام تنقل ورحل لتحصيل العلم وقد كان بمقدور الله تعالى إحضار العبد الصالح سيدنا خضر إلى موسى عليه السلام لتعليمه لكنه سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن العلم يحصل بالبحث والسفر لطلبه.

كما وتزخر السنة النبوية الشريفة بالكثير من الأحاديث التي رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب العلم . وتجدر الإشارة إلى أنه هناك الكثير من الفقهاء والعلماء قطعوا القفار وعبروا الأنهار والبحور لطلب حديث النبي صلى الله عليه وسلم، للسمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه. وهناك من العلماء وطلبة العلم من اجتهدوا للحصول على الإجازة فارتحلوا بين أرجاء المغرب والمشرق الإسلامي، ويتعدد هذا النوع من الرحلات بتعدد أغراضه ومقاصده، فهناك الرحلات الاستكشافية والدراسية ورحلات لقاء العلماء، رحلات التنقيب والبحث⁽¹⁾ وكلها تجتمع تحت باب الرحلة لطلب العلم.

وبهذا تعد الرحلة العلمية من أشهر أنواع الرحلات وأكثرها شيوعاً، وقد ذكر المؤرخ الرحالة والعلامة ابن خلدون بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة بهذا الصدد ما نصه "...أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم ، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب منا والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشر والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً...⁽²⁾. نستنتج من هذا النص التاريخي أن التلقي المباشر من أفواه العلماء والمشايخ فيه ترسيخ للعلوم والمعارف لدى طلبة العلم.

ما ذكره ابن خلدون في الفوائد التي يجنيها طالب العلم من الرحلة جعل المسلمين الأوائل

¹ سميرة أنساعد- المرجع السابق- ص:2.

² ابن خلدون- المقدمة- المصدر السابق- ص: 744.

يجوبون الأرض طلبا للعلم وسعيا وراء الشيوخ والعلماء، وفي التاريخ الإسلامي نستشف ذلك الشغف العظيم الذي أولاه الصحابة والتابعين للرحلة من أجل طلب العلم، فكانوا يقطعون المسافات الطوال والدروب لأجل الاستزادة به.⁽¹⁾ وازدهرت الرحلات العلمية وارتفع شأنها خلال عصر الاستقرار والازدهار والحضارة في الدولة الإسلامية حتى مشارف القرن 5هـ/11م.⁽²⁾

4) نماذج من الشخصيات العلمية الرحالة: ظهر مجموعة من الأدباء والمؤرخين المغاربة عبر

حقب تاريخية مختلفة حملوا على عاتقهم تدوين أحداث مهمة من تاريخ بلادهم، فرصدوا لنا واقع المجتمعاتهم أيام أفراحها وأحزانها، انتصاراتها وانكساراتها. كما ساهموا في إنتاج تواصل ثقافي مع بقية البلدان المغاربية بفضل رحلاتهم العلمية.

4-1) أبو راس الناصري: يعد العلامة أبي راس الناصري من بين أشهر العلماء الجزائريين

الذين حملوا على عاتقهم تدوين تاريخ أوطانهم، فحاضر بحياته من أجلها، وأوقف ابداعاته على الدفاع عنها.

ومن بين أهم ما اشتهر به العلامة الناصري ابداعه في أدب المقاومة، لاعتقاده الجازم أنها قضية شعب يجاهد في سبيل تحرير أرضه وطرده الغاصبين منه، ويمكننا أن نقول أنه لم يحارب بقلمه في الواقع من أجل تحرير بلاده، فحسب بل إنه حارب من أجل القيم الانسانية؛ ومن بين أهم المآثر الأدبية التي خلفها العلامة في هذا المجال نذكر على سبيل المثال لا الحصر "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية"، و "فتح الالاه ومنتته في التحدث بفضل رب ونعمته" و "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار في أخبار مدينة وهران".

كل هذه المؤلفات وغيرها ساهمت بشكل جلي في رسم الخطوط العريضة للأوضاع التي عاشتها الجزائر عموما والمنطقة الغربية منها على وجه الخصوص في الفترة الحديثة. لذلك ستكون هذه الورقة البحثية وسيلة علمية لدراسة وتحليل مضمون هذه المؤلفات، باعتبارها وثائق تاريخية لا يمكن

³- محمد مؤنس أحمد عوض - الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام - ط1 - الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - 1995م - ص: 75

²عواطف محمد يوسف تواب - المرجع السابق - ص: 22.

للمؤرخ الاستغناء عنها لرصد وتتبع مسار الصراع الذي خاضه الجزائريون ضد المحتل الاسباني خاصة على مستوى الغرب الجزائري الذي عانى لمدة زمنية طويلة من هذا الاحتلال.

يعتبر أبو راس الناصري من أعلام الجزائر الذين اهتموا بتدوين قضايا أمتهم ووطنهم، فحاولوا بذلك أن يعرفوا لنا بنضال الشعب الجزائري الطويل والمربى ضد كل أنواع الظلم والطغيان والاستبداد، فقد تعرضت الجزائر مثلها مثل بقية دول العالم الاسلامي إلى غزو صليبي حركته مدافع المملكة الاسبانية لذلك عايش أبو راس الناصري حقبة زاخرة بالأحداث الهامة لعبت دورا كبيرا في تكوين شخصيته السياسية والعلمية.

ولد محمد بن عبد القادر الراشدي⁽¹⁾ بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عبد الجليل بن ادريس بن عبد الله بن ادريس بن الحسن الكامل المثني بن الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهما⁽²⁾ يوم 8 صفر من سنة 1150 هـ الموافق لسنة 1737م بقلعة بني راشد، قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري، بين جبل كرسوط⁽³⁾ وهونت⁽⁴⁾، من أسرة ذات علم ومعرفة⁽⁵⁾. انتقل مع والده أحمد⁽⁶⁾ إلى متيجة بعد وفاة والدته، فتكفل بتحفيظه القرآن وتلقينه علوم اللغة، ثم انتقل مباشرة بعد وفاة والده رفقة أخيه إلى المغرب الأقصى أين حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية وفنونها.

توفي العلامة أبو راس الناصري يوم 15 شعبان 1238هـ الموافق لـ 27 أبريل من سنة 1823 م، ودفن بمعسكر، ويعرف ضريحه بضريح سيدي بوراس صاحب المائة وكذا وثلاثون كتابا في مختلف العلوم، يظهر فيها ضريحه يمينا وفي الوسط الطريق الكبير لحي بابا علي وعلى اليسار حمام الجزيرة.

¹ - الراشدي: نسبة إلى بن المرشد القرشي مؤسس مدينة معسكر.

² - محمد أبو راس الجزائري- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل رب ونعمته "حياة أبي راس الذاتية"- تح: محمد بن عبد الكريم- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ص:25.

³ - كرسوط: هو عبارة عن جبل يقع على بعد 8 كلم من وادي تاغية بالغرب الجزائري.

⁴ - هونت: اسم لجبل يقع غرب كرسوط.

⁵ - حمدادو عمر- دراسة مخطوط الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية لأبي راس الناصري المعسكري- عصور الجديدة- ع:1- الرشاد للطباعة والنشر- سيدي بعباس- 2011م- ص:77.

⁶ - الشيخ أحمد: يعتبر من بين القراء الماهرين الذم ذاع سيطهم والأساتذة المشهورين بالصدق والصلاح، ومن حفظة القرآن الكريم وحامله. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول عائلة أبو راس ينظر: أبوراس الناصري- المصدر السابق.

يعتبر أبو راس الناصري من بين الشخصيات العلمية الفذة، التي تثير الاعتراز لما امتازت بها من دقة والتحري للتواريخ الهامة، لا سيما فترة التواجد العثماني بالجزائر من جهة، وصراعها مع الإسبان من جهة أخرى. تتلمذ العلامة أبو راس الناصري مثل غيره من علماء عصره على يد العديد من الشيوخ كان لهم الفضل الكبير في التأثير في ملكته الفكرية والمعرفية⁽¹⁾، حيث أجزى وأجاز، كما كان لهم الدور البارز في تكوين شخصيته السياسية والثقافية التي استطاعت بدكائها وكتابتها التاريخية أن تحظى باهتمام الرعية والحكام على حد سواء في عصره والمؤرخين والباحثين من بعده.

4-2- أحمد المقرئ التلمساني: يعد أحمد المقرئ من أعلام القرن الحادي عشر الهجري

الموافق للقرن السادس عشر ميلادي، فامكاناته العلمية وثقافته الموسوعية بواته مكانة كبيرة بين العلماء والمؤلفين المسلمين باختلاف عصورهم، فأضحت مؤلفاته العلمية مثل (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، و(أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) لا تقل أهمية عن مؤلفات العلماء الأوائل من تاريخ الإسلام⁽²⁾؛ ذلك أنه احتذى حذوهم واستنهج سبيلهم. فالواقف على إنتاجه الأدبي والتاريخي يلاحظ أنه كان موسوعة تبحر في شتى العلوم، مما سمح له بأن يحتل مكانة بارزة ليس بين علماء جيله فقط، وإنما حتى مع الذين برزوا من خلفه.

عاش أحمد المقرئ التلمساني فترة تمازج فيه انتصار دولة الإسلام في جهة من واخفاقها في جهة أخرى؛ فظهور الخلافة العثمانية كقوة راذعة للحملات الصليبية جعل العالم الإسلامي يتفادى التهاوي نهائياً، ولكن بالمقابل سقوط الأندلس على يد النصارى الإسبان سنة 1492م شكل صدمة في ضمير العالم الإسلامي عموماً، وأحمد المقرئ على وجه الخصوص.

لهذا نجد في مؤلفاته يرثي الأندلس الضائعة، ويؤرخ لمحنة المسلمين هناك؛ وكتابه الموسوم بأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لخير دليل على ذلك. فقد انفرد أحمد المقرئ عن غيره من

¹ - عرفت المنطقة تنافساً في مجال التدريس على غرار مدن الغرب الجزائري. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م - ج: 1 - ط: 1 - دار الغرب الإسلامي - 1992م.

² - المقرئ بن محمد أحمد شهاب الدين التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض - ج: 1 - د ط - طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومي المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية - الرباط - د س ط -

المؤرخين أنه اختصر مأساة مسلمي اسبانيا في قصيدة شعر بعث بها هؤلاء إلى السلطان العثماني، إذ اعتبرها وثيقة تاريخية رصدت جوانب كثيرة من محنتهم.

فقد كان الغرض الأساسي عند المقري من دراسة هذه الصفحة من تاريخ هذه الأمة الشهيدة ليس سرد المنجزات والتغني بالأبجداد والبطولات، بقدر ما هو تفسير لانسق الأحداث واستخلاص القيم والعبر منها قصد تدارك الأخطاء، وتكوين نظرة شمولية تمكن من استشراف المستقبل، ففي فكر المقري أن نكبة سقوط الأندلس، التي شكلت في أوج ازدهارها منارة حضارية بددت ظلام التخلف والجهل الذي خيم على أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، مصير يمكن تغييره وتداركه.

3-4) أحمد بن بوجمعة الوهراني: هو أحمد بن أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني الشيخ الفقيه الحافظ المطلع المحقق المشارك مات ما بين سنتي 930/920 هـ الموافق لـ 1514 / 1524 م. وهو شريف النسب لأن بوجمعة "جده هو ابن محمد بن عمر الهواري، دفين وهران، بن عثمان بن عياشة بن عكاشة بن سيدي الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار ابن أبي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه"⁽¹⁾. كتبت فتوى أبي جمعة الوهراني سنة 1504 بالعربية، وحملت إلى إسبانيا عبر بلنسية. وقد أعاد كتابتها مسلم أراغوني في العشرية الثانية من القرن 16م وحملها إلى أراغون مع نصوص عربية أخرى. وحينما فرض التنصير على مسلمي أراغون سنة 1526م، وبدأ ضغط محاكم التحقيق عليهم، ترجم مسلمو إسبانيا هذه الفتوى إلى اللغة الأخمياوية سنة 1563م⁽²⁾. وهي النسخة المحفوظة بمدريد. وفي سنة 1609م، وقبيل الطرد النهائي من إسبانيا، ترجم مسلمو أراغون هذه الفتوى مرة أخرى إلى الأخمياو. وهي النسخة المحفوظة اليوم بفرنسا.

تعتبر الفتوى التي أصدرها الفقيه المغربي أحمد بن بوجمعة، مؤرخة في رجب من سنة 910هـ/ 28 نوفمبر 1524م وثيقة تاريخية ذات مدلولات متنوعة، كلها مهمة. يخاطب من خلالها مسلمي اسبانيا بعد ثلاثة عشر عاما من سقوطها، وبعدها بدأ الاضطهاد الشديد والمنع العنيد والعنف

¹ - محمد بن يوسف الزباني - المصدر السابق - ص: 37.

² - جمال مجاوي - سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610 - د ط - دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر - 2004م - ص: 251.

البليد، في كل ما هو إسلامي، وبدأت عمليات التنصير والتهجير والتنكيل والتقتيل والتحكم والتهكم، بضرورة البقاء والدفاع على وجودهم ومقومات شخصيتهم الإسلامية؛ وقد حفظ نص الفتوى في بعض خزائن ومكتبات العالم.

وفي السياق ذاته يجب التنويه إلى دور المراكز الإسلامية في التواصل الثقافي وعلى رأسها جامع الزيتونة، الذي بفضلله نشطت الحركة العلمية بين تونس والجزائر، إذ أصبحت تونس مقصدا للكثير من طلاب العلم، الذين كان ينتقلون إليها قصد تحصيل المعارف والعلوم⁽¹⁾.

5- الطرق الصوفية وأهميتها في نشر التواصل الثقافي بين البلدان المغربية:

شكلت الطرق الصوفية أحد أهم ميزات المجتمع المغربي منذ الفترة الوسيطة، وازدادت أكثر خلال العهد العثماني، لتعبر بذلك عن هوية المجتمع بالمنطقة وانتماءه الديني، وقد تعددت الطرق الصوفية بها وتنوعت وتكاثرت فروعها وازداد مرديها من الجزائر إلى طرابلس الغرب إلى المغرب الأقصى، لذلك سنعرض في هذه الجزئية أهم الطرق الصوفية التي عرفتها بعض دول المغرب والتعريف بمدى أهميتها في التأسيس لتواصل ثقافي بين المجتمعات المغربية.

5-1) الطريق والطريقة لغة: لهما في اللغة عدة معان ولكن سنقتصر على ما يرتبط

بموضوعنا. فالطريق هو السبيل، يذكر ويؤنث كأن يقال الطريقُ الأعظم أو الطريقُ العظمى، و قد أُسْتُعير عن الطريق كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل ما محمودا كان أو مذموما، والطريقة تدل على الحال تقول فلان عل طريقة حسنة، أو على طريقة سيئة، وهي السيرة والمذهب وكل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محمودا كان أو مذموما.⁽²⁾

أما اصطلاحا تغير المدلول الاصطلاحي للطريقة عبر الزمن فكان الأولون يعنون به التصوف في حد ذاته، ونرى لذلك علاقة بالمعنى اللغوي إذ أن المتصوف يحدد له طريقة أو مسلكا يسير عليه نحو الله أي نحو مرضاته وهي تتضمن أداء الفرائض و جملة من الممارسات التي يلتزم به لتربية النفس

¹ -صالح بن العنزي- المصدر السابق- ص ص: 59، 60.

² - أبو الفيض محمد الزبيدي- تاج العروس من جواهر القاموس- د ط- دار الحكومة- الكويت- 1990- ص-ص: 72-82.

وتزكيتها.منها تلاوة القرآن والذكر بأعداد خاصة وشروط معينة والنوافل من صلاة وصوم وصدقات، وما يزال المتصوف على هذه الطريقة حتى تصير نفسه طائعة واقفة عند حدود الله مفطومة عن المعاصي والمحرمات غير أن هذه الممارسات تتخلف من صوفي لآخر ورغم أنها في البداية كانت مجرد ممارسات فردية أو جماعية لا تنم عن تكتل معين إلا أنها مع الوقت تغيرت و أصبحت مهيكلة ولكل

فئة تصف نفسها باسم شيخها و كل فئة تسمى بالطريقة الفلانية⁽¹⁾.

5-2) أهم الطرق الصوفية بالجزائر المتنقلة إلى دول الجوار: بلغت الطرق الصوفية في

الجزائر نحو العشرين(20) طريقة في العهد العثماني وهي تختلف اختلافا بينها في كثير من الجوانب كمدى تأثيرها في الجنب الثقافي والسياسي والاجتماعي، وسنكتفي بعرض أهم هذه الطرق وهي كالآتي:

الرحمانية: هي فرع جزائري للطريقة الخلوتية، أسسه محمد بن عبد الرحمان بن أبي القاسم القشتولي الأزهري (ت 1794) المعروف لدى العامة بسيدي محمد بوقبرين. درس بمسقط رأسه بآيت سماعيل (ولاية تيزي وزو) ثم حج واستقر بالقاهرة لمتابعة دراسته بالأزهر، ولذلك لقب بالأزهري. وكان شيخ الخلوتية بمصر آنذاك هو محمد بن سالم الحفناوي فأخذ عنه الطريقة وارتحل إلى الهند والسودان ثم عاد لمصر ثم إلى موطنه وعمل على نشر هذه الطريقة تحت اسم الرحمانية ولقي إقبالا كبيرا وانتشرت انتشارا سريعا في وسط الجزائر وشرقها بلغت زواياها 177 زاوية⁽²⁾.

التجانية: أسسها أحمد بن محمد بن المختار التجاني (ت 1815) حفظ القرآن الكريم، وحصل العلوم في مسقط رأسه عين ماضي (بالأغواط) وبعد العشرين من عمره جال الجزائر وزار المغرب ثم ذهب للحج، واتصل في أثناء كل ذلك بمشاهير الصوفية وأخذ عنهم في المغرب الأقصى القادرية، والناصرية، وطريقة أحمد الحبيب السجلماسي، ولما كان في طريق الحج أخذ الرحمانية بالجزائر ثم الخلوتية في مصر عن شيخها محمود الكردي. ولما عاد للجزائر أقام مدة في بو سمغون(البيض) و أسس وردا خاصا بطريقته الجديدة التي أخذت اسم التجانية، اضطر إلى الهجرة لفاس في 1798، وأسس بها زاوية مماثلة للزاوية الأم بعين ماضي وامتد نفوذ التجانية بقوة في المغرب الأقصى و بنيت لها زاوية بتونس كذلك والسنغال والنيجر أما في الجزائر فانتشرت بصفة خاصة بالشرق والوسط كانت لها 17 زاوية منها 12 زاوية بالشرق⁽³⁾.

¹ عبد الحكيم مرتاض - الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني - أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ والآثار بجامعة أحمد بن بلة - وهران - 2015-2016 - ص: 19-20.

² عبد الحكيم مرتاض - المرجع السابق - ص: 45-46.

³ -المرجع نفسه- ص: 46-47.

الدرقاوية: الدرقاوية شاذلية الأصل ظهرت في المغرب الأقصى وأول من دعا إليها الشريف إدريس المسمى علي بن عبد الرحمان الفاسي المدعو الجمل، الداعي إلى تعاليم الشاذلية والعودة إلى منابعها الأصيلة وهو المؤسس الحقيقي للطريقة الدرقاوية وقبيل وفاته نقل التعاليم الروحية لتلميذه محمد العربي الدرقاوي(1737-1823). وينسب اسم الطريقة إلى قبيلة الدرقا و أطلق اسم الدرقاوية على أتباع مولاي العربي الدرقاوي، وتعتبر الزوايا المنتشرة بالجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسنغال فروعاً للزواوية الأم ببويرج.⁽¹⁾

4-3- أهم الطرق الصوفية بالجزائر الوافدة إلى دول الجوار: من بين أهم هذه الطرق

نذكر:

القادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلاني (471-561 هـ/1078-1166م) مفتي بغداد

الذي أخذ أصول طريقته عن الجنيد، برزت في القرن 12م تتميز بالإصلاح والتوجيه الحسن والتسامح ونشر المعرفة انتسب إليها الكثير من المريدين كعبد الكريم المغيلي بتوات، وأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني ومرابطي مدن الجزائر وقسنطينة وبجاية و وصل تأثيرها إلى فاس⁽²⁾.

الجنيدية: تنسب إلى الإمام الجنيد وعنها تتفرع الشاذلية التي تعتبر الأكثر ارتباطاً بها³.

الشاذلية: منسوبة إلى أبي الحسن علي الشاذلي، وهو أحد أعمدة التصوف في جميع العصور، حج وجمال في المشرق ثم عاد إلى مسقط رأسه، واتصل بالشيخ عبد السلام بن مشيش وأخذ طريقته عنه واستقر بتونس ثم هاجر إلى الإسكندرية وبقي مقيماً فيها، و يتسم ظهورها بالجزائر مع القرن الخامس عشر و صارت أما لأكثر الطرق التي ظهرت بالبلدان المغاربية ومنها الزروقية.⁽⁴⁾

الصديقية: سماها مريدياً نسبة إلى أبي بكر الصديق، باعتباره هذا الأخير رضي الله عنه هو الجد

¹ - علجية مقديش - الطريقة الدرقاوية في الجزائر: مفهومه ومواقفها من الإحتلال الأجنبي 1786-1914 - مجلة التراث - ع25 - ص:129.

² مياسي إبراهيم - مساهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية - مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية - ع4 - 2003-2004 - ص: 94-96.

³ عبد القادر صحراوي - الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني - مجلة الحوار المتوسطي - ع3-4 - 10مارس2012 - ص:26.

⁴ عبد الحكيم مرتاض - المرجع السابق - ص:29

المباشر لسيدي الشيخ الذي تُرُدُّ إليه القبيلة المتمركزة بالجنوب الوهراني والممتد نفوذها للصحراء الجزائرية وتافيلاليت بالمغرب، ويعتبر يعتبر سيدي معمر بن سليمان أول من نصبت له قبة في الجزائر.⁽¹⁾

العروسية: نسبة لابن عروس المتوفى 868هـ/1463م درس التصوف بتونس ومراكش، وعند عودته إلى تونس عاش زاهداً، ولكنه قام بأعمال غريبة جلبت له عداوة الفقهاء، رغم عطف الحفصيين عليه، وإثر وفاته رفعه أتباعه لمرتبة سيدي محرز حامي تونس لمدة خمسة قرون، ولم تظهر العروسية إلا في القرن 10هـ/16م عندما كثر الأولياء في بلاد المغرب

الزروقية: تنسب إلى أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس المعروف بأحمد زروق البرنسي، المتوفى في 899هـ/1793م، و تعتبر الزروقية فرع من فروع الشاذلية، ولكنها جمعت بينها وبين القادرية، وظل زروق يحرص دائما على عدم تعارض الطريقة مع الشريعة ونقائها، ويرى أن التصوف فردي يميز الخاصة الواعية. وأحمد الملياني أحد مريديها، وانتشرت في المغرب والجزائر وطرابلس في القرن 10هـ/16م.⁽²⁾

4-5) خصائص المدرسة الصوفية في طرابلس الغرب: لم يعرف التصوف في طرابلس الغرب بعض الأفكار الخارجة عن العقيدة الإسلامية كالحلول والاتحاد والفناء وغيرها، وإنما تميزت باتباع التصوف السلفي السني الذي لا يصادم الشريعة الإسلامية، ومع ذلك فقد واجه معارضة شديدة من قبل الفقهاء لبعض الأساليب المتبعة في الطرق الصوفية، ومن ثم فإن ممن بين أهم خصائص التصوف في ليبيا هو: الخلاف بين المتصوفة والفقهاء، واتباع الطرق لما عرف بالتصوف السلفي السني.

أ) - الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة: وقع الخلاف بين الطرفين حين رجح الفقهاء العقل وأحكام الشريعة وهو ما عرف بعلم الظاهر في حين حكم المتصوفة القلب وما يدركه من خلال المواجه، وهو ما عرف بعلم الباطن، وزاد الخلاف حدة عندما دخلت الفلسفة في التصوف. ومن ذلك مثلا إنكار الشيخ الدوكالي على تلميذه الشيخ عبد السلام الأسمري الذي أصبح يضرب الدف فتصبيه حالة من الجذب فنهاه عن ذلك ، بل وأمر بحبسه وقال الشيخ الدوكالي: "إن الله لا يعبد بالشطح ولا بالردح ولا بالدفوف ولا بالكفوف". والأمثلة على الخلاف بين العلماء والمتصوفة عديدة، فالعلماء يرون أن

¹ عبد القادر صحراوي- المرجع السابق- ص: 27.

² سبنسر ترمنجهام- الفرق الصوفية في الإسلام- تر: عبد القادر البحراوي- دار المعرفة الجامعية- 1994- ص: 363.

الوصول لا يتم إلا بالعبادة التي شرعها الله، أما المتصوفة فلهم وسائلهم التي يرونها موصلة لذلك⁽¹⁾.
لم تكن الطرق الصوفية لتستمر إلى يومنا بسبب ذلك الخلاف الذي كان بين هم وبين الفقهاء لولا أن وجد حل وسط بين الطرفين فوجد المتصوف الكبير، الشيخ أحمد زروق رحمه الله الذي جمع بين العلمين، التصوف والفقهاء، يختار طريقا وسطا بين العلماء والصوفية، وذلك فيما يتعلق بالسماع وما يصاحبه من طقوس ومراسيم فقد نهى عنه وأبغضه وحذر منه من جهة، وأجازة عندما تدعو الضرورة له كالتمسك به والمتعود عليه كنوع من الابتلاء فأجازه في هذه الحالة ولكن بشروط: كتصحيح النية في القصد، والتقليل منه، وعدم إظهاره وإظهار محبته، فهذا نوع من التوفيق بين الصوفية والفقهاء وتخفيف لحدة الصراع.⁽²⁾

5-5) علاقة السلطة العثمانية بالطريقة السنوسية: الطريقة السنوسية: تنسب هذه الطريقة للشيخ محمد بن علي السنوسي الهاشمي القرشي، المولود سنة 1202هـ بمنطقة واقعة على ضفاف واد شلف التابع لبلدة مستغانم تعلم القرآن وبدأ في أخذ العلوم والارتحال داخل الجزائر وخارجها ورحل إلى الحجاز حيث أسس أول زاوية هناك، ثم جاء لطرابلس الغرب وبدأ دعوته واختار في الأخير الجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية البعيدة عن الساحل وعن عداوة علماء استانبول والقاهرة والبعيدة عن استيلاء النصارى الذين أصبحوا يتقوون يوما بعد يوم. ومن الجغبوب بدأت الطريقة تتقوى وتنتشر إلى كافة ربوع ليبيا وخارجها حيث امتدت إلى التشاد والسودان والنيجر وغيرها⁽³⁾.

تظهر معالم العلاقة والتبادل في المصالح بين السلطة العثمانية والسنوسيين بشكل كبير في عهد الشيخ محمد الهادي السنوسي الذي خلف الشيخ محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة والدعوة السنوسية. ففي بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني طلب من الشيخ محمد الهادي السنوسي إرسال قوة من رجاله لمساندة العثمانيين في حربهم ضد الروس، إلا أن الشيخ السنوسي رفض لانشغاله بأمور الدعوة والتعليم والتربية وهذا الأمر جعل السلطان عبد الحميد يرتاب من أمر هذه الحركة فطلب من والي طرابلس بموافاته بكل المعلومات اللازمة التي تبين حقيقة هذه الحركة ومدى استعدادها للعمل ضمن

¹ جمعة محمود الزريقي - المرجع السابق - ص: 67.

² - المرجع نفسه - ص، ص: 70، 71.

³ محمد علي الصلاحي - تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا - ط3 - دار المعرفة - بيروت - لبنان - 2009 - ص، ص: 21، 60.

سياسة الدولة العثمانية ولاسيما موقفها من مشروع الجامعة الإسلامية، فأجاب الوالي كمال باشا (1893-1898) بما يشعر بحسن العلاقة مع السنوسية، وطمان الباب العالي بنوايا الحركة الحسنة وثقته كوالي برجالها وأكد في رسالته التي بعثها لإستمبول على الفوائد العلمية والاجتماعية التي تحققها الحركة السنوسية بالصحراء الكبرى من رفع المستوى الديني والثقافي، ومواجهة حركة التبشير، ومساهمتها في دخول عدد كبير من الزوج للدين الإسلامي، وأكد في ختام رسالته انقياد الحركة وزواياها ومريديها إلى الدولة العثمانية.⁽¹⁾

كان السلطان عبد الحميد يسعى لمعرفة مساعي ومقاصد المهدي السنوسي فأرسل صادق بك المؤيد ليستطلع على الأمر، فأخذ من الشيخ السنوسي الجواب بأنه لا يقصد من تحركاته سوى خدمة الدين الإسلامي، وبث الدعوة لطاعة السلطان⁽²⁾.

وحين اطمان السلطان عبد الحميد إلى صدق توجه الحركة السنوسية لدولة الخلافة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى الشيخ الهادي السنوسي رسالة تتضمن أسس حركة الجامعة و حقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذي يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة⁽³⁾. ودعا السلطان من خلال رسالته إلى الالتفاف حول دولة الخلافة الإسلامية وطاعة ولاة أمورها ولا سيما في مثل هذه الظروف وحذر السلطان الشيخ السنوسي من عمليات التسلل الأوروبي إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار السياحة والكشف الجغرافي مبينا المقاصد الحقيقية وراء ذلك التي تستهدف الدين، وأكد كذلك على ضرورة تبصرت كل من له علاقة بالسنوسية حول خطر الأوروبيين وحول أهمية الالتفاف حول دولة الخلافة⁴. وعلى العموم تبين لنا كل هذه الإرشادات والنصائح بتلك الرسالة طبيعة العلاقة بين السنوسية والسلطة العثمانية واعتماد كل طرف على الآخر لنصرة الدين ونشر السنوسية ممن جهة وضمان استمرار سيادة العثمانيين من جهة أخرى.

خاتمة المحور الحادي عشر من المقياس

¹ محمد علي الصلاحي- المرجع السابق- ص:193.

² لوثرروب ستودارد- حاضر العالم الإسلامي- تر:عجاج نويهض- تع: شكيب أرسلان عن السنوسية- ج2، دار الفكر، ط4، 1973، ص144.

³ المرجع السابق- ص: 194.

⁴ محمد فؤاد شكري- المرجع السابق- ص:87.

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا أنخرج بمجموعة من الاستنتاجات لعل من أهمها نذكر:

✓ من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا القول بأن المسار التاريخي للعلاقات الجزائرية الطرابلسية عرفت توافقا وتقاربا سياسيا وعسكريا واقتصاديا مقارنة بتلك التي مست كل من تونس ومغرب الأقصى.

✓ يقترب مفهوم الرحلة اصطلاحا من مفهومها اللغوي، إذ يشتركان في الصفة اللازمة بفعل الارتحال، وهي الحركة والانتقال.

✓ ينقل الرحالة للقارئ صوراً أو طرائق وقصصا ومشاهدات لكل ما رأى وشاهد. والتراث الإسلامي ملئ من أخبار الرحلات والرحالة وما دونه عن مشاهداتهم ووصفهم من نماذج رفيعة من أدب الرحلات مما جعل السفر تراثا ليتصل بالجغرافية الوصفية والتاريخ الإسلامي. ولقد سجل الرحالة مشاعرهم بأسلوب جميل ومؤثر. فالرحالة يكتب كتابا متنقلا، تضم صفحاته صوراً لبلاد مختلفة التي يمر بها ووصف الأماكن والمساجد والمكاتب والشخصيات التي يلتقى بها وجمع معلومات وغيرها.

✓ لعبت الرحلة العلمية دورا بارزا في التأسيس لتواصل ثقافي بين الفضاءات المغاربية.

✓ ظهرت شخصيات علمية كان لها دورا مهما في تنشيط الحركة العلمية في دول المغرب العربي.

✓ شكلت الطرق الصوفية إحدى أهم رموز المجتمع المغاربي ولاسيما في الفترة الوسيطة وتعبّر بشكل قوي عن انتماءه الديني والروحي وهذا ما يعكس لنا التأثير القوي للطرق الصوفية في حياة الناس كالولاء المطلق لشيخ الطريقة و التبرك بالأولياء والمقدمين وغيرها من المظاهر التي تبين لنا مدى تأثير الطرق في المجتمع الجزائري المغاربي.

✓ أثرت وتأثرت الطرق الصوفية بالوجود العثماني سلبا وإيجابا، أما من الجانب السلبي فتبين لنا تلك الثورات الشعبية الثورات كالثورة الدرقاوية والتيجانية بالجزائر، أما من الجانب الإيجابي فيبرز من خلال العلاقة القوية التي ربطت الطريقة السنوسية بالسلطة العثمانية بطرابلس الغرب لدرجة إعفاء الزاوية السنوسية من الضرائب وإعطاء شيوخها الهدايا والوصايا.

الطائفة

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا أن نخرج بمجموعة من النتائج لعل من أهمها

نذكر:

✓ ساهمت مجموعة من العوامل إلى تراجع قوة المسلمين في المنطقة، مما شجع الصليبيين على مهاجمة المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى بهدف الاستيلاء عليها إلى غاية ما تمكنوا من اسقاط آخر معقل إسلامي بالأندلس الشهيدة وهي مملكة غرناطة التي ظلت تواجه الزحف الصليبي إلى غاية سنة 1492م تاريخ سقوطها.

✓ يعتبر حدث تسليم غرناطة بالنسبة للملكين ايزبيلا وفرناندو وللملوك الذين سوف يرثون العرش من بعدهما، بمثابة انتصار سياسي وعسكري لا غير، أما الانتصار الأكبر والأشمل بالنسبة لهم فكان لا بد من أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هؤلاء تكمن في تحقيق الوحدة الروحية والدينية، والتي قد تكون بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية، وذلك بحسب منطلق ذلك العهد؛ لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق إلا على جسر التنصير الإجباري.

✓ مثل سقوط الأندلس منعرجا خطيرا في مصير المسلمين في المنطقة، فقد حاولت السلطات الاسبانية بكل مؤسساتها منذ اللحظة الأولى التي تبعت السقوط أن تسير حربا صليبية ضد كل ما يمثل الإسلام من لغة وعقيدة وعادات وثقافة مستعينة في ذلك بمحاكم التحقيق، هذه الأخيرة لم تذخر جهدا في سبيل تحقيق الوحدة الدينية والقومية لاسبانيا الجديدة؛ وأمام هذه التطورات الخطيرة لم يبق لمسلمي اسبانيا سوى خوض صراع أقحموا فيه اقحاما بالرغم من أنهم حاولوا التعايش مع الوضع الجديد وتقبل الأمر الواقع. فمن بين المؤهلات التي يجب الإمام بها في هذا المجال الاطلاع على منشأ وأسس ومنطلقات النظرية السيكلوجية وتتبع مختلف التطورات والتنقيحات التي مرت بها خلال مقاربتها لظاهرة الصراع، والتوقف عند أهم الملاحظات والاستنتاجات المسجلة عليها من قبل الباحثين أيضا. لنستطيع بعد ذلك، اتخاذ المسار الذي يرتضيه الموضوع قيد الدراسة.

✓ يعتبر حدث تسليم غرناطة بالنسبة للملكين ايزبيلا وفرناندو وللملوك الذين سوف يرثون العرش من بعدهما، بمثابة انتصار سياسي وعسكري لا غير، أما الانتصار الأكبر والأشمل بالنسبة لهم

فكان لا بد من أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هؤلاء تكمن في تحقيق الوحدة الروحية والدينية، والتي قد تكون بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية، وذلك بحسب منطق ذلك العهد؛ لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تتحقق إلا على جسر التنصير الإجماعي الذي كانت محاكم التحقيق الوسيلة الفعالة لتجسيده على أرض الواقع.

✓ نتج عن سقوط الأندلس سنة 1492م انعكاسات خطيرة مست الوضع الداخلي، كما مست الوضع الاقليمي، فقد وجهت اسبانيا حملة صليبية ضد السواحل المغاربية لتحقق مجموعة من الأهداف سطرتها قبل سقوط غرناطة بزمن بعيد.

✓ اجتمعت مجموعة من الدوافع لتحرك مشروع الغزو الاسباني على السواحل المغاربية. وما يلاحظ عليها أن الاسبان لم يختلفوا عن غيرهم من المحتلين في ترتيب أولوياتهم.

✓ شكل الدافع الديني المحرك الرئيس وراء الحملة الصليبية الاسبانية، ولكن المتمعن في سير الأحداث يدرك تمام الادراك أنه كان مجرد ستار لأهداف أخرى وعلى رأسها الدافع الاقتصادي.

✓ تذرعت السلطات الاسبانية باستقبال البلدان المغاربية للأندلسيين الفارين من بطش وتنكيل محاكم التفتيش، ولكنها كانت مجرد حجة لتقنع الرأي العام الدولي بضرورة وشرعية مشروعها.

✓ نتج عن سقوط الأندلس سنة 1492م انعكاسات خطيرة مست الوضع الداخلي، كما مست الوضع الاقليمي، فقد وجهت اسبانيا حملة صليبية ضد السواحل المغاربية لتحقق مجموعة من الأهداف سطرتها قبل سقوط غرناطة بزمن بعيد.

✓ اجتمعت مجموعة من الدوافع لتحرك مشروع الغزو الاسباني على السواحل المغاربية. وما يلاحظ عليها أن الاسبان لم يختلفوا عن غيرهم من المحتلين في ترتيب أولوياتهم.

✓ شكل الدافع الديني المحرك الرئيس وراء الحملة الصليبية الاسبانية، ولكن المتمعن في سير الأحداث يدرك تمام الادراك أنه كان مجرد ستار لأهداف أخرى وعلى رأسها الدافع الاقتصادي.

✓ تذرعت السلطات الاسبانية باستقبال البلدان المغاربية للأندلسيين الفارين من بطش وتنكيل محاكم التفتيش، ولكنها كانت مجرد حجة لتقنع الرأي العام الدولي بضرورة وشرعية مشروعها.

✓ برز الحفصيون كقوة فاعلة على مستوى الساحة المغاربية، فأسسوا مملكتهم في الجزء الشرقي للمنطقة وجعلوا عاصمتهم تونس 625هـ/1227م، فقد أسسها أبو حفص الذي كان من السابقين إلى تبني أفكار ابن تومرت، وكان بنو حفص الممثلين الحقيقيين للتقاليد التي سارت عليها دولة الموحيدين.

✓ أسس بنو مرين مملكتهم بعدما تمكنوا من القضاء على ما تبقى من نفوذ الموحيدين نهائياً سنة 688هـ/1269م. وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس، وهي أقوى الممالك الثلاث. اتسعت رقعتها، اتساعاً كبيراً في عهد سلطانها أبي الحسن الذي تولى عرش فاس والمغرب الأقصى سنة 731هـ/1230م.

✓ تمكن بنو عبد الواد من تأسيس مملكتهم سنة 633هـ/1235م وجعلوا عاصمتهم تلمسان، ويرجع الفضل في تأسيس هذه المملكة إلى الدور الذي قامت به قبيلة بني عبد الواد إحدى بطون زناتة؛ واستطاعوا أن يفرضوا وجودهم، ولكن اصطدموا بقوتين حالتا دون تحقيق ذلك - الحفصية والمرينية- إلى أن زال بنو عبد الواد وخلفهم بنو زيان.

✓ من خلال ما سبق طرحه يمكن القول أن المعضلة الأمنية في بلاد المغرب الإسلامي عموماً وفي المغرب الأوسط على وجه الخصوص تميزت بالفوضوية وانعدام سلطة مركزية، مما جعل الممالك الثلاث (الحفصية والزيبانية والمرينية) تشعر بالتهديد، فسعت كل واحدة منهم للحصول على مزيد من القوة، تقيها عدوان محتمل والانفلات من تأثير قوة الآخرين، لكن هذا ما جعل كل طرف يشعر بمزيد من اللأمن، مما يدفعه للتأهب للأسوأ، وبما أنه يستحيل أن يشعر كل طرف من هذه الأطراف بالأمن تماماً في عالم يتكون من وحدات متنافسة، كما يتعذر له الاطمئنان أو الثقة بنوايا بعضها البعض، فإن السعي للقوة يتواصل، وبالتالي فالصراع من أجل القوة هو سيد الموقف.

✓ تعتبر مسألة النزاعات الحدودية من بين القضايا التي تسببت في توتر العلاقات بين الدول على مر العصور التاريخية، لاسيما في الفترة الوسيطة والحديثة والتي شهدت بداية تشكل الكيانات السياسية، وهو ما شهدته الكيانات المغاربية خلال الفترة قيد الدراسة؛ إذ اندلعت بين الفضايات

المغربية - المرينية، الزيانية، الحفصية- العديد من النزاعات، وصراعا سياسيا وعسكريا حول بسط النفوذ والزعامة الاقليمية.

إذ تعد النزاعات الحدودية بين ممالك المغرب الإسلامي من الموضوعات المعقدة والشائكة، باعتبارها نزاعات ترتبط بسيادة المملكة على إقليمها، كما ترتبط بهيبتها على الصعيد الخارجي؛ إذ أن أي نزاع حدودي بين دولتين يفترض وجود إدعاءات متعارضة بشأن سيادة كل منهما على مناطق الحدود المتنازع عليها. ومن بين أهم النزاعات الحدودية التي أزمت الأوضاع العامة في بلاد المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط بصورة خاصة، هو النزاع الحدودي بين المناطق الثلاث؛ حيث كان لبعض القبائل الشمالية والجنوبية دورا بارزا في هذا التنزع، مما جعلنا نعتبر التعايش السلمي بين مختلف مكونات المجتمع الجزائري من جهة، والمجتمعات المغاربية من جهة أخرى من المواضيع الحساسة والمعقدة.

✓ جعلت الظروف البحر الأبيض المتوسط يلعب دورا تجاريا وعسكريا في تاريخ العالم أكبر مما لعبه أي مسطح مائي آخر يتمتع بالحجم ذاته، فقد سعت أمة بعد أمة للسيطرة عليه، ولا يزال الصراع مستمرا.

✓ تعتبر منطقة البحر الأبيض المتوسط أكثر المناطق أهمية، فمميزاتها الجغرافية جعلتها مهدا لأعظم الحضارات في التاريخ، كما مكنته من أن يكون من أهم البحار والممرات المائية التي تسيطر على الحركة التجارية في العالم، كل هذا جعل المنطقة المتوسطة نقطة ارتكاز في استراتيجيات الدول بحيث تسعى الكثير منها خاصة الكبرى بالتواجد الدائم في المنطقة المتوسطة وذلك بهدف المحافظة على مصالحها وتحقيق أهدافها وهذا ما لاحظناه في كل من اسبانيا والبرتغال والخلافة العثمانية.

✓ يعتبر العامل البحري أهم عامل جغرافي يؤثر في قوة الدولة ليس في حجم المساحة التي تشغلها بقدر ماهي في طول سواحلها و طبيعة موانئها.

✓ رغبة الخلافة العثمانية في الحاق بلاد المغرب بالسلطة العثمانية، ورأت في الاخوة بربروس سيلا لتحقيق هذه الغاية.

- ✓ رغبة الاخوة بربروس في العمل تحت ظل الخلافة العثمانية، وكان الهدف من ذلك اكتساب الحماية والسند والدعم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أرادوا اضعاف الصبغة الشرعية لعملهم البحري.
- ✓ أدرج ملف عثمانة المغرب العربي في حسابات الخلافة العثمانية، ذلك لما كان يتمتع به من موقع استراتيجي، ومقومات أخرى تساهم في تقوية النفوذ العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالفعل فقد كان لها ذلك فالحاق كل من الجزائر أولا وطرابلس ثانيا فتونس لاحقا بالخلافة العثمانية أكسبها قوة ونفوذا في المنطقة.
- ✓ تميز المسار التاريخي لمشروع الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية بمرحلتين: مرحلة تم استعمال فيها القوة العسكرية والقتل والبطش والتنكيل من أجل اخضاع المدن الجزائرية الساحلية من أهمها مرسى الكبير ووهران وبجاية، ومرحلة تم فيها اخضاع بقية المدن الساحلية عن طريق فرض معاهدة الاستسلام التي فرضت على سكان المدن المستسلمة أن يعيشوا النتائج نفسها التي عايشتها المدن المذكورة أعلاه، إلا أن الفارق الواحد بينهما هو أنهم تفاعلوا في مجازر وحشية تخالف كل الأعراف والقوانين الدولية والانسانية معا.
- ✓ تميزت طرابلس بموقع استراتيجي مهم جعل الكثير من القوى الأجنبية تطمع في احتلالها ومن بين هذه القوى نذكر اسبانيا، فقد سخرت هذه الأخيرة كل طاقاتها المادية وبشرية بهدف احتلالها والسيطرة عليها وقد تمكنت من ذلك مع نهاية سنة 1510م.
- ✓ واجهت اسبانيا الكثير من المشاكل والأزمات سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي مما أجبرها على أن تتنازل على طرابلس لفرسان القديس يوحنا وقد تم لهم ذلك خلال سنة 1530م، لتبدأ طرابلس مرحلة تاريخية أخرى من الاضطهاد والتنكيل.
- ✓ تمكن الاسبان من احتلال مواقع مهمة من تونس خاصة بعدما آل الحكم فيها إلى سلاطين ضعفاء كان هم الوحيد اللهو والمجون.
- ✓ أصبحت مسألة تأمين المتوسط بالغة الأهمية بالنسبة للخلافة العثمانية، هذا ليس فقط لأنه شكل على مر العصور جبهة انكشاف استراتيجية، ولكن أيضا لأن أمنها مرهون باستقرار هذه المنطقة، ذلك لأن المتوسط يعتبر من بين أهم الطرق الذي تتم عبره المبادلات التجارية.

- ✓ التواجد العثماني الممثل في الاخوة بربروس في جزيرة جربة ومن بعدها حلق الوادي كان الهدف منه تنفيذ عمليات للمراقبة الدائمة لحوض البحر المتوسط.
- ✓ عززت الخلافة العثمانية قدراتها الاستطلاعية والهجومية من خلال إقامة شبكة قواعد عسكرية (جربة- حلق الوادي- جيجل) تمهيدا للهيمنة على مياه البحر الأبيض المتوسط.
- ✓ إن النظرة العثمانية للمنطقة المتوسطية لم يفرضها الواقع بل جاءت من خلال الواقع الجديد الذي عملت كل من اسبانيا والبرتغال على بنائه وتطويره من خلال مختلف الوسائل والآليات وذلك بربط جملة الأفكار والمبادئ بمجموع الوسائل المادية التي تخول لها بناء واقع خاص تستطيع التعامل معه، لذلك فالخلافة العثمانية وفي ظل إستراتيجيتها والتي أصبحت ترتبط فيما يعرف بعثمنة العالم الإسلامي، كانت ترى بأنها مؤهلة أكثر من غيرها لتقود هذا العالم وذلك لأنها تمتلك كل مقومات القوة ليجعلها الفاعل المهيمن في العلاقات الدولية.
- ✓ تدخل العثمانيون في الشرق الجزائري ثم في المناطق الأخرى بناء على طلب من سكانها، وكان هذا التدخل عسكري، حاول خلالها الاخوة بربروس فرض وجودهم وبسط نفوذهم بمختلف الوسائل والسبل.
- ✓ نظرا للمخاطر التي حاصرت خير الدين وأتباعه من كل جهة عد استشهد أخويه في موقعة راشد، لم يجد حلا سوى تخير الجزائريين بين رحيله أو تعيينه حاكما عاما على الجزائر بطريقة رسمية وشرعية. وبهذا وضع خير الدين الجزائريين أمام خيارين أحدهما أمر من الآخر:
- إما الرحيل وبالتالي جعلهم فريسة سهلة للأسبان الذين كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة للانتقام، خاصة أنه لم تكن هناك قوة سياسية وعسكرية تحمي البلاد من هذا العدو المترص بهم.
- البقاء في الجزائر ولكن في المقابل الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وتعيين خير الدين حاكما عليها بطريقة رسمية وشرعية؛ وهذا الخيار أيضا لم يكن ليفرح الجزائريين، ولكن لا مفر منه نظرا لتشابك المصالح بين الطرفين.
- ✓ نستنتج أن الجزائر استكملت بناء مؤسساتها السياسية والاقتصادية مع نهاية القرن 16م، حيث كان لتبعتها للخلافة العثمانية دورا بارزا في تحقيق وحدتها السياسية والاقليمية ورسم معالمها

الجغرافية، إذ تم تقسيمها إلى أربع مناطق متباينة: دار السلطان وبايلك تيطري وبايلك الشرق وبايلك الغرب.

✓ مرت الجزائر بأربع حقبة، تميزت كل واحدة منها بمجموعة من الخصائص، وتفاوتت فيما بينها من حيث الإنجازات الحضارية والقوة العسكرية.

✓ شهدت منطقة المغرب الأدنى أوضاعا مزرية مست كل جوانب الحياة ما شجع الإسبان على السيطرة عليها وبسط نفوذهم طمعا في خيراتها وموقعها الاستراتيجي.

✓ أفضى الصراع الذي درت أحداثه بين الإسبان والعثمانيين إلى انتصار هؤلاء عليهم، فقد تمكنوا سنة 1574 من إنهاء وجودهم في كل المناطق التونسية وعثمنتها.

✓ مع انتصاب العثمانيين في تونس عام 1574 وضع حد للفوضى التي ميزت البلاد خلال القرن السادس عشر ميلادي، وبدأت تونس مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي عرفت خلالها نهضة اقتصادية وانتعاشا للحياة العلمية والثقافية، حيث استقطبت الإيالة كفاءات بشرية ماهرة جاءت من أماكن مختلفة من العالم وساهمت في تنشيط البلاد وإحيائها من خلال بناء المدارس والجوامع والقصور، وكان من بينهم الأتراك والمشرقيون والأندلسيون والأوروبيون.

✓ مرت تونس مثلها مثل الجزائر وطرابلس بمراحل سياسية تميزت كل واحدة منها بمجموعة من الخصائص، تأرجحت بين القوة والازدهار أحيانا، وبين الضعف والفوضى أحيانا أخرى.

✓ كان المبرر الرئيس لاستبدال نظام الحكم الوطاسي بالسعدي ومبايعة المغاربة للإمام عبد الله كان بالدرجة الأولى صد العدوان الصليبي على البلاد، ثم تغيير الأوضاع المزرية في شتى المجالات.

✓ أدى الانتصار الذي حققه الجيش السعدي إلى انهيار القوة العسكرية والمعنوية للبرتغال والدول الحليفة، وهو ما وضع حدا للأطماع الاستعمارية بشأن المغرب، كما عمل على تقوية المغرب وتعزيز مكانته. إذ شكلت المعركة نقطة تحول كبير في تاريخ المغرب، فقد ترتب عليها العديد من النتائج مست الكثير من الجوانب.

✓ حكم السعديون المغرب الأقصى قرابة قرن من الزمان. ومن أهم خصوصيات هذا النظام السياسي الجديد أنه غاير الدول التي سبقته على مستوى عصبية التي لم تستند إلى عصبية

قبلية كبرى ونافذة بالمغرب مثل صنهاجة ومصمودة وزناتة، أو الأصول الأمازيغية. بل استندت إلى عنصر معنوي مغاير هو عنصر "الشرف". وقد عاشت هذه أطوار الدولة ثلاثة، متقاربة فيما بينها من حيث المدة، غير أن الغالب عليها كان هو الاضطراب والصراع مع قوى الداخل والخارج.

✓ اعتبر تأسيس الدولة العلوية بمثابة انتقال قوية وفعالة مست كل الميادين سواء الجانب المالي أو السياسي وحتى الإداري، كما غيرت توجهاتها على الجبهة الخارجية إذ سعت لتكوين شخصية دولية تحاول أن تبقى على وجودها وسط صراعات دولية خاصة على مستوى البحر الأبيض المتوسط.

✓ تعتبر الدولة العلوية، التي ما زالت مستمرة إلى اليوم، من أبرز الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى. وقد استطاعت الحفاظ على استقراره ووحدته بالرغم من الظروف الصعبة التي ظهرت في سياقها داخليا وخارجيا، حيث الفتن والانقسام الداخلي الحاد والمد الصليبي على السواحل المغربية.

✓ من بين أهم العوامل التي ساعدت العلويين على تحقيق أهدافهم السياسية، دون غيرهم من القوى التي كانت تنافسهم على حكم المغرب، جملة من الأسباب، من أبرزها وانتسابهم للسلالة النبوية الطاهرة، إضافة إلى كفاءة قادتها الأوائل.

✓ مع إطلالة القرن السادس عشر ميلادي، شهد حوض البحر الأبيض المتوسط عموما وغربه على وجه الخصوص صراعا بين النصارى الصليبيين والمسلمين للسيطرة على المنافذ البحرية والبحر المتوسط، لأهمية ذلك في السيطرة على طرق التجارة البحرية؛ فشهدت تلك المرحلة بعض أهم الملاحم في تاريخ طرابلس، حين اتجهت إسبانيا بأسطولها البحري الكبير إلى مهاجمة السواحل المغاربية عموما والطرابلسية بوجه خاص، فاستولت على بضع المدن المهمة، مثل سبتة وطنجة وتلمسان ووهران وبجاية وطرابلس في الفترة الممتدة من سنة 1497م وإلى غاية سنة 1511م. ودافع سكان طرابلس عن مدينتهم باستماتة، وهذا ما ذكره الكونت بتر ودي فارو، قائد الحملة

الإسبانية على طرابلس، في رسالته إلى نائب صقلية. إذ كتب "لقد كان الطرابلسيون يقاومون مقاومة عنيفة".

✓ نتيجة اشتداد المقاومة الشعبية، وتزايد خطر العثمانيين في البحر، تنازل الإسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا خلال سنة 1530. لكن هذا القرار لم يرض سكان المدينة، الذين استعانوا بالخلافة العثمانية القوية، وقتذاك، لطردهم. وهو ما حصل بقيادة القائد العثماني درغوت باشا، الذي تزعم الحملة المكونة من العثمانيين والمقاومة الطرابلسية. وبعد النصر على قوات القديس يوحنا اتخذ درغوت باشا من تاجوراء مقراً للقيادة مؤقتاً، وأصبحت طرابلس رسمياً ولاية تابعة للدولة العثمانية، تحت اسم "ولاية طرابلس".

✓ شهدت طرابلس إزدهارا كبيرا في بداية العهد العثماني، فأنشئت الأسواق، التي تركزت في الناحية الشرقية من المدينة القديمة، ولا تزال معالمها حتى اليوم. وترجع أسباب تركز هذه الأسواق في هذه الناحية من طرابلس إلى قربها من البحر. إذ إنه منفذ تصريف الإنتاج واستقبال البضائع الآتية من الشمال الأوروبي. كما أن طرابلس كانت قريبة من مصدر السلطة، بعد بناء قلعة السرايا، التي لا تزال حتى اليوم في عداد أهم معالم طرابلس التاريخية، التي صارت مقر الإدارة العثمانية.

✓ سيطرت الأسرة القرمانية على مقاليد الأمور في طرابلس مع مطلع القرن السابع عشر ميلادي. إذ قاد القائد التركي أحمد باشا القرماني ثورة على الوالي العثماني بمساندة شعبيته بسبب الفساد الذي استشرى في ولاية طرابلس الغرب. فاستولى على الحكم ووضع حداً للفساد والفساد، ومنح السلطان العثماني مكرها ولاية طرابلس حكماً شبه ذاتي لإدارتها. فازدهرت ولاية طرابلس في العهد القرماني، وصارت طرابلس تملك أسطولا قويا مكنها من أن تتمتع بشخصية دولية وأصبحت تنعم بنوع من الاستقلال. وصارت قوة مهابة في البحر الأبيض المتوسط، حتى أنها خاضت معارك بحرية مع كبريات الدول الأوروبية، انتهت بتوقيع معاهدة سلام تلتزم فيها دفع ضرائب سنوية لباشا طرابلس، مقابل عدم التعرض لسفنها في البحر المتوسط. وللدلالة على الازدهار الذي عاشته طرابلس في ذلك العهد، يكفي أن نعرف أنها كانت تضم 36 مسجداً

- 3 حمامات عامة ومدرستين ومستشفى كبير وكنيسة وعددا كبيرا من المباني التاريخية، مثل قصر القرماني وقنصليات أوروبية عديدة، كالقنصلية الفرنسية والهولندية والبريطانية وقنصلية جنوى.
- ✓ وهنت الدولة القرمانية، وعاد العثمانيون إلى السيطرة على المدينة وإعادة تبعيتها إلى السلطان في إسطنبول، في ما يعرف بالعهد العثماني الثاني.
- ✓ من خلال عرضنا الموجز لمسار التاريخي للعلاقات الجزائرية مع بعض دول وممالك أوروبا نلاحظ بأن قوة الأسطول الجزائري هي التي مكنتها من فرض سيطرتها ليس على البحر الأبيض المتوسط فقط، بل على مستوى كل العالم. كما أن منطق المصالح هو الذي كان يحرك العلاقات بين مختلف الأطراف، ما أكدته السمة المشتركة بين كل تلك الدول والممالك، أنه بمجرد ما كانت تتعرض فيها البلاد إلى نكسات، تشن عليها هذه الأطراف حملات شرسة قصد اضعافها ثم احتلالها.
- ✓ تبين لنا أن مسار العلاقات بين البلدين عرف اتجاهين، أحدهما سلمي والآخر عدواني، والسبب في ذلك أن المنطق الذي كان يسير العلاقات بين البلدين اعتمد على القوة، بمعنى أن كل الدول التي ربطت علاقات مع الجزائر كان من منطلق الخوف من قوة أسطولها البحري، ولكن عندما كان يعرف هذا الأخير نكسات تستغل معظم الأطراف الفرصة لتتعدى على السيادة الترابية للبلاد مستعملة في ذلك كل الوسائل والسبل.
- ✓ لعب الموقع الاستراتيجي الممتاز الذي كان تتمتع به المغرب الأقصى دورا بارزا ومهما في ربط علاقات مع مختلف الأطراف منه ما كان على مستوى أوروبا، ومنه ما كان على مستوى افريقيا. واختلفت طبيعة العلاقات مع كل طرف على حسب المصالح المشتركة، والظروف المصاحبة لها.
- ✓ ربطت تونس خلال العهد العثماني علاقات مع مختلف دول وممالك العالم، نظرا لموقعها الاستراتيجي، وقوتها البحرية، ولكن من كان لها الأفضلية والتميز هي فرنسا، إذ منح لها العديد من الامتيازات فتحت لها المجال ببسط نفوذها ليس على مستوى اية تونس فقط بل على غربي البحر الأبيض المتوسط.

✓ بحكم الموقع الاستراتيجي المهم والممتاز راجت الروابط الاقتصادية بين طرابلس الغرب وافريقيا، فكانت ملتقى ومعبّر للقوافل التجارية.

✓ من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا القول بأن المسار التاريخي للعلاقات الجزائرية الطرابلسية عرفت توافقا وتقاربا سياسيا وعسكريا واقتصاديا مقارنة بتلك التي مست كل من تونس ومغرب الأقصى.

✓ يقترب مفهوم الرحلة اصطلاحا من مفهومها اللغوي، إذ يشتركان في الصفة اللازمة بفعل الارتحال، وهي الحركة والانتقال.

✓ ينقل الرحالة للقارئ صوراً أو طرائق وقصصا ومشاهدات لكل ما رأى وشاهد. والتراث الإسلامي ملئ من أخبار الرحلات والرحالة وما دونه عن مشاهداتهم ووصفهم من نماذج رفيعة من أدب الرحلات مما جعل السفر تراثا ليتصل بالجغرافية الوصفية والتاريخ الإسلامي. ولقد سجل الرحالة مشاعرهم بأسلوب جميل ومؤثر. فالرحالة يكتب كتابا متنقلا، تضم صفحاته صوراً لبلاد مختلفة التي يمر بها ووصف الأماكن والمساجد والمكتبات والشخصيات التي يلتقى بها وجمع معلومات وغيرها.

✓ لعبت الرحلة العلمية دورا بارزا في التأسيس لتواصل ثقافي بين الفضاءات المغاربية.

✓ ظهرت شخصيات علمية كان لها دورا مهما في تنشيط الحركة العلمية في دول المغرب العربي.

✓ شكلت الطرق الصوفية إحدى أهم رموز المجتمع المغاربي ولاسيما في الفترة الوسيطة وتعبّر بشكل قوي عن انتماءه الديني والروحي وهذا ما يعكس لنا التأثير القوي للطرق الصوفية في حياة الناس كالولاء المطلق لشيخ الطريقة و التبرك بالأولياء والمقدمين وغيرها من المظاهر التي تبين لنا مدى تأثير الطرق في المجتمع الجزائري المغاربي.

✓ أثرت وتأثرت الطرق الصوفية بالوجود العثماني سلبا وإيجابا، أما من الجانب السلبي فتبينه لنا تلك الثورات الشعبية الثورات كالثورة الدرقاوية والتيجانية بالجزائر، أما من الجانب الإيجابي فيبرز من خلال العلاقة القوية التي ربطت الطريقة السنوسية بالسلطة العثمانية بطرابلس الغرب لدرجة إعفاء الزاوية السنوسية من الضرائب وإعطاء شيوخها الهدايا والوصايا.

- ✓ من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية في الجانب الاجتماعي من هذا المقياس نلاحظ أن الفضاءات المغاربية عرفت تغييرات في المنظومة الاجتماعية نظرا لتسلل عناصر دخلية كان لها الفضل في التأسيس لتمازج اجتماعي وثقافي
- ✓ كما نلاحظ بأن البلدان المغاربية والجزائر انموذجا عرفت تنظيما دقيقا في المؤسسات الجبائية، كما حققت تقدما ملحوظا فيما يخص الجانب الحرفي والفلاحي بفعل تواجد الجالية الأندلسية

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ- المخطوطات

- 1- مؤلف مجهول- تاريخ الأندلس- مخطوط رقم: 1528- الخزانة الحسينية- الرباط
- 2- مؤلف مجهول،- كتاب غزوات عروج وخير الدين- مخطوط رقم: 1622- المكتبة الوطنية (الحامة)- الجزائر

ب- الوثائق الأرشيفية

- 3- أ.و. ج. مهمة دفترى 14 حكم 1597 صحيفة 1087 تاريخ 18-01-979هـ.
- 4- ملف الوثائق العثمانية رقم: 1642، التقرير رقم: 6 و 18 في الترتيب العام للملف- المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات- الجزائر.
- 5- ملفات الوثائق العثمانية- قم الملف: 1640- المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات - الجزائر.
- 6- ملفات الوثائق العثمانية- قم الملف: 3205- المكتبة الوطنية بالحامة - قسم المخطوطات - الجزائر.

ج- المصادر المنشورة والمحققة باللغة العربية

- 7- بن أشنهو عبد الحميد أبي زياد- دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر- د ط- 2 شارع نورمندي- الجزائر- د س ط.
- 8- ايتوري روسي- ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م- تر: خليفة محمد التليسي، ط: 1- دار العربية للكتاب- الاسكندرية- 1972م.
- 9- عبد الله التنسي محمد - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان- تح: محمد آغا بوعباد- د ط- موفم للنشر- الجزائر- 2011م.

- 10- التوزري محمد بن علي بن الشباط - وصف الأندلس (قطعة من كتاب صلة الصمط وسمحة المرط)- دراسة وتحقيق: أحمد مختار العبادي- ط:1- المعهد المصري للدراسات الإسلامية- مدريد- 1971م.
- 11- التيجاني أحمد - رحلة التيجاني- تق: حسن حسني عبد الوهاب- د ط- الدار العربية للكتاب- ليبيا- تونس- 1981م.
- 12- المحجري أحمد بن قاسم- ناصر الدين على القوم الكافرين- تح: رزوق محمد- ط: 1- كلية الآداب والعلوم الانسانية- دار البيضاء- 1407هـ/1987م.
- 13- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار- تح: إحسان عباس- ط: 2- مؤسسة ناصر للثقافة- القاهرة- 1980م.
- 14- ابن خلدون بن محمد بن عبد الرحمن- تاريخ ابن خلدون - المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- ج: 6- د ط- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- 1391هـ/1871م.
- 15- // - المقدمة- تح: إبراهيم الأبياري- ط: 1- دار الكتب اللبناني- بيروت 1402هـ/1982م.
- 16- خوجة حمدان بن عثمان- المرأة- تق وتع: محمد العربي الزبيري- ط: 2- المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1982م.
- 17- خير الدين بروس- مذكرات خير الدين بروس- تر: محمد الدراج- ط: 1- الامالة للنشر والتوزيع- الجزائر- 2010م.
- 18- دوفال بيار- الرئيس حميدو- تع: محمد العربي الزبيري- د ط- المؤسسة الوطنية الجزائرية للطباعة- الجزائر- 1972م.
- 19- ابن أبي دينار الرعيني القيرواني- المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس- ط: 1- مطبعة دولة تونس- تونس- 1869م.

- 20- الراشدي أحمد بن عبد الرحمان الشقراني- القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط- تح وتق: ناصر الدين سعيدوني- ط:1- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1991م.
- 21- ابن زرقة- الرحلة القمرية من كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن 18 ميلادي- تح: مختار حساني- د ط- جامعة الجزائر- الجزائر- 2003م.
- 22- الزهار الشريف- مذكرات الحاج الشريف الزهار- تح: أحمد توفيق المدني- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر- 1980م.
- 23- الزياني أبو القاسم- تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب- تق: رشيد الزاوية- ط:1- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الرباط- 2008م.
- 24- الزياني محمد يوسف- دليل الجيران وأنيس السهران في اختيار مدينة وهران- تق وتق: المهدي بوعبد الله- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1979م.
- 25- ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني- تح: المهدي البوعبدلي- د ط- منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية- مطبعة البحث- الجزائر- 1973م.
- 26- شلوصر فندلين- قسنطينة أيام أحمد باي- تر وتق: أبو العيد دودو- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- د س ط.
- 27- الضعيف الرباطي- تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)- تح: أحمد العامري- ط:1- دار المؤثرات- الرباط أكدا- 1406هـ/1986م.
- 28- بن عبد الله عبد الواحد محي الدين المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب- تح: العريان سعيد- د ط- المجلس الأعلى للشؤون العربية- الجمهورية العربية المتحدة- د س ط.
- 29- ابن عذارى المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- ج:4- تح: بروفنسال ليفي- ط:3- دار الثقافة- بيروت- 1983م.
- 30- بن العطار أحمد بن مبارك- تاريخ حاضرة قسنطينة- تح: رابح بونار- د ط- د مط- د س ط.
- 31- الغزال أحمد بن المهدي- نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد (رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس)- تح وتق: اسماعيل العربي- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1984م.

- 32- ابن غلوان عبد الله محمد ابن خليل الطرابلسي - التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - تع: طاهر أحمد الزاوي - ط: 1 - دار المدار الإسلامي - ليبيا - 2004م.
- 33- فيرو شارل - الحوليات اللبية - تع: محمد عبد الكريم الوافي - ط: 3 - جامعة قاريونس - بنغازي - 1994م.
- 34- محمد أبو راس الجزائري - فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل رب ونعمته " حياة أبي راس الذاتية" - تع: محمد بن عبد الكريم - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر
- 35- محمد الأندلسي الوزير السراج - الحلل السندسية في الأخبار التونسية - ج: 2 - تق - تع: محمد الحبيب الهيلة - د ط - دار الكتب الشرقية - تونس - 1973م.
- 36- مرمول كرخال - افريقيا - ج: 2 - تر: محمد حجي وآخرون - دار المعرفة. الرباط - د ط - 1989م.
- 37- المزاري ابن عودة - طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا أواخر القرن 19م - ج: 2 - تع: يحي بوعزيز - ط: 1 - دار الغرب الإسلامي - 1990م.
- 38- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش - تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها - جم: فارس كعوان - ط1 - بيت الحكمة - الجزائر - 2009م.
- 39- المقدسي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - تع: مخزوم محمد - دط - دار أحياء التراث العربي - بيروت - 1987م.
- 40- المقري بن محمد أحمد شهاب الدين التلمساني - نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس - د ط - دار صادر - بيروت - 1408هـ/1988م.
- 41- مؤلف مجهول - نبذة العصر في أخبار انقضاء دولة بني نصر - تع: مؤنس حسين - ط: 1 - مطابع الزهراء للإعلام العربي القاهرة - 1991م.
- 42- بن ميمون محمد الجزائري - التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية محمد بن عبد الكريم - ط: 2 - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1985م.

- 43- الناصري أو العباس أحمد بن خالد- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية- ج:5- تح:جعفر الناصري ومحمد الناصري- د ط- دار الكاب- دار البيضاء- د س ط- 1997م.
- 44- النويري أحمد بن عبد الوهاب- المغرب الإسلامي في العصر الوسيط- من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب- تح وتع: مصطفى أبو ضيف أحمد- د ط- د النشر المغربية- الدار البيضاء- د س ن.
- 45- هاينريش بارت- سبعة رسائل محفوظة لهاينريش بارت عن رحلته إلى تونس (1845-1846)- تح: منير الفندي- د ط- بيت الحكمة- 1987م.
- 46- هوميروس- الأوديسة- تر: عنبرة سلام الخالدي- د ط- دار العلم للملايين- بيروت- مارس 1983م.
- 47- هيروودوث- أحاديث هيروودوث- عن الليين الأمازيغ- تر وتع: مصطفى أعشى- د ط- مطبعة المعارف الجديدة- الرباط- 2008م.
- 48- الوزان بن محمد الحسن- وصف افريقيا- ج:2- تر: محمد حجي ومحمد الأخضر- د ط- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1983م.
- 49- وليام سبنسر - الجزائر في عهد رياس البحر- تر: عبد لقادر زيادية- د ط- دار القصبه للنشر- الجزائر- د س ط
- 50- وليام شارل- قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824- تع وتق وتح: إسماعيل العربي- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر- 1982
- 51- اليعقوبي- البلدان- وضع الحواشي: محمد أمين ضناوي- د ط- دار الكتب العلمية- بيروت لبنان- د س ن.
- 52- اليفريني- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي- تق: هوداس- مطبعة أرنست لورو- باريس- 1989م.

(د)- المصادر باللغة الأجنبية

- 53- M . Léon Galibert- L'Algérie ancienne et moderne, Parie: Furne et C libraire-éditeur.
- 54A.Bellegrin_ Essai sur les nems et les les lieux d'Algérie et de Tunisie_ Etymologie édition_ Tunis _S. A. P. I_ 1940.

- 55Aramburu J- Oran et l'ouest algérien au 18^{ème} siècle- Présentation et traduction : korso et Epalza- B-N- Alger- 1978.
- 56Auteur inconnue- Histoire des états Barbaresques par un auteur qui a résidé plusieurs années avec caractère public, Traduit de l'anglais- T : 1- Chez Chaubert Quai, des Augustins Hérisant imprimerie.
- 57Azner Cardona Expulsion-Justificada de los Mariscos Espanoles- Parte2- Capitulo 2 .
- 58Berteuil- L'Algérie française- Histoire, Mœurs, Industrie, Agriculture- T : 2 - Dentu libraire- Paris-1856
- 59Bronat y Barrachina- Los moriscos Espanoles y su expulsion- Valencia- 1901.
- 60Bronat y Barrachina- Los moriscos Espanoles y su expulsion- Valencia- 1901.
- 61Claude Bontems-Les institutions Algériennes sous la domination Turque.
- 62Defontin Maxange- Alger avant la conquete – Eulg Ali- A. Pedone editeur- Paris- 1930.
- 63Esterhazy Walisn- Domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger- Paris- 1840.
- 64Gabriel Esquer- La prise d'Alger (1830)- Librairie ancienne H Champion-Edouard- Parie- 1923.
- 65Henri Delmas De Grammont- Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515_1830- Ernest Lerous d'éditeur- Parie – 1887.
- 66Henri Delmas De Grammont- Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515_1830- Ernest Lerous d'éditeur- Parie – 1887.
- 67Henri Grammont, Le R'azaout est-il l'œuvre de Kheir_Ed_Din (Barbarousse)- Imprimerie de X. Duteis- 1830.
- 68L. Didier- Histoire d'Oran période 1501_ 1510- Oran - Jeanne d'arc- 1927.
- 69Louis Piesse- Itérinaire de l'Algérie de la Tunisie et de Tanger- Libraire Hachette- Paris-1882.
- 70M. Alferd Nettement- Histoire de la conquete d'Alger- Libraire Jacques Le Coffre
- 71Pierre Boyer L'évaluation de l'Algérie médiane, ancien département d'Alger de 1830 a 1956- Libraire d'Amérique et d'ocient- Andien Maisonneuve- Parie- 1960.
- 72Shaw-Voyage dans la régence d'Alger- Traduit de l'anglais avec nombreuses argumentation des notes géographique et autres- Par: J. Caly Mac, Cathy Martin- 1831.
- 73Ursu (J)- La politique orientale (1545-1547)- Imprimerie- F. Paillart- Parie- 1908
- 74Venture De Paradis- Alger aux 18^{ème} siècle- Fagnan- Alger- 1898.

ثانيا: المراجع

أ- المراجع باللغة العربية

- 75 أحمد رائف- وتذكروا من الأندلس الابدادة- ط:1- الزهراء للإعلام العربي- القاهرة- 1407هـ
1987/م.
- 76 أحمد رمضان أحمد- الرحلة والرحالة المسلمون- د ط- دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع-
مصر- د س ن.
- 77 أرينال مرثيدس غارثيا- محاكم التفتيش والموريسكيون- تر: خالد عباس- تق: جمال عبد الرحمان- د
ط - المجلس الأعلى الثقافي - د ب ن- 2004م.
- 78 إسماعيل أمين- العرب لم يغزو الأندلس (لمحة تاريخية مختلفة)- ط:1- الرئيس للكتب والنشر-
رياض- 1991م.
- 79 أغناطيوس كراتشكوفسكي- تاريخ الأدب الجغرافي- تر: صلاح الدين عثمان هاشم- مر:
ايغوريلياف- د ط- 1957م.
- 80 إيبارا ميغيل أنخيل بونيس- حرب غرناطة كما رآها القشتاليون من خلال مخطوطة لم تنشر بعد-
بحث نشر ضمن: دراسات أندلسية وموريسكية، تر وتق: جمال عبد الرحمن- ط:1- المركز القومي
للترجمة- القاهرة- 2008م.
- 81 الباروني عمر محمد- الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس- د ط- د د ن- د س ن.
- 82 بازامه محمد مصطفى- ليبيا في عشرين سنة من حكم الاسبان 1510-1530- د ط- منشورات
مكتب الفراجاني- طرابلس- د س ن
- 83 براتشينا دون باسكوال بورونا- الموريسكيون الإيبان ووقائع طردهم- ج:1- تر: كنزة الغالي-
ط:1- مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط- د ب ن- 1433هـ/2012م.
- 84 بشاري لطيفة- العلاقات التجارية للمغرب الاوسط في عهد امارة بني عبد الواد من القرن السابع
الى القرن العاشر هجريين(13-16م)- ط:1- منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف- الجزائر-
2011م.

- 85 البشتاوي عادل سعيد- الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)- ط:1- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- 2000م.
- 86-////////////////////- الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة)- د ط- مطابع أنترناشيونال برس- القاهرة- 1403هـ/1983م.
- 87 بلقاسم مولود قاسم نايت- شخصية الجزائر وهيمنتها الدولية قبل 1830م- ج:2- د ط- دار الهومة- الجزائر- 2007م.
- 88 تدمري عمر عبد السلام- تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور- ج:1- د ط- دار البلاد- طرابلس- د س ن
- 89 تشارلس هنري- العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة- تر : الكرمي حسن سعيد- ط:1- دار لبنان للطباعة والنشر- بيروت- 1988م.
- 90 التليسي خليفة محمد- حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب- ط:3- دار الكتب الوطنية- ليبيا- 1997م.
- 91 التميمي عبد الجليل- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني- ج:1- د ط- د د ن- تونس- 1984م.
- 92-////////////////////- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني- ج:1- د ط- د د ن- تونس- 1984م.
- 93 جمل شوقي عطا الله- المغرب العربي الكبير في العصر الحديث- ليبيا - تونس- الجزائر- المغرب- ط:1- القاهرة- 1977م.
- 94 الجميل سيار الجميل- تكوين العرب الحديث- ط1- دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان، الأردن- 1997م.
- 95 الجوهري يسرى- جغرافية البحر المتوسط- د ط- منشأة المعارف الإسلامية- الاسكندرية- 1984م.

- 96 الجليلي عبد الرحمن بن محمد- تاريخ الجزائر العام- ج:3- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- د س ط.
- 97 الحايك سيمون- ابن أمية أو ثورة الموريسكيين- د ط- د د ن- د ب ن- 1996م.
- 98-////////// ابن أمية أو ثورة الموريسكيين- د ط- د د ن. ال
- 99 الحجي علي عبد الرحمان- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897.92هـ/1492.711م)- د ط - دار القلم- دمشق- د س ط.
- 100-الحجي علي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897.92هـ/1492.711م)- د ط- دار القلم- دمشق- د س ن.
- 101 حسني حسن عبد الوهاب- خلاصة تاريخ تونس- ط:3- دار الكتب العربية الشرقية- تونس- 1373هـ.
- 102 حسني عبد الوهاب- خلاصة تاريخ تونس- د ط- الدار التونسية للنشر- تونس- 1983م.
- 103 حسين محمد فهميم- أدب الرحلات- عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ع:138- شوال 1409هـ/1989م.
- 104 حليمي عبد القادر- مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م- د ط- دار الفكر الإسلامي- الجزائر- 1972
- 105 حمادي عبد الله- الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس- د ط- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- الدار التونسية للنشر- تونس- 1989م.
- 106 حنش إدهام محمد- الخط العربي في الوثائق العثمانية- ط:1- دار المنهاج- 1418هـ/1998م.
- 107 حومد أسعد- محنة العرب في الأندلس- ط:1- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- 1400هـ/1980م.
- 108 حنوف علي- السلطة في الأرياف الشمالية لبابلك الشرق الجزائري هاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي- د ط- مطبعة العناصر- الجزائر- د س ط.

- 109 خير محمد فارس- تاريخ الجزائر الحديث الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي- د ط- مكتبة النهضة الجزائرية- الجزائر- 1969م.
- 110 دنون عبد الواحد- آفاق غرناطة- د ط- دار المعرفة- دمشق- 1408هـ/1988م.
- 111 دياب فؤاد- المغرب الأقصى بين الماضي والحاضر- د ط- الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة- د س ط
- 112 راشدي راسم- طرابلس الغرب في الماضي والحاضر- ط:1- د د ن- طرابلس، ليبيا- 1953م
- 113 الزاوي الطاهر أحمد- تاريخ الفتح العربي في ليبيا- ط:1- دار المعارف - 1963م.
- 114 //- ولاية طرابلس من بداية الفتح إلى نهاية الهد التركي- ط:1- دار الفتح- بيروت- 1970م.
- 115 الزيري العربي- التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792- 1830م- د ط- المؤسسة الوطنية للكتاب- اجزائر- 1984م.
- 116 //////////////// -مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث- ط:1- دار المسيرة- الأردن- 2010م.
- 117 الزويعي محمود- محاكم التفتيش الاسبانية (922هـ/1516م)- د ط- دار زهران للنشر والتوزيع- الأردن- د س ط. ال
- 118 سالم عبد العزيز- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس- د ط- د د ن- بيروت- 1962م.
- 119- سبنسر ترمنجهام- الفرق الصوفية في الإسلام- تر:عبد القادر البحراوي- دار المعرفة الجامعية- 1994م.
- 120 ستانلي لين بول- قصة العرب في اسبانيا- تر: علي جارم بك- د ط- د د ن- مصر- د س ط.
- 121 سعد الله أبو القاسم- تاريخ الجزائر الثقافي- ج:1، ج:9- د ط- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1998م.
- 122 //- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال- ج: 2- ط:3- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1982م.

- 123-////////////////////- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال- ج:2- ط:3- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1982م.
- 124 سعيدوني ناصر الدين- تاريخ الجزائر في العهد العثماني ويلييه ولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس طرابلس، المغرب)- ط:2- البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- د س ن
- 125-////////////////////- وراقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثماني)- ط1- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1999م.
- 126 سليمان أحمد- تاريخ مدينة الجزائر- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- د س ط
- 127 شارل أندري جوليان- تاريخ إفريقيا الشمالية- تع: محمد العرابي والبشير ابن سلامة- ج2- الدار التونسية للنشر والتوزيع- تونس- 1985
- 128 شريف محمد الهادي- تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال- تع: 129 محمد الشاوش ومحمد عجينة- ط:3- دارالسرّاس للنشر- تونس- 1993م.
- 130 شعيب محمد المهدي- أم الحواضر في الماضي والحاضر- د ط- مطبعة البعث- قسنطينة- 1980م.
- 131 شوقي عطا الله جمل- واد المخازن- معركة الملوك الثلاثة القصر الكبير- ط:1- دار الفكر- دمشق- د س ط.
- 132 الصلابي محمد علي- تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا- ط3- دار المعرفة- بيروت- لبنان- 2009م.
- 133-ضيف شوقي- الرحلات- ط:4- دار المعارف- القاهرة- د س ط. ال
- 134-طمار محمد- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج- د ط- الشركة الوطنية لنشر والتوزيع- الجزائر- 1983م. ال
- 135 بن عامر أحمد- تونس عبر التاريخ- ط:1- مكتبة النجاح- تونس- 1379هـ/1960م.
- 136 عامر محمود علي ومحمد خير فارس- تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى وليبية" ج:1- د ط- د د ن- د ب ن.

- 137 العامري محمد الهادي- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول- د ط- الشركة التونسية للنشر والتوزيع- 1974م.
- 138 عباد صالح- الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م- د ط- دار هومة- الجزائر- 2007
- 139 العبادي مصطفى- الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري في مصر- د ط- دار المعرفة الجامعية- 1999م.
- 140 العراوي قيس- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط- ط:2- دار العربية للعلوم- بيروت- د س ن.
- 141 العروسي المطوي- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب- ط: 1- نشر دار الكتب الشرقية- تونس- 1374هـ/1954م.
- 142 بوعزيز يحيى- الموجز في تاريخ الجزائر العام-ج:2- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 2007م.
- 143 بوعزيز يحيى- مدينة وهران عبر التاريخ ويليها مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ويليها المساجد العتيقة في الغرب الجزائري- طبعة خاصة- دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- 2009م.
- 144-////////////////- مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1999م. بو
- 145-////////////////- موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والمغرب- ج:1- د ط- دار الهدى- الجزائر- 2009م.
- 146 العسلي بسام- خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1547)- د ط- دار النفائس- بيروت- 1983م.
- 147 العقاد صالح- المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر" الجزائر، تونس والمغرب"- ط6- مكتبة الأناضول المصرية- 1993م.
- 148 العقاد عباس محمود- عبقرية الصديق- د ط- منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت- د س ط.

- 149 على اسلام باشا- اسبانيا والأندلس- د ط- د د ن- الاسكندرية- 2001م.
- 150 عمران محمود سعيد- حضارة أوروبا في العصور الوسطى- د ط- دار المعرفة الجامعية- بيروت- 1989م.
- 151 عمري الطاهري- بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي- جامعة منتوري- قسنطينة- 2001م.
- 152 عمورة عمار ونيل داودة- الجزائر بوابة التاريخ (الجزائر العامة ما قبل التاريخ إلى 1962م- ج:1- دار المعرفة- 2009م.
- 153 عنان محمد عبد الله- الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أثرية)- ط:2- مطبعة التأليف والترجمة والنشر- 1311هـ/1921م.
- 154 عنان محمد عبد الله- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين- دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع- ط : 4- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1987م.
- 155 عوض محمد مؤنس أحمد- الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام- ط1- الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- 1995م.
- 156 العيدروس محمد حسن- تاريخ العرب الحديث- ط- دار الكتاب الحديث- القاهرة- 2001م.
- 157 غطاس عائشة- الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها- د ط- منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث- د ب ن- 2007م.
- 158 غوستاف لوبون حضارة العرب- تع: زعيتر عادل- د ط- د د ن- مصر- 1945م.
- فارس- مقاييس اللغة- ج:2- د ط- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- د س ن. ابن
- 159 فاسي محمد- تاريخ إفريقي عام- ج3- بحث نشر ضمن المؤلف الجماعي- ط2- المطبعة الكاثوليكية- بيروت- 1990م. ال
- 160 فركوس صالح- الحاج أحمد باي قسنطينة (1826-1830)- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- د س ن.

- 161-////////////////- المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفتيقيين إلى خروج الفرنسيين- د ط- دار العلوم للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م.
- 162 فرنان بروديل- البحر المتوسط المجال والتاريخ- تر: عمر بن سالم- دط- منشورات وزارة الثقافة- تونس- 1990م.
- 163 فيلاي عبد العزيز- تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)- ج:1- د ط- موفم للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م.
- 163 فيليب حتى- العرب تاريخ موجز- ط:6- دار العلم للملايين- بيروت، لبنان- 1991م.
- 165 القاسمي ظافر- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي- ط:5- دار النقاش- لبنان- 1405هـ/ 1985م.
- 166 قشتيلو محمد- الموريسكيون في الأندلس وخارجها- ط:3- منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات- الرباط- 2008 م.
- 167 قطب سيد- في ظلال القرآن- ج06- دار الشروق- بيروت لبنان- 1982م.
- 168 قطب محمد علي- مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس- ط:1- د ب ن- د د ن.
- 169 قنان جمال- معاهدات الجزائر مع فرنسا 1816-1830- د ط- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1997م-
- 170 قنديل فؤاد- الرحلة في التراث العربي- ط:2- مكتبة دار العربية للكتاب- القاهرة- 2002م.
- 171 كارل برولكمان- تاريخ الشعوب الإسلامية- تر: منير البعلكي وأمين فارس- دار العلم للملايين- لبنان- 1848
- 172 الكتاني علي المنتصر- انبعاث الإسلام في الأندلس- الجامعة الإسلامية العالمية- ط:1- مجمع البحوث الإسلامية- إسلام آباد- 1313هـ/ 1992م. ا
- 173 كريم عيد الكريم- المغرب في عهد الدولة السعدية- ط:3- جمعية المؤرخين المغاربة- الرباط- د س ط.

- 174 الكعك عثمان - العلاقات بين تونس وايران عبر التاريخ - د ط - الشركة التونسية للتوزيع - تونس - 1972م.
- 175 كمالى اسماعيل - سكان طرابلس الغرب - تع: الحسن الهادي بن يونس - د ط - مركز الليين - طرابلس - د س ن.
- 176 كورين شفالبيه - الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1540م - تر: جمال حمادة - د ط - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1991م
- 177 محمد الأمين محمد وآخرون - المفيد في تاريخ المغرب - د ط - دار الكتاب للنشر - الدار البيضاء - د س ن.
- 178 المدني أحمد توفيق - حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م - ط: 5 - عالم المعرفة - الجزائر - 2010م.
- 179 //////////////// عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791) - د ط - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1986م. ال
- 180 //////////////// كتاب الجزائر - د ط - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1984م
- 181 مغازي أماني بنت جعفر بن صالح - دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية - ط: 1 - دار القاهرة - القاهرة - 2007م. ال
- 182 مؤذن عبد الرحمن وعبد الرحيم بنجاده - العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة - ط: 2 - منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية - الرباط - 2005م. ال
- 183 الملي محمد مبارك - تاريخ الجزائر في القديم والحديث - ج: 3 - د ط - مكتبة النهضة الجزائرية - الجزائر - 1964م.
- 184 ناصر الدين سعيدوني - دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 2003م.
- 185 نجار حسين فوزي - التاريخ والسير - د ط - دار العلم - القاهرة - 1963م. ال

- 186 نواب عواطف محمد يوسف - الرحلات المغربية والأندلسية: دراسة تحليلية مقارنة- مطبوعات الملك
الفهد الملكية- الرياض- د س ن.
- 187 هريدي صالح أحمد- تاريخ العلاقات الدولية والحضارة الحديثة- ط:1- دار الوفاء- الإسكندرية-
2007م.
- 188 هلايلي حنفي- العلاقات الجزائرية ونهاية الايالة (1815-1830)- ط:1- دار الهدى-
الجزائر - 2007م.
- 189 وليام سبنسر - الجزائر في عهد رياس البحر- تر: عبد لقادر زبادة- د ط- دار القصبه للنشر-
الجزائر- د س ط.
- 190 وولوف جون- الجزائر وأوروبا(1500-1830)-تر، نع: أبو القاسم سعد الله- د ط- دار
الرائد- الجزائر- 2009م.
- 191 ياغي اسماعيل أحمد- العالم العربي في التاريخ الحديث- ط:1- مكتبة العبيكان- الرياض، المملكة
العربية السعودية- 1997م
- 192 يحيوي جمال- سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610- د ط- دار الهومة للطباعة
والنشر والتوزيع- الجزائر- 2004م.
- 193 سي يوسف محمد- أمير أمراء الجزائر عالج علي- د ط- دار الأمل- الجزائر- 2009م.
- (ب)- المراجع باللغة الأجنبية

- 194Abdel Jelil Temimi, Le beylec de Contantine et Ahmed bey 1830-1837-V : 1-
Publication de la revue d'histoire Maghrébine- 1987.
- 195Loius Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier day- Typographie Adolphe-
Jourdon imprimerie_ libraire_ éditeur- 1999.
- 196Louis Cardaillac- L'Espagne des Rios catholiques (Le prince don Juan Symbol
de l'apofée d'un règne, 1474_1497 Edition Aurement _ collection Mémoires.
- 197M. Kaddache- L'Algérie durant la période Ottomane- Alger- O. P. U.
- 198Moulay Belhamissi- Marine et Marins d'Alger (1518-1830)- T : 1- Alger-
Bibliothèque nationale d'Algérie- 1996.
- 199Rodrigo de Zayas- Les moresques et le racisme d'état et la différence- Paris-
1992.
- 200S Lacoste- Géopolitique- De La Méditerranée- Armand Colin- Paris -2006.

ثالثا: المعاجم والموسوعات

أ- المعاجم

202 ابن منظور- لسان العرب- تح: عبد الله علي الكبير وآخرون- مج:3- د ط- دار المعارف- القاهرة- مادة رحل

203 الحموي شهاب الدين- معجم البلدان- ج:4- د ط- دار الصادر- بيروت- 2002م.

204 الزبيدي أبو الفيض محمد- تاج العروس من جواهر القاموس- د ط- دار الحكومة- الكويت- 1990م.

205 صابان سهيل- المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية- د ط- مكتبة الملك فهد- الرياض- 2000م.

206 عاصم مصطفى عبد الكريم- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية- ط:1- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1996م.

207 نويهض عادل- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحديث- ط:3- مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر- بيروت، لبنان- 1403هـ/1983م.

ب- الموسوعات

208 بولوس وهبة- موسوعة الأديان- دط- د د ن- د ب ن- د س ن- نسخة (PDF).

209 العنيمي عبد الفتاح مقداد- موسوعة المغرب العربي- ج:3- ط:1- مكتبة مدبولي-1414هـ/ 1994م.

210 فاخوري محمود وصلاح الدين خوام- موسوعة وحدات القياس العربية والاسلامية وما يعادلها بالمقاييس (الأطوال _ المساحات _ الأوزان _ المكايل)- د ط- مكتبة لبنان للنashرون- لبنان- د س ط.

211 نجيب زينب- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس- ج:2- ط:1- دار الأمير للثقافة والعلوم- بيروت- 1999م

213 يلماز أوزلتون- موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسية والعسكرية والحضارية- مج:1-
تر:عدنان محمود سلمان- ط:1- الدار العربية للموسوعات- د ب ن- 2002م.

رابعاً: الدوريات

أ- المقالات باللغة العربية

214 أرزقي شويتام- المجتمع وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830- رسالة دكتوراه- جامعة
الجزائر- 2005-2006

215 إنجيل بطرس- الرحلات في الأدب الانجليزي- مجلة الهلال- ع:7- القاهرة- 1975م.

216 بن دوى منير محمود- مفهوم الصراع : دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع- مجلة دراسات
مستقبلية- مركز دراسات المستقبل- مصر- جامعة أسيوط- ع:3- يوليو 1997م. بلعباس- الجزائر-
ع:11-12- مارس 2016م.

217 جحيدر عمار- آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث- د ط- الدار العربية للكتاب- الإسكندرية-
1991م.

218 الجمعي المنعم إبراهيم- الدولة العثمانية والمغرب العربي- د ط- دار الفكر العربي- القاهرة-
2002م.

219 حمدادو عمر- دراسة مخطوط الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية لأبي راس الناصري
المعسكري- عصور الجديدة- ع:1- الرشاد للطباعة والنشر- سيدي بعباس- 2011م.

220 حميدي جعفر عباس- تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر- ط:1- دار فكر للطباعة والنشر والتوزيع-
عمان- 2000م.

221 رزاق مريم- أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعث النشاط البحري الجزائري
الحديث- مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية- ع:33.

222 سعد الله أبو القاسم- من أخبار الداوي شعبان- مجلة التاريخ- ع:48- الجزائر- 1980م.

223 الشافعي درويش- العلاقات التونسية الفرنسية ما بين 1577-1685م- مجلة الروافد- مج:4-
ع:2- ديسمبر 2020م.

224 سيدي شيخ علي - نشأة مملكة كوكو وتطورها السياسي والعسكري والاقتصادي ما بين القرنين 16-18م- مجلة الحوار المتوسطي-

225 صحراوي عبد القادر- الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني- مجلة الحوار المتوسطي- ع3-4-10 مارس 2012م.

226 العربي إسماعيل- قصف الأسطول البريطاني للجزائر وأثاره في الأدب الإنجليزي- ع:42- الجزائر- 1978م.

227 مايدي كمال وصالح بوسليم- جوانب من العلاقات الخارجية لولاية تونس مع فرنسا والدويلات الايطالية في عهد حمودة باشا الحسني (1782-1814)- مجلة العصور- مج:17- ع:2- 2018م.

228 مقديش علجية- الطريقة الدرقاوية في الجزائر: مفهومه ومواقفها من الإحتلال الأجنبي 1786- 1914- مجلة التراث- ع25

229 مكيال دي إيلزا- وثائق جديدة حول الأندلسيين- تع : نور الدين الحلاوي- المحلية التاريخية المغاربية - تونس- ع : 15 - 16- جويلية 1979م.

230 مياسي إبراهيم- مساهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية- مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية- ع4- 2003-2004م.

(ب)- المقالات باللغة الأجنبية

231Berbugger- La mort du fondateur de la régence d'Alger- R. A- N° : 4, 1859, 1860.

232Charles Féraud- Les corporations des métiers a Constantine avant la conquete- R A- 1872

233Charles Féraud, Conquête de Bougie par les espagnols d'après un manuscrit arabe- R. A- T: 12-1868-

Charles Féraud_ Histoire des villes de la province de Constantine_ R,C, 1871_1872.

234Dureau De la Malle- Province de Constantine (recueil de renseignements)- Libraire de guide, Editeur des annales des voyages- 1837.

235Ernest Emerit- Le voiyage de la condamne a Alger en 1731- R. A- N°: 89- 1954.

236 Pierre Boyer- Les pachas triennaux à la revolution d'Ali Khoja (1571_ 1817)- R H- N: 495- (99/124)- P. U. F- 1970.

خامسا: المؤتمرات والندوات

237 خافيير كاستير فرنانديس - النبلاء المورسكيون: وهم تاريخي وواقع اجتماعي - بحث نشر ضمن أعمال المائدة المستديرة الموسومة ب: الأدب الأخميا دو - المورسكي، تزواج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي - منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات - د ط - المعهد الأعلى للتوثيق - تونس - أبريل 1995م.

238 - لوت لويات بالرات - غم المنفي الخفي (شهادة مورسكي من تونس) - بحث قدم ضمن أعمال المائدة المستديرة الموسومة ب: الأدب الأخميا دو - المورسكي، تزواج لغوي وعالم الاستطرادات اللامتناهي - تونس.

سادسا: الرسائل الجامعية

أ) - باللغة العربية

239 بن بلة خيرة - المنشآت الدينية بالجزائر العثمانية - رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه - الجزائر جامعة الجزائر - 2008م.

240 بن الخروف عمار - العلاقات بين الجزائر والمغرب (963-1069هـ/1518 - 1659م) - رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ - دمشق - 1405هـ/1983م.

241 القشاعي فلة المولودة ميساوي - الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792_ 1837) - رسالة مقدمة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث - معهد العلوم الاجتماعية - جامعة الجزائر - 1403هـ/1983م.

242 كليل صالح - سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني في احتلال المغرب الأوسط - رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير - جامعة العقيد الحاج لخضر - باتنة - 2007م

243 مرتاض عبد الحكيم - الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني - أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ والآثار بجامعة أحمد بن بلة - وهران -

-2015

244 مقصودة محمد- أوضاع الكراغلة في الجزائر وتونس وليبيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
الميلاديين دراسة سوسيو تاريخية مقارنة- رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه- جامعة وهران 1 أحمد بن

بلدة- 2018-2019

ب) باللغة الأجنبية

245 Laila Babes- Tribus, structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les Turcs- Mémoire pour le D. E. A d'études approfondies, Université de droit d'économie et de sciences d'Aix Marseille

246 Sylvie Martorell- Le Gouvernement Ottoman et la tentative de soulèvement des moresques de Valence (1577-1583)- Mémoire en vue de l'obtention de grade de dictateur de 3^{eme} siècle- Université de Franche comté des sciences de langage de l'homme et de la société- Octobre 1960